ظلال العقل العربي

مسقط رأسي على المجتمع العربي من منظور حضاري

الجزء الثاني



تأليف

محمد مبروك أبو زيد

مستشار قانوني

باحث دكتوراه في التحكيم الدولي

ظلال العقل العربي

مسقط رأسي على المجتمع العربي من منظور حضاري

الجزء الثاني

بقلم / محمد مبروك أبو زيد

سبتمبر ٢٠١٩

كافة حقوق الطبع محفوظة

First Version 2019 Egypt

Mr, Mohamed Mabrouk Abozaid

Copyrights reserved

المحتويات

مقدمة

الشعوب تعيش حياتها كما الأشجار.. تزدهر في فصول الربيع، وتثمر في فصول الصيف وتتساقط أوراقها في الخريف وتدخل في طور البيات الشتوي حتى يأتي ربيع جديد.. لكن هذه الأشجار بعضها تظهر ثماره وتختفي أوراقه في فترة قصيرة، وبعضها يظل مخضرا مثمرا لأطول فترة ممكنة.. وهكذا الحضارات، فالحضارة المصرية القديمة مختلفة عن الحضارة الصينية عن الهندية وعن البابلية والرومانية والإغريقية بالتسلسل عبر المواسم الحضارية... فهل تشابهت حضارة العرب مع إحدى هذه الحضارات؟ أم استقلت أم تقاربت مع الحضارات التي تزهر ولا تثمر مثل حضارة الهكسوس والمغول ؟ وما هو حجم ثمار الحضارة العربية مقارنة بالحضارات الأخرى السابقة عليها. وهل كان موسم ازدهارها وإثمارها طويلا أم قصيرا؟ وهل كان من نوعية العلوم السائلة أم العلوم الطبيعية أم كلاهما معا ؟ وهل للدين دور في بناء الحضارات ؟ وهل تقوم الحضارات على سواعد أبناء شعوبها وبجهدهم وعرقهم أم بتوظيف الآخرين للبناء ؟

بوجهٍ عام، الشعوب لا تعيش حياتها وعصورها الزمنية المتتابعة على خطٍ مستقيم في ذات المستوى الاجتماعي والاقتصادي، وإنما الشعوب تتموج حالتها الحضارية مثل موج البحر. فلو نظرنا إلى حقبة المصريين قبل الميلاد، سنجد عصرا فرعونيا طويلا يتدرج على فترات متقطعة من عصور الاضمحلال والازدهار، فلو مرت ألف سنة عاشها الشعب في جهل وفقر وقمع، تأتي بعدها ألفي سنة في رخاء وازدهار، كما هو حال الزمن يتبادل موجات موسمية بين الصيف والشتاء، فترتفع درجات الحرارة وتنخفض موسميا، الصيف رخاء وازدهار وانفتاح، والشتاء سكون وبرد وانكماش، ثم يبدأ صيف جديد.. وهكذا تسير الحياة.

وبالنظر إلى أن شعوب العالم متعددة وليست شعبا واحدا، أنسجة متعددة وليست نسيجا واحدا، ولذلك قد نجد شعبا أو أكثر يعيش في قمة الازدهار والرفاهية، بينما نجد شعوبا أخرى تعيش قاع الاضمحلال والتخلف والفساد، وربما نجد شعبا يصعد في طريقه إلى الحضارة، وشعبا آخر في طريقه للاضمحلال. فشعوب العالم تعيش على سطح الأرض مثل سطح البحر، موجات عديدة ومتكررة وحالتها متغيرة باستمرار، موجات في القمة وموجات في القاع وأخريات في الطريق بينهما صعودا أو هبوطا.. أو بتشبيه آخر أقرب للأذهان، فكل شعب يسلك طريق الحياة عبر الزمن، ولا يوجد طريق حضاري مستقيم على ذات الخط الأفقي المستوي، وإنما كل الطرق تكون متعرجة رأسيا فتصعد

وتهبط بمستوى الحضارة على طول الطريق وكأنها تصعد كوبري ثم تهبط نفق وتخرج منه خلال ألف سنة أو عدة آلاف سنة لتصعد كوبري آخر خلال آلاف السنين.. وهكذا الحياة، تظل حياة الشعب مستمرة على الطريق صعودا وهبوطا ازدهارا واضمحلالا، وهكذا.. وكل كوبري له طول معين وله مطلع وله مهبط.. هذه مسافات زمنية متقاربة، وكذلك كل نفق في طريق الحضارات له منزل وله جسم مُظلم وله مخرج قد يكون طويلا أو قصيرا فهو في كل الحالات بطول المسافة الزمنية للمنزل، فكلما كان صعود الحضارة مفاجئا كلما جاء سقوطها مفاجئا كما كانت حضارة العرب.. وكلما كان الصعود هادئا رصينا جاء السقوط هادئا عبر مسافة زمنية أطول كما كان حال الفراعنة، وعادة ما تبدأ الحضارات هبوطها بوقوع شعبها تحت الاحتلال من قبل حضارة أخرى صاعدة في طريقها، فالحضارات البشرية تعيش متطفلة على بعضها وتأكل أذيال بعضها.

ومن أولى ملامح الحضارة أن تسعى الشعوب بعقل جمعي لبناء نظام حكم مركزي قوي، وتزدهر أنشطة اقتصادية، وتتسع رقعة سيادته السياسية والجغرافية بتنظيم عسكري قوي، ويسانده تنظيم قانوني قوي ودقيق، مع تنظيم جيد للنشاط الاقتصادي بفروعه (زراعة – صناعة، تجارة) مع تطور الحركة العلمية ومؤسساتها التعليمية وصناعة التدوين. ففي حضارة بابل وآشور القديمة، وفي إيجبت الفرعونية، والصين القديمة، وحضارات أخرى كانت معاصرة لها أو لاحقة عليها مثل حضارة بيرو القديمة التي اكتشف بها بعض آثار للتحنيط، وحضارة المكسيك القديمة التي تركت أهراما تشبه هرم سقارة الفرعوني المدرج، هذه الشعوب عاشت حضاراتها على فترات ازدهار واضمحلال ولم تكن خطا مستقيما. ونجد في فترات الازدهار كانت هناك نظم قانونية دقيقة ودبلوماسية متبادلة بين الدول والممالك، ولغة وكتابة وتوثيق دقيق للأحداث التاريخية والعلوم والآداب والفنون، ويرتفع معدل احترام الشعب وتقديره للقيمة الإنسانية (حقوق الإنسان والحقوق المدنية وحقوق المرأة والطفل والحقوق والحريات في نطاق الأسرة والمجتمع على حد السواء)

بينما نجد العكس تماما في فترات الاضمحلال – برغم أنها تالية ولاحقة في التاريخ على فترة الازدهار- نجد أن الشعب يميل إلى القمع (السياسي والأسري) وتزداد سلطوية الرقابة الأبوية وتتعاظم سلطة الحكام والآباء إلى درجة تجعلها تحل محل القانون، حتى أننا نجد في فترات الازدهار الفرعوني لوحات جدارية على جدران المعابد تصور فصولا دراسية للأطفال يجلس فيها الأطفال الإناث سواءً بسواء مع الذكور، ونجد احتراما لحقوق الإنسان، بينما كان العرب يقتلون البنات ويدفنونهم أحياء خوفا من العار..

وفي كل عصر تضع الدولة والمجتمع منظومة قانونية تنظم حياته وحقوقه، الدولة تضع منظومة قوانين رسمية تعبر عن حالة الشعب وإرادته، والمجتمع كذلك يضع منظومة من الأعراف والتقاليد الاجتماعية والحِكم والأمثال الشعبية تعبر أيضا عن ذات الحالة. بينما في عصور الاضمحلال تنهار تلك النظم وتحل محلها أعراف غريبة وقوانين سادية مثل سلطة الأب في قتل ابنه، وحق الأب في بيع وتأجير أولاده للعمل بالسخرة مدد زمنية، وإذا توفى الأب تنتقل هذه الصلاحيات إلى ابنه الأكبر فيما سمي وقتها " امتياز الابن الأكبر" فيصير له الحق في تسلم تركة والده كاملة وله الحق في بيع إخوته الصغار أو تأجيرهم بالسخرة لمدد زمنية مختلفة، وغيرها من القوانين التي تحرم المرأة وتعاملها وكأنها مخلوقة فقط لخدمة سيدها الرجل وليست شريكة له في الحياة. وتنتهك حقوق الضعفاء في المجتمع وتزداد الفوارق الطبقية في المجتمعات، وتحل الأعراف المجتمعية محل المبادئ الأصلية العادلة، وتحل سلطة الحاكم محل قانون الدولة.. ثم تمر فترة زمنية من الاضمحلال والانهيار الحضاري يبدأ الشعب بعدها استعادة طريق الحضارة والرقي المدني، كما حدث في تاريخ الحضارة الرومانية، إذا تقدمت شعوب أوروبا الشرقية " اليونان والرومان" وفي الوقت الذي ساد فيه العرب، اضمحل اليونان والرومان، ثم اضمحل العرب وبدأ صعود نجم الحضارة الأوروبية مرة أخرى.

لكن العرب لم يكن لهم نصيب من هذه الحضارات والإنجازات البشرية، خصوصا عرب شبه الجزيرة العربية. فلو قلنا أن المصريين الفراعنة بدؤوا عصر الكتابة والتدين وتدرجت أولى خطوات العمارة البشرية منذ خمسة آلاف عام قبل الميلاد، وأنشأوا القصور والمعابد والأهرامات، وزرعوا شريط وادي النيل، وشيدوا حضارة وابتكروا طرقا وآليات للزراعة والري والبناء وصناعة الورق من نباتات البردي وكتابة الرسائل العلمية والأدبية وتوثيق الأحداث العلمية والتاريخية، ووضعوا منظومة قانونية تتلاءم مع دولتهم، وعرفوا مفهوم الدولة بالمنظور العصري الحديث.. وكذلك الحضارة البابلية في العراق ارتقت إلى أعلى درجات سلم المدنية ووضعت أول مدونة قانونية في تاريخها عام ١٧٥٠ قبل الميلاد، نظمت المعاملات ووضعت ضوابط لطرق التقاضي ونظام الادعاء القضائي.. وغيرها حضارة سبأ في اليمن القديمة، ثم ظهرت قبل عام ١٢٠٠ ق.م الحضارة الأوروبية وشيدت وأبدعت علميا وأدبيا وهندسيا، ووضعت منظومة قانونية مثلت فنارا في صناعة القوانين.. وكذلك الحضارة الصينية والهندية القديمة استمرتا لعدة آلاف من السنين..

بينما بعد تراكم هذا الكم من الحضارات والخبرات البشرية في شتى أنحاء العالم، وحول العرب من كل اتجاه، فلم يكن لهم نصيب.. ظلوا يسكنون الخيام، ويرعون الغنم ويتجردون من كل معالم

الحضارة الإنسانية، كانت حياتهم عبارة عن صراعات قبلية ونزاعات وهجمات قبلية متبادلة بين القبائل لخطف النساء والأطفال ونهب الأموال، ولم يكن لهم نظام حكم مركزي ينظم حياتهم وعلاقاتهم، كانت حياتهم عبارة عن تحالفات قبلية ونزاعات حربية. وبرغم اتصالهم بالحضارات المجاورة لهم عن طريق رحلات التجارة التي امتدت أطرافها ما بين اليمن (حضارة) وما بين الشام (حضارة) وما بين الصين والهند (حضارة) وكانوا يصعدون فوق التلال والجبال ليشاهدوا الهرم الأكبر في إيجبت، إلا أنهم لم يقتبسوا أي من معالم هذه الحضارة وظلت عقولهم ساكنة على مدار آلاف السنين وتماهوا في الغي والفساد الفكري والخلقي حتى جاءهم النبي محمد عليه السلام لينتشلهم من قاع الجهل إلى قمة الرقي والسمو الإنساني، جاءهم برسالة لا مثيل لها في التاريخ من حيث تكامل الأركان والقيم والمبادئ الإنسانية.

لكن عقولهم التي نشأت وترعرعت في القاع ما كان لها أن تغادر منشأها بعدما رحل النبي، عقولهم لم تكن تستوعب هذا الرقي الفكري والأخلاقي، فآمن به بعضهم ورفض البعض وحاربوه، لكن حتى من آمنوا به لم يستطيعوا الاستمرار على نهجه بعد وفاته، عادوا إلى ما كانوا عليه قبل مجيئه، وسيطرت عليهم عاداتهم القبلية. وبمجرد وفاة الرسول تشاحنوا على السلطة حتى قبل دفنه، ثم تصارعوا فيما عرف بحروب الردة وقتل فيها الكثير من المعارضين سياسيا باسم الدين. وبرغم أن الرسالة حددت لهم نظام ديمقراطي رائع طبقه الرسول عمليا في حياته، إلا أنهم تجاهلوه بعد مماته، وخلال عشرين عاما فقط تلاشى مبدأ الشورى تماما وسادت العصبية القبلية وحل نظام توريث السلطة وساد الفساد السياسي، ثم تحول إلى صراعات داخلية على السلطة سقط فيها مئات الآلاف في حروب أهلية وفتن قبلية كما كانوا قبل الإسلام، حتى أنهم عادوا لفكرة الإغارة على بعضهم وخطف النساء والأطفال، بل هجموا على مدينة رسول الله ذاتها واغتصبوا نساءها وأخذوا بنات رسول الله وحفيداته سبايا وانتهكت أعراضهن في الشوارع، وقتل أحفاده ذبحا وصلبا.. عاد المجتمع العربي إلى حالته الأولى قبل الإسلام، ليس مائة بالمائة، لكنهم عادوا إلى ٩٠٪ من عاداتهم في الجاهلية، ولم يبق فيهم من تأثير الإسلام سوى القليل. وعلى طول مسار الدولة العربية الذي استمر فقط ٤٠٠ سنة لم تكن لها ملامح دولة ونظام وقانون كما كل الحضارات التي قامت قبلهم وبعدهم، إنما كانت دولة العرب عبارة عن فوضى السيطرة على الحكم بالسيف المسلط على الجميع. فهل تصلح دولة الخلافة هذه لأن تحمل مسمى "الدولة الإسلامية"؟ وهل تصلح هذه التجربة الحضارية لإعادة استنباتها ؟

سننظر على حضارة العرب من مسقط رأسي في مشهد يضم مجموعة من الحضارات البشرية معا لمجموعة من الشعوب للمقارنة بينها، ونحاول قدر جهدنا تلخيص هذا المشهد لمعرفة ما قدمته الحضارة العربية من خدمات للبشرية، وكم صعدت من درجات الرقي والتقدم مقارنة بباقي الحضارات السابقة عليها مثل الحضارة المصرية القديمة والحضارة الهندية والحضارة الصينية القديمة والحضارة الرومانية القديمة، فكل شعب من الشعوب أخذ فرصته حقبة من التاريخ ليمارس السيادة على العالم ويتذوق طعم الرفاهية والحضارة، طالت لعدة آلاف عام ثم عادت لتهبط مؤشرات حضارته وتصعد حضارة أخرى لشعب آخر. وكل ذلك في سبيل حصر المعرفة الإنسانية ومعرفة مدى الرقي الحضاري والإنساني الذي يستحقه العرب، وموقعهم في التاريخ بين حضارات العالم.

في هذا المسقط، سنحاول الخروج من الدائرة المغلقة الضيقة لنقف في مشهد علوي، نلقى نظرة على حياة المجتمع العربي خلال الحقبة الإسلامية وعلى مدار خمسمائة عام، وهي عمر الحضارة العربية بداية من بعثة النبي محمد عليه السلام وحتى انهيار دولة العرب في بغداد بسقوط الخلافة العباسية وتفتت الدولة واستقلال الولايات بحكم ذاتي عن العاصمة بغداد. سنجري عدة مساقط رأسية على جوانب مختلفة من حياة هذا المجتمع كي ندرك زوايا رصد عديدة لجوانب الحياة السياسية والدينية والحضارية في المجتمع العربي، فجميع من تحدث عن الحضارة العربية هم من المؤرخين الإسلاميين، ولذلك كانت نظرتهم أحادية من الجانب الديني، ولهذا تقيدت دراساتهم بالصبغة الدينية والحصانة والقدسية الدينية مقدما وقبل أن يجروها، فلم تخرج النتائج واقعية حقيقية، بل خرجت مقيدة بحدود الحصانة المفروضة حولها مسبقا..

سنحاول تقييم حضارة العرب بالمقارنة مع الحضارات الأخرى عبر التاريخ لنعرف ما قدمته كل حضارة من خدمات للبشرية.. فقد جرت عادة المؤرخين على إجراء المسقط الرأسي بشكل مباشر على مجموعة شعوب متعاصرة في ذات الزمان للخروج بمسلمات، وهي أنه خلال حقبة ازدهار الحضارة العربية بداية من القرن السابع الميلادي إلى القرن الثالث عشر الميلادي، كانت دولة العرب تعيش أزهى عصورها في عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد، وفي فرع الدولة العربية الأموية في الأندلس، وكان أمراء الشعوب الأخرى يتوسلون لتعليم أبنائهم لدى أمراء العرب.. وكان الشباب المسيحي في مالطا وجنوا حينما يريد شاب أن يقنع فتاة بأنه متحضر ومثقف وعاشق، كان يقول لها " أنا أحبك " باللغة العربية..

وهذه حقيقة لكن في الواقع نريد أن ننظر إلى تاريخ الحضارة العربية بمنظور أوسع بالنظر إلى أن شعوب العالم متعددة، وكل شعب يأخذ فرصة الحضارة بالتوالي عبر الزمن مع الشعوب وليس بالتزامن

والتوازي، أي أن الحضارات تتوالى تبادليا بين الشعوب ولا تتزامن أو تتعاصر، ففي نطاق المجتمع الصغير لا يمكن أن نجد كل أفراد المجتمع أغنياء على ذات القدر من الثروة في ذات الوقت، بل نجد غنيا ينفق على من حوله ويستخدمهم في قضاء أعماله ويعطيهم أجورهم، ولديه خدم ومساعدين وغيره، ونجد في ذات المجتمع متوسط الحال والثروة، لديه ما يكفيه حياة كريمة لكنه يقوم بأعماله بنفسه ولا يعتمد على الخدم والمساعدين ولا يدفع أجور، هو متوسط الحال ويخدم نفسه بنفسه ولا يعمل خادما عند أحد.. وكذلك نجد الفقير الذي لا يستطيع الإنفاق على نفسه فيضطر للعمل عند غيره مقابل أجره ، يعمل لدى غيره خادما أو مساعدا أو أجيرا .. وهذه سنة الحياة في الكون كله وليس في المجتمع الصغير وحده، فيقول الله تعالى" وجعلنا بعضكم لبعضٍ سِخريا ". ثم بمرور الزمن يتغير الحال ويصير أبناء الغني فقراء وأبناء الفقير أغنياء وبعضهم يعتمد على البعض الآخر وهكذا، فدوام الحال من المحال، يقول تعالى : وتلك الأيام نداولها بين الناس".

وهكذا الشعوب تعيش معتمدة على بعضها ومتفاوتة في ملكية الثروة ومعدلات التحضر والرقي والغنى، ففي مسقط رأسي متعاصر، سنجد شعب الدولة العربية يعيش في العراق أزهى عصور الحضارة والرقي والعلم والغنى، وفي الأندلس كذلك، بينما تعيش شعوب أوروبا في قيعان الحضارة والجهل والتخلف وانتشار الشعوذة، تعيش حياة البدائية في الغابات، وينتشر الجهل ويفتقر العلم وأدوات ووسائل الحضارة، تجف الثروة وتتجمد عملية الإنتاج، ينهار الاقتصاد وتجف قرائح العلماء، في الوقت الذي كان العرب يعيشون أزهى عصور الحضارة والرقي والإبداع العلمي والأدبي. وبالقياس على المجتمع الصغير، باعتبار الحياة دول بين الشعوب، فأجيال الشعب الغني تتحول إلى الفقر والجهل، وأجيال الشعب الفقير تتحول تدرجيا بالجد والعمل إلى الغنى والثروة والحضارة، وكل شعب يأخذ فرصة من الزمن بالتوالي، فإذا كان الشعب المصري قديما قد بدأ عصر الحضارة والنهضة منذ سبعة آلاف عام، واستمرت لثلاثة أو أربعة آلاف عام متواصلة، ثم بدأت عصور الانهيار والاضمحلال وهجمت الدول الأخرى على مصر واحتلت شعبها الذي أصبح فقيرا جاهلا، وخضعت مصر للاستعمار فترة لا تقل عن ثلاثة آلاف عام.. بينما في العصر الذي بدأ فيه انهيار الحضارة المصرية، كان نجم الفرس صاعدا حتى أنهم توسعت سلطتهم وثروتهم وقوتهم فاحتل الهكسوس مصر فترة من الزمن، ثم ضعف نجم الفرس وظهر على الخريطة نجم آخر هو نجم الرومان الذين توسعوا جغرافيا وسياسيا وسيطروا على شعوب كثيرة، وازدهرت الحضارة في بلادهم علميا وفكريا وأدبيا بالاعتماد على ثمار الحضارة المصرية التي تساقطت أوراقها..

وهناك في الجانب الآخر من العالم الشرقي كان الشعب الصيني يبني حضارته لثلاثة آلاف قبل الميلاد، ثم تساقطت أوراقها فتلقف ثمارها الجيران الهنود وبدؤوا حضارتهم وأبدعوا في فنون العلم والمعرفة والفلسفة.. فهكذا شعوب العالم تعيش كما المجتمع الواحد، كلما اغتنى غني يكون ذلك بمقدار افتقار آخر، فعصور الزمان دول بين الشعوب، والحضارات فرص، وكل شعب يأخذ فرصته مرة أو مرتين عبر التاريخ، وبيده قد تمتد هذه الفرصة لألف عام أو ألفين عام مثل الرومان أو خمسة آلاف عام مثل المصريين، أو خمسمائة عام مثل العرب.. وهكذا، وخلال هذه الفرصة التي يحصل عليها الشعب أيا كان طولها الزمني، فقد يصعد هذا الشعب عشرين درجة من درجات الحضارة خلال ألف عام فقط، وقد يستغرق ألفي عام في عشر درجات فقط، وقد يصعد خمسين درجة من درجات الحضارة خلال خمسة آلاف عام مثل المصريين، وقد يحقق درجة واحدة فقط أو درجتين خلال خمسمائة عام مثل العرب ثم يعود للهبوط مرة أخرى، كلٌ حسب مجهوده واستعداده النفسي لبناء الحضارة.

وفي مسقط رأسي على المجتمع العربي من منظور سياسي بداية من لحظة وفاة الرسول، ومحور الانفصال الذي حدث بين الدين الإسلامي والمجتمع العربي، ونتتبع حركة التاريخ لنرى كيف بدأت الأحداث بعد وفاة النبي في مسارين مختلفين تماما، مسار سياسي بعيد كل البعد عن المنهج الديني، وانتهى كل مسار بعيدا عن الآخر تماما، ومع ذلك درج الفقهاء على دمجهما معا، دمج سياسة العرب في الدين عند تحقيق مسائل الفقه الشرعي، برغم أنهما كانا منفصلين تماما في الواقع، ولكن نظرة رجال الدين والمؤرخين صبغت الحصانة والقدسية على السياسيين فأصبحوا أولياء الله، وصارت قراراتهم السياسية فتاوى شرعية تستلزم تنفيذها مدى الحياة، بما فيها من انحراف سياسي وانقطاع للصلة مع الدين أصلا. ويتبين لنا ذلك بالمقارنة بين آيات من كتاب الله وتصرفات النبي في عصره، سيكون معيار المقارنة هو القرآن والعهد النبوي فقط.

المؤلف

الإسكندرية أول سبتمبر ٢٠١٩

الإضاءة الأولى

مسقط رأسي على حضارة العرب من منظور سياسي

محور الانفصال بين الإسلام والمجتمع العربي

قبل الوصول إلى عصر الأمويين والعباسيين والفتن السياسية والحروب الأهلية والمذابح الجماعية التي وقعت في تاريخ الدولة العربية القصير.. يبدو أن البدايات قد أشارات إلى النهايات.. فالخلافات التي وقعت بين الصحابة الكبار على السلطة عقب وفاة الرسول مباشرة، ثم تطورت إلى اقتتال وحروب أهلية داخلية مع المعارضة السياسية والدينية، ثم حروب أهلية داخلية بين الشيعة والسنة، ثم مذابح الأمويين والعباسيين .. جميع هذه الأحداث بدأت بشرارة عقب وفاة الرسول ثم تطورت بذات السيناريو حتى انطفأت الدولة، ولم يكن للدين دورٌ فيها.

وقف الحكيم الجبتي " آمون أم أوبي" فوق قمة الهرم الأكبر يتأمل الحدائق الخضراء على طول امتداد وادي النيل.. وخطوط المياه العريضة التي تعبر القناطر وتشق السهول وتلقى بالجزر الساحرة يمينا وبالحقول الخضراء يسارا في مشهدٍ بديع لا مثيل له في الشرق.. فيرسم لنا تلك الصورة الأدبية الرائعة عندما يشبّه لنا الرجل الحليم بالشجرة المثمرة؛ والرجل المشاغب بالشجرة اليابسة؛ فيقول: لكي يكون المرء كاملا؛ عليه أن يظهر دائمًا باحتشام ورقة وتواضع.. فالشخص المشاغب كالشجرة التي تنتهي بأن تصير أغصانها وقودا، أما الوديع فهو كالشجرة التي تحمل ثمارًا في الحديقة... فلا تغرك صحبة المشاغب ولا تقترب منه لمبادلته الحديث "[1] ...

هكذا كانت حضارتنا الجتبية غنية بالحكمة والمعرفة هادئة الطبع غزيرة الثمر ناضرة عاطرة الورود.. لكننا مضطرون لتجاوز التاريخ أحيانا، فنترك القاهرة في رحلة قصيرة إلى شبه جزيرة العرب كي نلتقط بعض لمحاتٍ من تاريخهم، وهم قبائل تسكن الصحراء المجاورة لمصر على مسافة عدة أميال عبورا للبحر الأحمر في اتجاهٍ معاكسٍ لحركة الشمس.. ربما يكون هناك شيءٌ جديد.

لكن البدايات دائما ما تشير إلى النهايات.. وقد بدأت دولة العرب بـ"حرب الردة" وهي حربٌ أهلية داخلية، ثم استمرت دولة العرب حياتها كاملة على ذات السيناريو حتى انهارت بحروب أهلية من ذات النوع... وبداية؛ فمجتمع قام على المشاجرات السياسية والاشتباكات القتالية منذ بدايته لا يمكن أن ينتهي إلى دولة مدنية بنظامٍ حضاري... وبين الفتوى الدينية والقرار السياسي ثمة فروقٌ شاسعة.. أدركها العرب في وقتها، لكن الفقهاء أعادوا دمجها لتقديس الحقبة التاريخية كلها، فصار القرار السياسي محصنا بقدسية الفتوى الدينية..

١ـ دكتور حسين دقيل: كاتب متخصص في الكتابات الأدبية، حاصل على الدكتوراه في الآثار، والدراسات العليا في التربية قسم اللغة العربية ـ في مقال له بعنوان " من أخلاق الجبتيين القدماء ج(٨) الحلم والأناة" منشور بموقع ساسة بوست بتاريخ ٢ يوليو ٢٠١٨ على الرابط التالي

- https://www.sasapost.com/opinion/from-the-morals-of-the-ancient-egyptians-8-dream-and-patience/

– نقلا عن مصادره: أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة: عبد المنعم أبوبكر ومحمد أنور شكرى، الهيئة الجبتية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧

١ـ البدايات

كان المجتمع العربي قبل بعثة الرسول عليه السلام يعيش حياة بدائية مليئة بالهمجية والعنف إلى الدرجة التي تجعل الرجل يقتل أطفاله البنات بيده ويدفنهم أحياء وهم يصرخون في يده، ولا يخالجه شعور الأب بابنته ملاك الرحمة، فيقول رب العزة جل وعلا عن هذه المأساة (وإذا الموءودة سُئلت بأي ذنبٍ قتلت؟). فالفساد الخلقي والاجتماعي موجود في كافة المجتمعات وعلى مدار التاريخ، ولا يخلوا مجتمع على وجه الأرض من أنواع الفساد الخلقي والسلوكي بوجهٍ عام، لكن في المجتمع العربي وصل الفساد والظلم إلى درجة من البشاعة والفُجر لم نسمع عنها في أرجاء الكون كله، فكانت جزيرة العرب بؤرة الفساد الأكثر سوادا في العالم، وهو فساد عقلي وروحاني لا نظير له، ولو لم يخبرنا القرآن نصا وحرفا بهذه النوعية من الإجرام لما كنا صدقنا أبدا أن يكون هناك مجتمع على وجه الأرض بهذه البشاعة والفُجر سواء من الإنسان أو حتى الحيوان، فالعرب تميزوا على شعوب الأرض قاطبة بظاهرة إجرامية لا مثيل لها في التاريخ، وهي وأد البنات، أي قتلهم بدفنهم أحياء ! وهذا ما جعلهم يتفوقون على أجدادهم الهكسوس في الإجرام..

فالمعتاد أن الجرائم مهما كثرت وشاعت في المجتمعات تبقى تحت تصنيف " جريمة" والجريمة عادة ما تتم بحق الغرباء، وأما الأقارب فهم استثناء نادر، وتظل في الخفاء ويظل فعلها مستنكرا من الجميع، أما كون أعظم الجرائم تصبح عرفا اجتماعيا، فهذه جريمة أبشع ولا نظير لها في التاريخ على الإطلاق. أن يصبح قتل الابن سهلا وبلا عقوبة، ثم أن يصبح ذلك عرفا وعادة في المجتمع! والغريب أن المجتمع ككل لم يشمئز من هذا النوع من الجرائم الغريبة، بل ألفها مجتمع العرب واعتبرها عادة وعرفا لديهم.. وتقاليد اجتماعية شاعت بين العرب عصورا طويلة..! وهذا ما يدفعنا مباشرة للتساؤل حول جنس هذه الفصيلة من البشر ! فقد انعدمت الإنسانية لدى أغلبهم مقارنة بالشعوب الأخرى التي كانت تنعم بالحضارة والإنسانية والتعليم للبنات والصبيان على حد السواء مثل الصينيين القدماء والهنود والجبتيين والرومان.

فعلى الأجساد والأعضاء التناسلية للإنسان قبل أن يصلوا مرحلة النضج، وبذلك يتم تأسيس الطفل اجتماعيا وبطرية متزنة نفسيا وخالية من الانحرافات، وقد ثبت جدوى هذه الطريقة في العصر الحديث.. بينما العربي كان يقتل طفلته صغيرة في المهد خوفا من أن تكبر وقد ترتكب خطيئة ! .. هذه هي البيئة الكريمة التي نشأ وتربى فيها الصحابة الكرام.

بالطبع مجتمع بهذا التكوين النفسي الغريب لا يعلم علاجه إلا الله وحده خالق البشر جميعا.. وهو من أرسل نبيه محمد عليه السلام بالدعوة، لتبدأ معالم إنسانية جديدة ترسم ملامحها بمنهجٍ جديدٍ للحياة، واستمرت هذه الملامح في النمو والازدهار طوال رحلة الدعوة خلال ثلاثة وعشرين عاما، وفي منتصف هذه الفترة حدثت الهجرة من مكة إلى المدينة وتآلف المهاجرون والأنصار وتشاركوا أشجار النخيل فيما بينهم واقتسموا الحب والود والتآلف وازدادوا سخاءً فيما بينهم.. لكن على ما يبدو أن نفوس العرب لم تنتقل كليا من الجاهلية إلى الإسلام فجأة أو انتقالا نوعيا جذريا، بل بقي فيها رواسب.. هذه الرواسب هي بذور المنشأ، ولا يمكن للإنسان أن يتخلص منها بسهولة، لأننا كبشر تتملكنا نوازع وميول نفسية لا يمكننا السيطرة عليها بإرادتنا، بل إننا نغالب نفوسنا وميولنا طول الوقت..

فإذ تناولنا شخصية من أعظم الشخصيات في التاريخ السعودي مثل خالد الوليد، لوجدناه قد انتقل فعليا من الجاهلية إلى الإسلام، لكنه لم ينتقل إلى الإسلام بعقلٍ وفكرٍ جديدين، في الواقع لا يمكن أن ينتقل الإنسان كليا، ولكن قد يتحوّل أغلب تكوينه النفسي والفكري، ولذلك لو عدنا للتدقيق في الأخطاء التي وقع فيها خالد الوليد في عصر الإسلام، حتما سنجدها من رواسب النشأة في الجاهلية، وأي إنسان كذلك، حتى أن الصحابة من المهاجرين والأنصار حينما اختلفوا وعلت صيحة الطائفية حول بئر المريسيع، قال لهم النبي عليه السلام: دعوها فإنها منتنة" أي أتركوا الطائفية والعصبية القبلية.. هذه العصبية القبلية أيضا من رواسب الماضي وبذور المنشأ قبل دخولهم الإسلام، وهي من النوازع النفسية التي يصعب على الإنسان التخلص منها. فلا يوجد إنسان على وجه الأرض معصوم من الخطأ.

ونحن هنا ندرس الخطأ ليس لتوجيه أصابع الاتهام لصاحب الخطأ، ولكن لدراسة طبيعة التغيرات النفسية التي حدثت في المجتمع خلال هذه الفترة، ومن ثم آثارها المترتبة على المنهج، فالإسلام قد نقل العرب نقلة نوعية مفاجئة من الضلال إلى الرشاد والهداية، لكنهم بعد وفاة الرسول عادوا به إلى ضلالهم القديم؛ لأن بذور المنشأ مازالت مترسبة، ولم تطل حياة الرسول قرنا أو قرنين من الزمان لتنقل أجيالا كاملة، بل كانت حياة الدعوة ثلاثة وعشرين عاما أضاءت فيها شمس الإسلام هي فترة مؤقتة تعادل الثلث من حياة كل إنسان، وبالتأكيد أن كل إنسان عاش هذه الفترة كاملة في حياة النبي فقد تأثر بها وتركت آثارها عميقة في نفسه، لأن الإسلام كان ينمو في النفوس كل يومٍ بنزول مزيدٍ من الوحي، ثم بتوقف الوحي توقف نمو الإيمان في القلوب.

ولنضرب مثالا آخر، إذا انتقل عشرة قبائل من العرب ودخلوا الصين وانتشروا في القرى والمدن لتعليم أهلها اللغة العربية، من الطبيعي أن يعلو مستوى الصينيين في التحدث بالعربية يوما بعد يوم، ثم إذا خرج العرب بعد عشرين عاما فجأة من الصين، من الطبيعي أن يعود الشعب الصيني ليتحدثوا لغتهم الأصلية وتتلاشى آثار اللغة العربية من لسانهم بمرور الوقت. لكن إذا استمر وجود العرب في الصين قرنين من الزمان أو أكثر بما يضمن عبور أجيال بأكملها، فمن الطبيعي ألا يرجع أحد إلى اللغة الصينية القديمة لأن الأجيال القائمة لم تعرف اللغة الصينية من الأصل.

هذا بالضبط ما حدث في تاريخ السعودية، إذ انتقل العرب من انعدام الإنسانية والشرك والفساد إلى الإيمان والأخلاق الكريمة خلال عهد الرسول، واستمر نمو هذا الإيمان في قلوبهم عقدين من الزمان، ثم بعد وفاة الرسول عليه السلام، استمرت حياتهم وتوقف مصدر الإيمان، انطفأ شمس الإسلام ولم يعد سراجا وهجا كما كان بوجود عنصريه الرسول والوحي، ذهب السراج الوهاج ولم يبق إلا منهج نظري هو القرآن، ليضعهم الله بذلك في محنة لاختبار نفوسهم، فبدأ المجتمع يعود تدريجيا إلى حياته الاعتيادية قبل الإسلام، بعضهم ارتد عن الدين كلية، وبعضهم بقي على نفاق، والبعض ظل محتفظا بالعقيدة لكنه انقلب في سلوكه وأخلاقه أو ربما انطفأت زهوة الإسلام في قلبه، وذهب شغفه، وبعضهم شعر بحالة من الشبع أو الزهد في الشعائر الدينية بعدما شرب وامتلأ حتى الثمالة، وبعضهم اعتاد الأمر وصار الإسلام كما الروتين اليومي في حياته لأنه لم يعد هناك جديد، وقليلٌ منهم بقي على شرعة الله. وبوجه عام هذه سنة الله في كونه وخلقه.

فقد ارتفع الإسلام بالمجتمع العربي من قاع الشقاق إلى قمة التآلف والتراحم، أوجد بينهم لحمة إنسانية لم تكن موجودة من قبل، لكنهم بعد وفاة الرسول عادوا تدريجيا إلى ما كانوا عليه قبل البعثة. وفي الواقع، من المستحيل القول بأنهم عادوا بصورة كلية أو أن عصر النبوة لم يترك فيهم أثرا، هو ترك الكثير من الآثار بالفعل، لكن بعضها ذاب بمرور الوقت وحل محله عرف المجتمع العربي وتقاليده المغروسة بعمق في النفوس، وهي بذرة المنشأ. وقد بدأ محور الانفصال بين المجتمع والدين لحظة وفاة الرسول، هنا بدأ الجميع يتصرفون وفق ما تمليه عليهم ميولهم وعقولهم، وهي بالفطرة تميل إلى ما اعتادت عليه من بذور المنشأ وما ألفته على مدار عمرها، ومن هنا بدأت مظاهر الشقاق تعود من جديد. بدأ الشقاق بين نفوس الكبار الذين على ذات المرتبة الإيمانية، توسع الشقاق محملا بالعنف بين نفوس على درجات متفاوتة من الإيمان.

فعندما نقف على محور الانفصال بين الدين والمجتمع السعودي القديم، سنلحظ أن بوادر الشقاق قد ظهرت مع بداية احتضار الرسول عليه السلام، وتتلخص في النقاط التالية:

١ـ لم يدع أصحاب الرسول، خاصة عمر الخطاب، أن يكتب الرسول وصيته، فقد ورد عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لمَّا حَضِرَ النَّبيُّ قَالَ: وَفِي البَيْتِ رِجَالٌ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الخطاب قَالَ :" هلمَّ أكْتُبْ لكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُوا بَعْدَهُ "، قَالَ عُمَرُ: إنَّ النَّبيَّ غَلَبَهُ الوَجعُ وعِنْدَكُمْ القرآنُ فحَسْبُنَا كِتَابُ اللهِ، واخْتَلَف أهلُ البَيْتِ، واخْتَصَمُوا، فمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ قَرِّبُوا يَكْتُبُ لكُمْ رَسُولُ اللهِ كِتَابًا لَنْ تَضِلُوا بَعْدَهُ، ومِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا قَالَ عُمَرُ، فلمَّا أَكْثَرُوا اللغَطَ والاِخْتِلَاف عِنْدَ النَّبيِّ قَالَ: (قُومُوا عَنِّي) قَالَ عُبَيْدُ اللهِ: فكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ وبَيْنَ أنْ يَكْتُبَ لهُمْ ذَلِكَ الكِتَابَ مِنْ اخْتِلَافِهِمْ ولَغَطِهِم "[٢]

ونقف على عبارة " قوموا عني ".. فهذه العبارة هي محور الانفصال التاريخي الدقيق بين المجتمع العربي والدين الإسلامي، وهي أول مرة ينهر فيها الرسول جميع الصحابة حوله ويزجرهم ويأمرهم بالابتعاد عنه وكأنه يأس منهم ومن لغطهم.. وهذا أمر غريب لم يحدث من قبل، فلم يعرض أحد من الصحابة عن أمر رسول الله قط، وسواء صحت الرواية أو لم تصح، فجميع المصادر التاريخية تجمع على أنه حدث لغط حول النبي أثناء احتضاره وارتفع الصوت حتى انزعج النبي منهم فأبعدهم عنه. وخلاصة هذا المشهد أن الرسول أمرهم فلم يستجيبوا فأبعدهم من مجلسه..ثم ابتعدوا هم عن المنهج عبر الزمن.. حتى موقف النبي هذا لم يحدث قبل ذلك قط، وعلى كل حال، فهذه اللحظة هي نقطة انفصال بين المجتمع العربي عن المنهج، واستمر هذا الانفصال يزداد رويدا رويدا بمرور الوقت حتى اتسع وصارت هناك فجوة بين منهج الإسلام الذي رسمه الرسول وبين حياة المجتمع العربي المسلم وتطبيقاته العملية، انتهت إلى ما نراه من جاهلية حديثة في السعودية اليوم، فطبيعة الشعب لا تتغير.

٢ـ تأخر دفن الرسول، وذلك لانشغال الصحابة بمن سيتولى أمر القوم بعد الرسول، تاركين أمر تحضير الرسول لأهل بيته من أجل تهيئته وتحضيره للدفن، دون أصحابه ! أما الذين حضروا الرسول لدفنه، دون أصحابه أبو بكر وعمر الخطاب، فقد جاء في كتاب السيرة النبوية لابن هشام، (قال ابن إسحاق: فلما بويع أبو بكر، أقبل الناس على جهاز الرسول يوم الثلاثاء، فحدثني عبد الله أبي بكر وحسين عبد الله وغيرهما من أصحابنا: أن علي أبي طالب، والعباس عبد المطلب، والفضل العباس،

(٢)ـ رواه البخاري (٦٩٣٢) ومسلم (١٦٣٧)

وقثم العباس، وأسامة زيد، وشقران مولى الرسول، هم الذين ولوا غسله..) أما كبار الصحابة فقد اختفوا من المشهد تماما وانشغلوا في شيء آخر. وهذا ليس المعتاد خلال فترة الدعوة، فكان كبار الصحابة يلتفون حوله في كل كبيرة وصغيرة، وفي الهجرة لازمه أبو بكر ليطمئن عليه في كل لحظة، ويدافعون عنه ويتحملون الأذى عنه، ولا يطيقون شوكة فيه، حتى شاعت مقولة " بأبي أنت وأمي يا رسول الله لأفعلن كذا وكذا.." حتى أن المسلمين حينما فروا منهزمين بداية الأمر في موقعة حنين، التف كبار الصحابة حول الرسول ولم يتركوه وحده، إنما تصرفهم عند وفاته جاء غريبا جدا إن صحت الروايات التاريخية، فهو ينم عن انفصال حتمي بين منهج الرسول ودعوته وبين حياة المجتمع العربي الذي يمثله في ذلك الوقت كبار الصحابة الذين انفضوا عن النبي وتركوه يتألم من سكرات الموت، لم يجلسوا حوله في هدوء وسكينة لقراءة القرآن بل تركوه وحده وذهبوا هم لاقتسام السلطة.. وهذا محور انفصال غريب جدا وغير متوقع من الصحابة الكبار الذين طالما افتدوا النبي ودفعوا عنه بأموالهم وأنفسهم.. لأنه ليس من المنطقي أن يهتم عمر وأبو بكر بشؤون الدنيا والحكم والسياسة ويتركون رسول الله يحتضر، فالمعتاد في كافة المجتمعات أن لحظة الاحتضار تكون وكأنما الحياة توقفت بمن حوله، وحتى الملوك، لا يتم تنصيب أولياء العهد إلا بعد مراسم الجنازة والعزاء، أما المجتمع العربي فوضعه كان مختلفا تماما.

٣- تجمع الأنصار عقب وفاة الرسول، لم يفكروا في تجهيزه للدفن ولا العزاء ولا شيء سوى اقتسام السلطة والاستحواذ عليها في مواجهة المهاجرين، وهذه كانت بذرة الشقاق الكبرى؛ إذ أن الأنصار (وهم أهل المدينة الأصليين وأهل البيعة والنصرة) الذين أبرموا البيعة مع الرسول تحت الشجرة وعاهدوه على حسن استقباله في المدينة، واستقبلوا أصحابه المهاجرين وتآلفت قلوب الجميع لدرجة أنهم اقتسموا الدور والأموال فيما بينهم، واقتسموا أشجار النخيل، فكيف بهم اليوم يجتمعون عقب وفاة الرسول وقبل دفنه، يجتمعون في مؤتمرٍ سياسي في حي من أحيائهم وفي سقيفة لإحدى قبائل الأنصار وهم بني ساعدة كي يتفقون على تعيين أمير للقوم منهم قبل أن يحضر المهاجرين ويشاركوهم الحكم والإمارة، على اعتبار أن أهل البلد أولى بالحكم من الضيوف المهاجرين! وهذه ما عادة متأصلة في الشعب السعودي حتى اليوم، انسحب الأنصار وتجمعوا في حيهم واختاروا سعد ابن عبادة أميرا لهم برغم أنه لم يكن من الأعيان والبارزين في حياة النبي، لكنهم اختاروه لا ليكون خليفة النبي، بل أميرا لهم، واعتبروا النظام الذي أسسه

الرسول في بلدهم دولتهم دون حتى أن يشركوا المهاجرين في أمر اختيار حاكم، واعتبروا أن اختيار حاكم من المهاجرين خروج على القاعدة لأن المهاجرين أغلبهم من قريش وهم لن يقبلوا بأن تحكمهم قريش. هنا عادت الطائفية والعنصرية تدرجيا إلى المجتمع قبل دفن الرسول، برغم أنها كانت قد انصهرت تماما بين النفوس وتآلفت القلوب وعاشوا جميعهم على قلب رجل واحد طوال حياة الرسول، وهنا حدث التحول النفسي في منعطف تاريخي ظهر بأمور بسيطة لكنها صنعت أحداثا كبيرة، ولم يكن هذا الخلاف في نطاق المدينة وحدها، بل امتد إلى أطراف جزيرة العرب وتوسعت دائرة الشقاق، فهناك قبائل بأكملها رفضت أن تخضع لدولة يكون حاكمها من قريش، وهذه الطائفية والعصبية من طبيعة المجتمع وجزء من تكوينه النفسي، وما يهمنا هنا هو تحديد المحور الزمني لهذا المنعطف الذي فرق القلوب والأفئدة بعدما تآلفت على يد الرسول..

والغريب أن ذات اللهجة تحدث بها أبو بكر الصديق، عندما علم المهاجرين باجتماع الأنصار على انفراد لاختيار الأمير قبل دفن الرسول، تركوا الرسول وذهبوا عمر وأبو بكر وأبو عبيدة إليهم لاختيار أمير من قريش، وكان كل الرجال أعينهم على الحكم والسلطة، لا على مقتضيات الدين التي توجب دفن الرسول أولا، (ويروي الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٣٦٦٨ عن عائشة، قالت:" إن الرسول لما مات اجتمعت الأنصار إلى سعد عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منا أمير، ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، فذهب عمر يتكلم.. ثم تكلم أبو بكر. فقال أبو بكر: لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب دارا – يقصد قريشا- <u>وأعزهم أحسابا</u>، بايعوا عمر أو أبا عبيدة. فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله، فأخذ عمر بيده وبايعه الناس".

في هذا الموقف العصيب، إذ أن الرسول قد توفى ولم يدفنوه بعد، لم يحزنوا على فقده بقدر ما انشغلوا بتقسيم السلطة حسب الأوسط دارا والأعز حسبا ونسبا، وقد طرح أبو بكر فكرة أن يكون الأمير من أصل قرشي على اعتبار علو النسب، وطرح منصب الوزير للأنصار(برغم أنهم ضيوف في بلد الأنصار)، بينما كان الأنصار يفكرون في الاستئثار بالحكم في بلدهم باعتبار أنه ليس للضيف المهاجر أن يحكم بلدهم. فجميعهم، الأنصار والمهاجرين لم يفكروا في الأمر باعتباره إدارة تحتاج إلى الأكفأ، ولكن فكروا فقط في اعتبار الحسب والنسب والأكثر قربا وحبا من الرسول، ولم يفكر أحدهم في فض هذا الشغب حتى ينتهوا أولا من أمر دفن الرسول، لم يتكلموا في أي أمر يخص الدين أو الدعوة، أو الرسول نفسه، لم يفكروا في الموت أو الحياة، لم يفكروا في

مستقبل الإسلام بعد غياب الرسول، فبمجرد وفاته انشغلوا بالسلطة، وهذا أمر غريب وعجيب جدا لكنه من طبيعة العرب إلى يومنا هذا.

والأغرب من ذلك أن العرب بسذاجتهم الفطرية، تمسك بعضهم بأحقية علي ابن أبي طالب في الإمارة باعتبار صلة الرحم والنسب بينه وبين الرسول، لأن علي هو ابن عم الرسول وزج ابنته فاطمة الزهراء، وهذا المعيار في حد ذاته يوضح مدى سذاجة هذا المجتمع الذي فكر في الإمارة والسلطة باعتبارها تركة تؤول بالميراث إلى أقرب الأقارب من العائلة ! (وليس الأمر شورى بينكم) فهذا الفكر أقرب إلى نظام الممالك التي ينتقل فيها الحكم بالميراث ولا صلة له بالإسلام بل هو من طبيعة المجتمع أقرب، وفي سبيل دعم موقفهم السياسي ادعوا أن الرسول أوصى بالإمارة لعلي ابن عمه، فرد عليهم الغرماء بمقولة" لا وصية لوارث" وكلا الطرفين نسب كلامه للرسول كي يحصل على القدسية. ذلك لأنهم بطبيعتهم لم يكن لديهم دولة من قبل ولم يعرفوا معنى إدارة المصالح المشتركة للمجتمع، وكانت الإمارة بالنسبة لهم محض شرف الأمر والنهي.

وفي هذا المشهد نجد أن مجتمع العرب بعدما تآلفوا حول رسول الله وآثروا بعضهم على بعضٍ ولو كانت بهم خصاصة، نجدهم يعودون إلى طبيعتهم وتتعدد مشارب الشقاق بينهم، مرة بين المهاجرين والأنصار، ومرة بين أتباع علي وأتباع أبي بكر.. وكأن المجتمع عاش شهر العسل حول رسول الله، وبمجرد أن قضى، انقضى الوفاق والتآلف، وهذه طبيعة البشر بوجه عام، ولا شيء يبقى على حاله، فرب العزة جل وعلا يقول: كل يومٍ هو في شأن" وهذا ما يفرض على البشر حتمية التغير، فلا سكون مع الحياة، ولا حيَ بمنأى عن الفتنة، فسبحان مغير الأحوال.

وهذا المشهد يدلنا على منبع فكرة الخلافة ومنشأها الفاسد، إذ أن الأمر في بدايته لم يكن له أي صلة بالدين ولا بالدعوة، ولم يكن الحاكم نائبا عن النبي، ولا كان لأي نبي أو رسول على مدار التاريخ أن يكون له نائب يتولى المهمة من بعده لأن الرسالة تكون للمجتمع ككل ولا يجوز لشخصٍ بمفرده توجيه البوصلة، ولا بد أن يظل الأمر شورى، أما العرب فقد جاء اختيارهم للحاكم من الجانب السياسي البحت، وعلى أساس طائفي عربوي عنصري وليس ديني أيضا، سواء كان فريق أبو بكر وعمر الذي فكر في ريادة قريش باعتبارهم الأوسط دارا والأعز نسبا، أو فريق الأنصار الذي رأي أحقيته في الحكم باعتبارهم أهل البلد الأصليين وأن المهاجرين في موقف الضيوف، أو فريق علي الذي قال بأن له وصية وميراث. هذه الأطروحات جميعها لم تتناول أي جانب

من جوانب الدين والدعوة على الإطلاق، بل إنهم تركوا الضرورة الدينية (دفن الرسول) وانشغلوا بأمر الدنيا (اختيار الأمير) ثم إنهم فكروا في الحكم بالطريقة التي اعتادوا عليها في حكم مجتمعاتهم في عصرهم. ولم يفكروا في أن يكون الأمير هو المفتي أو متولي الفصل في أمور الحلال والحرام أو أكثرهم تفقها في الدين أو أكثرهم حفظا للقرآن، بل كان الأمر محصورا في نطاق الحكم بمعناه السياسي البقلي كما قال أبو بكر أن قريش الأوسط دارا والأعز نسبا. وظهر مصطلح الخلافة في وقتٍ لاحق، وكان أيضا منفصلاً تماما وكليا عن أمور الفقه والتفسير والفتوى، لكن البعض دمج المعنيين في واحد ليخرج بمفهوم الخليفة على أنه نائب الرسول! أو الحاكم بأمر الله !

٤ـ استقر الأمر على اختيار أبي بكر أميرا للقوم، دون أن يتبين موقف الوزير الذي كان مرتقبا أن يتم اختياره من الأنصار ليكون الحكم شراكة بين المهاجرين والأنصار، لكن الأمور انتهت على أبي بكر وحده، وبهذا تمكنت قريش من الاستحواذ على السلطة. وبعد ذلك انصرفوا لتجهيز الرسول للدفن، وكان قد مر على وفاته ثلاثة أيام ملؤها الخلافات والنقاشات، وتركوه مسجيا على سريره من يوم الاثنين حتى الأربعاء حتى انتفخت بطنه، وبعدما أنهوا خلافاتهم على الإمارة والسلطة انتبهوا فاستدركوا الأمر. وعلى كل حال كان الوقت متأخر فإكرام الميت دفنه، لكننا لن نحاسب غيرنا على ما لم يدركوه، فهم أمة قد خلت، ولها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. وربما تعمدوا تأخير دفن الرسول لعدم استيعابهم وفاته المفاجئة أو ربما انتظروا مليا للتيقن من الأمر، لكن حتى في هذه الحال لم يكن مبررا أن يتركوه هكذا ويذهبوا هم لتقسيم السلطة، وكأنهم يرقصون على جثته، فقد اعتبروا السلطة أولى منه برغم أنه هو من كافح وصنع شأنا للمجتمع، بعدما كان العرب أشر خلق الله. وحتى إذا نظرنا بواقعية فلم يكن الأمر من الضرورة الملجئة لاختيار حاكم بهذه السرعة، وإذا نظرنا إلى الإسلام فإنه قد شرع تقسيم الميراث بعد دفن المتوفى وليس قبل، أما أن يتشاجر الورثة ويتفقوا على تقسيم الميراث قبل دفن والدهم فذلك ينبئ عن كارثة اجتماعية وأخلاقية ستظهر آثارها وتبعاتها فيما هو قادم.

ونحن في هذا المقام لا نوجه اللوم لأحد، ولا نقلل من شأن أحد، ولكننا فقط نرصد التاريخ بمسقطٍ رأسي حيادي وموضوعي لما حدث وما كان ينبغي فعله، لأن كل العظماء في التاريخ كانت أخطاءهم عظيمة، ما عدا الأنبياء، ولنعرف كيف انحرف المجتمع عن المنهج، وكيف بدأ هذا المنعطف لحظة أن قال لهم النبي " قوموا عني" وهي إشارة ذات دلالة بعيدة المدى، ولنعرف ما

مؤثراته وأسبابه ونتائجه، فالعرب مجتمع، والمجتمع بطبيعته له ميول وغرائز نفسية مشتركة بين جموع أفراده، قد تختلف نسبيا، لكنها تبقى مشتركة بين الجميع، ولا يمكن الحكم على شخص بعيدا ظروفه وتكوينه النفسي والمؤثرات الاجتماعية التي نشأ فيها، خاصة إذا كان مجتمعا بربريا مجرما بالنشأة، فعلى الأفراد الذين تم علاجهم من هذه البيئة الموبوءة أن يظلوا تحت المراقبة فترة لمراقبة سلوكياتهم وأثر العلاج في نفوسهم، لا أن يصبحوا هم قدوة لغيره من الشعوب والحضارات.

٥ـ انشقاق المجتمع: بمجرد أن تقلد أبو بكر مقاليد الحكم، بايعه بعض الصحابة ورفض البعض بيعته ومنهم علي ابن أبي طالب ومجموعته، وأصر هؤلاء على موقفهم من رفض الاعتراف بأبي بكر أميرا عليهم، وغالبية الأسباب التي استندوا لها لم تكن موضوعية بالمرة، ولم يتمتعوا حتى بالتسامح مع صحابي عظيم بهذا الحجم حتى وإن كانت أخطاءه عظيمة، وكان ذلك غريبا ولم يكن ليحدث أبدا في عهد النبي، لكن ذلك من طبيعة القومية العربية البرية ومن التحولات النفسية الجمعية التي قد تطرأ على المجتمع، فالشقاق فشا في المجتمع مثل السوس بداية من لحظة وفاة النبي (ص).

٦ـ في الواقع كانت تصرفات المجتمع أثناء حياة الرسول وبعد وفاته توحي من المشهد العام وكأنهم اجتمعوا لصلاة الجمعة، وخطب فيهم رسول الله وصلى بهم الجمعة، وبمجرد أن انتهى من الصلاة تركوه في المسجد وخرجوا لشؤونهم الدنيوية.. بدؤوا بتأسيس نظام حكم، اختلفوا فيه من البداية حول آلية الحكم وهل يقوم به أمير يساعده وزير أم يستقل به الأمير بمفرده، وهل يكون اختيار الأمير من المهاجرين أم الأنصار أم هما معا.. في هذا التوقيت بدأ بالفعل تأسيس دولة العرب، لأن النبي كما سبق وأوضحنا لم يؤسس دولة بالمفهوم السياسي ولم يكن أميرا ولا فارسا وإنما كان نبي، تركزت كل مهمته في الدعوة إلى الله، وبمناسبة هذه الدعوة عمل على توحيد القبائل العربية تحت مظلة السلام الاجتماعي، لكنه لم يلزمهم بسلطة حكم موحد، ولم يمارس عليهم سلطة بالمفهوم السياسي، ولم ينشئ مؤسسات عامة ولم ينشئ جيش نظامي ولا ميزانية عامة ولا موظفين عموميين برواتب ثابتة، وإنما هذه الشؤون أسسها العرب بعد رحيل النبي، فالنبي كان مناسبة لتوحيد كلمتهم فقط، ولم يكن دوره تأسيس دولة بالمفهوم السياسي، هو كان نبي جاء ليعلمهم شؤون دينهم ولم يعلهم شؤون الغزل والنسيج والصناعة أو الزراعة، فهذه

شؤون مجتمع اقتصادية وسياسية وعلمية تقوم على جهود المجتمع ذاته وتطلعاته واحتياجاته الضرورية للحياة بعيدا عن أمر النبوة، لكن العرب وفق طبائعهم النفسية اعتبروا النبي قائدا سياسيا ودينيا وعسكريا وتوهموا أنهم ساروا على نهجه فاختاروا حاكما لهم واعتبروه خليفة للنبي !

٧ـ بينما النبي عليه السلام كان يفهم ويدرك الفرق الشاسع بين السياسة والدين، بين الصناعة والدين، بين الزراعة والدين، بين الطب والدين، بين العسكرية والدين، فكلها تخصصات تحتاج لمن يمارسها أن يكون الأكثر خبرة وكفاءة فيها لا أكثر خبرة في الدين.. ولذلك نجد النبي عليه السلام حينما أمر جيشه بالتحرك إلى مؤتة، لم يختر قادة الجيش من أقرب الصحابة وأكبرهم منزلة منه أو أكثرهم فقها في الدين، بل اختار على أساس الكفاءة العسكرية (مع مراعاة مبادئ الدين فقط)، فاختار زيد حارسة وهو ليس الأكفأ في الفقه والفتوى، واختار بعده جعفر عبد المطلب، وهو ليس الأكفأ في الفقه والفتوى، واختار بعده عبد الله ابن رواحه وهو ليس الأكفأ في الفقه والفتوى.. ثم في الكرَة التالية، بعدما انهزم الجيش وعاد به خالد الوليد البطل المغوار الشجاع، الذي أنقذ الجيش بمهارته الحربية الفائقة، ومع ذلك لم يختره النبي قائدا لجيشه (لأنه لا يراعي مبادئ الدين) واختار أسامة زيد قائدا للجيش لأنه الأكفأ عسكريا في قيادة الجيش مع مراعاة مبادئ الدين، وقد انتصر أسامة بالفعل، واختاره النبي قائدا للجيش ولم يكن هو أقرب الصحابة إليه ولا أقربهم إلى قلبه ولا أقربهم نسبا له ولا أكثر الصحابة تفقها في الدين ولا معرفة بالحلال والحرام.. النبي تعامل مع الموقف من الناحية السياسية وعلى الوجه الصحيح، لم يضع عمر الخطاب قائدا للجيش أو خليفة له على جيشه ولم يختر أبي بكر الصديق أو غيره من كبار الصحابة ورجالات الفقه حوله ودعائم الدعوة، اختار الأكفأ للعمل المطلوب القيام به، وقد أثبت أسامة كفاءته وانتصر وعاد بالجيش..

وهذا معناه مبدئيا أن طريقة اختيار الخليفة وتسميته خليفة كانت خطأ محضا، ليس عيبا في أبي بكر أو لأنه لا يصلح حاكما للعرب، ولكن لأنهم اختاروا أبا بكر باعتباره الأقرب للنبي وليس كما اختار النبي أسامة باعتباره الأكفأ والأصلح. اختار الصحابة حاكما سياسيا باعتبارات دينية بعيدة عن الأمر المطلوب أداءه، واختار الشيعة علي ابن أبي طالب لاعتبارات النسب وصلة القرابة بعيدا عن طبيعة العمل المنوط به، واختار أبي بكر أن يكون الأمير قرشيا والوزير

أنصاريا لاعتبارات قبلية عصبية بعيدة عن متطلبات العمل السياسي المطلوب أداءه.. بينما النبي ترك كبار الصحابة واختار الأكفأ وبمعيار الكفاءة العملية وليس بمعايير دينية أو طائفية، فلم يقسم قيادة الجيش بين (زيد وجعفر وابن رواحة) على أساس شرفية قيادة الجيش ومن كل قبيلة رجل أو مهاجري يخلفه أنصاري أو قرشي، ولم يقسم قيادة الجيش بحسب النسب بين القبائل أو حسب قرابة النسب أو قرابة الصحابة منه أو منزلتهم عنده كما فعل عمر وأبو بكر في اختيار الأمير..

لكن العرب بعد وفاة الرسول تخبطوا وخلطوا ما هو ديني بما هو سياسي بما هو طائفي قبلي عصبي من عاداتهم العرفية قبل الإسلام.. حتى معيار اختيار الخليفة أبي بكر جاء على أساس خطأ ومخالف لمعيار النبي في الاختيار.. وهكذا استمرت الأخطاء واستمر نسبها للدين وتقديسها، ومن هنا دخل الإسلام كهف العرب وتلون بطبائعهم النفسية وعادتهم وأعرافهم وظروفهم المجتمعية وفقد استقلاليته كمنهج صالح لكل الشعوب وكل العصور، فالعرب جعلوا من حاكمهم نائبا عن النبي وخليفة له، ومن ثم لم يستطيعوا أن يتصوروا أن يكون هناك حاكم آخر مسلم على شعب مسلم غير هذا الخليفة، حتى وإن كان أكفأ سياسيا من الخليفة لأن مصطلح الخليفة اصطبغ بماء الذهب وصار لامعا.. لدرجة أن غالبية المسلمين اليوم لا تتصور أن يعيش الإسلام عصر العزة والكرامة دون أن يحصل الحاكم على لقب خليفة، ودون أن يكون جميع المسلمين حول العالم دولة واحدة، وهذا أمر غريب يخالف الفطرة التي خلق الله عليها الشعوب، فالله يقول: وخلقناكم أمما وشعوبا لتعارفوا" ولم يقل الله أن الإسلام لن ينعم بالعزة والرفعة إلا إذا كان مسلمي روسيا ومسلمي أمريكا اللاتينية يخضعون للخليفة الجبتي بالقاهرة أو السعودي بالرياض مثلا، لكن هكذا اختلط التاريخ بالدين حتى أصبح ركنا فيه بأفكاره وأخطائه.

٨. في الوقت الذي أصر فيه الفريق الرافض لإمارة أبي بكر، أعلن بعضهم منع الزكاة عنه باعتبار الزكاة هي صلة الوصل بينه وبين الدولة ممثلة في بيت المال الذي يتصرف فيه الحاكم وفق سلطته التقديرية، ومن هنا قرروا الانفصال عن دولة أبي بكر بمنع الزكاة عنه، وفريق آخر أعجب بمقولة أن الزكاة إنما كانت تجمع ليد رسول الله حصرا، استنادا حرفيا لفظيا إلى الأمر الوارد في القرآن: خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتذكيهم" واعتبروا أن ذلك الأمر ينتهي بوفاة الرسول ومن ثم لا تجوز الزكاة لأبي بكر. وفريق آخر من المنافقين قالوا طالما أن الله غني عن العباد

فلماذا لا يغني فقراءه! مع أن الله شرع الزكاة ليغرس قيم التضامن ولتكافل الاجتماعي بين الناس ولمصلحة المجتمع. وفريق يرى أن الإسلام مجتمع وليس دولة، بمعنى أن الإسلام دين يكفل الحياة في سلام للجميع وليس نظام حكم، أي لا يجوز لأحد من قريش (ويمثلهم أبو بكر) أن يستغل فكرة الدين في إنشاء مملكة له (بمفهومها السياسي والاقتصادي والإداري لحساب قريش) وكان هذا الفريق يرى ضرورة تنظيم أمور الحكم وفق أوضاع القبائل العربية وليس وفق علاقات الصداقة والقرابة أو الصحبة مع النبي، أي أنهم تمسكوا بمفهوم الدولة المدنية بأن يكون الحُكم له رجاله والدين له رجاله، فهم لا ينكرون منزلة أبي بكر عند رسول الله ولكنهم ينكرون أحقيته في حكم العرب وتملك سلطة الأمر والنهي السياسي عليهم، وهذه النظرة ربما كانت واقعية لأن المنزلة الدينية ليست مبررا لكفاءة الحكم لكن العرب دمجوا صلاحية الحكم في المنزلة الدينية فاعتبروا الأقرب صداقة من رسول الله هو الأحق بميراث تركته وهذا خطأ.

لأن الحُكم وضع سياسي والنبي كان حاكما دينيا وليس سياسيا ولم يهتم بشؤون الاقتصاد والصناعة والزراعة، ومن هنا اختلط مفهوم الدولة في مفهوم النبوة، وتبعه اندماج مفهوم الفتوى في مفهوم القرار السياسي، ولذلك توهم المسلمون أنه لن تقوم لهم دولة إلا إذا كانت دينية، مع أن كافة شعوب العالم أقامت دول وحضارات عظيمة بدون أديان أصلا، لكن العرب ليسو من طبيعة هذه المجتمعات التي تجد وتعمل وتجتهد، فاعتبروا النبوة هي دولتهم أو استغلوا النبوة في تأسيس دولتهم والدعاية لها.. وأسسوا دولتهم على حس الرسالة وجعلوا مهمة الدولة هي شن الحروب على المجتمعات المجاورة ترويجا للدين، مع أن الدين بحاجة إلى الكلمة الطيبة وليس السيف والخنجر.. كل ذلك لأنهم لم يعرفوا معنى الدولة من قبل ولا نظام حكم مركزي من قبل، وكانت المرة الوحيدة التي اتحدوا فيها وتجمعوا، كانت على يد النبي عليه السلام.

هذا بالإضافة إلى فريق أخير وهم المرتدين عن الدين صراحة، أي الذين تركوا الدين الإسلامي بوفاة الرسول وعادوا لما كانوا عليه من قبل وأرادوا أن يعيشوا حياتهم في سلام بعيد عن التزامات الدين والتزامات الحاكم القرشي (أبو بكر). وفي هذا المشهد الدرامي يبدو أن المجتمع قد تفكك وانشطرت دعائمه بعدما كان عصبة واحدة ويدا واحدة في عهد النبي، بدأت التصدعات الاجتماعية تنتشر في مفاصل المجتمع، وهذا بالطبع ليس ذنب الصحابة ولكن قدر المجتمع الذي تشبع من الدين فزهده بعدما توقف كل جديد بوفاة الرسول وجف النبع وأصبح الإسلام في القلوب محض ذكرى الرسول، وإن ظل منهجا نظريا مدونا في كتاب الله، كما الإنسان الذي شعر بشدة العطش، فلما وجد الماء شرب وارتوى حتى الثمالة، وبعد الشبع زهد الماء وشعر بتغير طعمه،

وهذا ليس عيبا في الماء ولا عيبا في الإنسان إنما طبيعة خلق الله له. فهم قد عاشوا جو الإسلام وبينهم شمسه وقمره وكانوا هم النجوم، ثم بعد وفاة الرسول، انتهى شهر العسل وعادوا إلى حياتهم وعملهم اليومي الرتيب، ما زال الإسلام موجودا لكن الوضع أقل لذة لأن الشمس غابت عنهم، أو أن الإسلام كان منهج نظري ورسول بجسده بينهم كالمشكاة ملموسة صباح مساء، ثم بعد وفاته أصبح الإسلام كمنهج نظري فقط دون جاذبية النبي الشخصية، فطبيعي أن الوضع يتغير لأنهم انتقلوا من الأفضل إلى الأقل. ومن هنا بدأ التعصب وضيق الصدر مما تسبب في تصدعات اجتماعية (دينية وسياسية) وعادت العصبية والطائفية تطل بوجهها البغيض من جديد، وهذا أمر طبيعي وعادي جدا، لكن ما هو غير عادي أن الأجيال التالية تأخذ سيناريو الحياة الذي سلكه هؤلاء الصحابة بحلوه ومره لتجعله نموذج مثالي، وقدوة ذات قداسة دينية.

وفي الواقع التاريخي، فأي حدث جلل من هذا النوع، حدث بعثة رسول في مجتمع كهذا، بالطبع سيحدث خلخلة للأوضاع الاجتماعية المستقرة لآلاف السنين ولن يستقر الأمر بسهولة لأن مسألة غياب الرسول المفاجئ أحدث خللا وارتباكا عكسيا في المجتمع كما حدث عند بداية البعثة، اهتزت الثوابت وتزعزع استقرار المجتمع القرشي في البداية ما جعلهم يتحدون على قتل الرسول ليلة الهجرة. وهو ذات الوضع النفسي من الاضطراب الاجتماعي حدث عقب وفاته. بدأ الاتزان يعود مرة أخرى في صرع مرير بين صحوة الإسلام وبين صيحة قريش للعودة إلى سيادة العرب، فقد كسر الإسلام أنوفهم عند فتح مكة، لكنهم لن يستسلموا بالطبع لهذا الوضع ولن يظلوا راغمين له، إذ لم تكد تمر عامين بعد هذا الفتح وتوفي النبي، ولا يمكن أن تكون النزعة القرشية قد ذابت تماما وكليا خلال عامين، فالإنسان ليس لوحا من الثلج إذا ذاب تلاشى إلى الأبد، الإنسان كيان اجتماعي بمشاعر وأفكار ومعاني متجذرة بعمق في النفس البشرية، ولا يمكن القضاء عليها بسهولة. والخلاصة أن هذه الانشقاقات والتصدعات الاجتماعية كانت حتما ستحدث ليس بتدخل أشخاص الصحابة أو خطأهم ولكن لطبيعة الحدث وظروفه التي تغلب إرادة الإنسان لتمثل إرادة الله في خلقه.

٢ـ حرب الردة

اتخذ أبو بكر الصديق قرار الحرب على المعارضين جملة، وظهر مصطلح "حرب الردة " الذي يطلق على من حاربهم أبو بكر، وهو مصطلح ليس دقيق لأن الحرب لم تكن حرب على الدين بل حرب سياسية لإلزام الممتنعين عن الزكاة بتقديمها وإعلان الولاء للدولة، وسواء كان قرار الحرب هذا صائبا أم خطأ فهو في كافة الأحوال قرار سياسي يخضع للظروف والعوامل الاجتماعية والسياسية والعسكرية وقتها. لكن الكارثة ليست في كون هذا القرار السياسي صائب أم خاطئ، ولكن في تحويله من نطاقه السياسي إلى اعتباره تشريع ديني يوجب قتل المرتد عن الدين وقتل مانع الزكاة وقتل تارك الصلاة.. وقتل الفلاسفة بتهم فكرية مختلفة، فقد وضع الفقهاء من أنفسهم أوصياء رقباء بين العبد وربه ! وهذا التشريع قد تحصن عبر الزمن، واستمر القضاة المسلمين عبر التاريخ وعلى مدار ألفٍ وأربعمائة عام يحكمون على من يعتبرونه "مرتد" بالإعدام، استنادا إلى نموذج تطبيق عملي نفذه الخليفة الأول أبو بكر حينما أعلن الحرب على المرتدين.

ومن أكبر الأخطاء السياسية أن الخليفة لم ينتبه لأمر الله تعالى في قوله: وأمرهم شورى بينهم" أي كل أمر يخص عموم المسلمين أو المجتمع بوجه عام سواء كان ديني أو دنيوي فلا بد للبت فيه من استطلاع آراء أفراد هذا المجتمع أو من لديه رأي على الأقل كما كان يفعل الرسول في شؤون الحرب، كان يستشير الصحابة ويسألهم هل يتحرك بالجيش خارج المدينة أم ينتظر ويدافع من الداخل، وفي الغالب كانوا يشيرون عليه بالتحرك خارج المدينة لتكون المعركة في الصحارى المفتوحة بعيدا عن الأهل والأموال، وفي موقعة الخندق اقترح بعضهم حفر الخندق لتحصين المدينة، وقد فعلوا، وكان المعيار هو مدى سداد الرأي وليس مَن صاحبه وما سلطته في إصدار الرأي. لكن أبا بكر استقل بصناعة القرار بصورة فردية شخصية ولم يستشر حتى عمر الخطاب الذي رشحه أميرا، ولم يستشر أحدا من العرب، وإنما استأثر بالقرار، ولو كان الأمر واجب ديني لما اختلف فيه الصحابة ولا تأخروا، بل إن أغلب الصحابة عارض هذا القرار ومنهم عمر ابن الخطاب.

غير أن أبي بكر قد ظهر عليه بجلاء تعصبه السياسي في الرأي حتى أنه قال: والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه" برغم أنه هو أبو بكر ذاته الذي خطب في المسلمين عقب مبايعته أميرا قال: أيها الناس، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم.. وإن وجدتم فيَ اعوجاج فقوموني".. لكنه رفض أن يسمع أصلا من غيره.. وهو ذاته الذي تعصب لرأيه وأصر على موقفه واتخذ قراره منفردا بقتال المعارضين له (المعارضين دينيا وسياسيا) وهذا بالطبع مخالف للإسلام لأن الإسلام

كفل حرية الاعتقاد، وأبو بكر لم يقاتلهم في الواقع على العقيدة، وإنما على السياسة، فلم يكن أبو بكر يقتل كل تارك للصلاة أو تارك للصيام كي يقتل كل مانع للزكاة، وإنما كان القتال سياسيا لمعارضتهم لدولته وحكمه، وحتى في هذه الحال لم يكن هناك مبرر يبيح قتال هؤلاء لأنهم لم يبدؤوا بالهجوم ولم يرفعوا السلاح في وجهه.

الغريب هو أنه إذا كان أبو بكر قد أصر على رأيه وتعصب للأمر وانفرد بقرار ديكتاتوري، فالجانب الآخر كان أكثر حماقة وتصلبا في موقفه، لأنهم بمجرد أن أعلن أبو بكر القتال على كل من امتنع عن الزكاة، فكان من الضروري أن يلين الجانب الآخر ولو مؤقتا لا أن يتجرأ لمواجهة جيشٍ جرار ويعرض النفوس والأعراض والأموال للهلاك، فلو كانوا استجابوا لرغبة أبي بكر حتى بدون تنفيذ لكانت الأمور قد سارت في اتجاه أفضل، لكن هذه طبيعة المجتمع العربي، العنف والعصبية.. في الواقع كان الطرفين على خطأ وعلى ذات الدرجة من العصبية والتصلب في الرأي لكن المسؤولية تقع على الخليفة أبي بكر لأنه المسئول عن سياسية المجتمع وإدارة الموقف، وكان يفتقد للقدر اللازم من الحنكة والدبلوماسية للتعامل مع هذا الموقف دون توريط المجتمع في حربٍ أهلية استمرت ويلاتها أكثر من ألف عامٍ من الفرقة والتصارع. وربما لو عهد بتصفية هذا الخلاف لرجل مثل عمر الخطاب لديه قدر أوفر من الحنكة والحكمة لكان الأمر اختلف، لكنه ترك الجميع وانتظر الجزار أن يسن سكاكينه.. (بينما الحكمة تقول: اغرس اليوم شجرة .. تنم ظلها غدا)

بعد عودة الجيش من مؤتة منتصرا بقيادة أسامة زيد، أنزل أبو بكر أسامة من قيادة الجيش برغم أن الرسول هو من عينه وأصر على ذلك قبل وفاته، لأن العرب كانوا معترضين على قرار النبي بتعيين أسامة قائدا للجيش، ولكنه أصر وأوصى بإنفاذ بعث أسامة حتى بعد وفاته. جاء أبو بكر بخالد الوليد ووضعه على قيادة الجيش بدلا من أسامة وتركه ليكنس كل من وقف أمامه بسيفه، وكان خالد بطبيعته رجل حربي تربى على الفروسية وتمرس عليها جديا في الجاهلية، وكان الوحيد بين العرب الذي استطاع بدهائه أن يهزم جيش رسول الله في موقعة أحد، قبل أن يدخل الإسلام، وقد أسلم قبل الفتح ومر عامان فقط على إسلامه، لكنه ما زال على طبيعته الوحشية وفروسيته الجبارة، ولا يعرف عن الإسلام إلا بقدر ما يعرف عن الفيزياء.

وبعدما انتشرت حركة الردة، حيث وقع الخلاف في الرأي بين عمر الخطاب والخليفة أبا بكرٍ الصديق حول ما إذا كان يجب إعلان الحرب على المعارضين، وربما كان عمر الخطاب يرى عدم الحرب عليهم وكان أبو بكر يرى ضرورة الحرب عليهم باعتبار فعلهم هذا خروج عن الدين

يستوجب القتل. وهذا لم يكن صحيحا بأي حال، سواء كان خروجا عن الدين أو خروجا عن الدولة، لأن حرية العقيدة مكفولة للجميع، وكذلك حق تقرير المصير مكفول للجميع.

لكن أبا بكر اعتبر ذلك عصيان لأمر الخليفة وخروج عن ولايته بالامتناع عن دفع الزكاة، ورأي أن عصيان الحاكم هو القتل!، فهذه مسألة سياسية ربما تبرر تمسك أبي بكر برأيه في ضم هؤلاء بالقوة وإعادتهم لولاية الدولة واستمرار تمويلهم لبيت المال. كان يريد إحكام السيطرة على مملكته، ولم يرد أن يبدوا ضعيفا أمام العرب غير قادر على السيطرة، وهذه حسابات سياسية قد تدفع الخليفة وأي حاكم أن يحكم سيطرته على دولته حتى لا ينفرط عقدها، لكن ليس بالقتال كما يحدث في عصرنا في دولة ميانمار، إذ لمجرد أن حاول إقليم الاستقلال عن الدولة احتشد الجيش وانخرط في القتل والتشريد والاغتصاب وهتك أعراض المسلمين الروهنجا لمجرد أنهم طلبوا تقرير مصيرهم بحكم ذاتي مستقل عن الدولة، والإسلام لم يفرض على مسلم إعلان ولائه لدولة ما عنوة وأي دولة، القرآن تحدث عن طاعة ولي الأمر، ولكن لم يفرض عقوبة القتل على من عصاه، بل إن الله قال: وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم" ولم يفرض الله عقوبة القتل على معصيته هو جل شأنه، بل ترك حسابها إليه هو، فكيف يقرر عقوبة القتل على من عصى وليَ الأمر؟!

وحتى لو كانت غاية الخليفة وقتها هو الحفاظ على وحدة الدولة الإسلامية وقوتها ومنعتها واستمرار سيادتها، فليس ذلك مبرر لشن حربٍ أهلية باسم الدين أو فرض القتل عقوبة عن الانشقاق على الدين أو الدولة، حتى في عصرنا الحالي وفي كل العصور من أراد التنازل عن جنسيته فله الحرية. وأما الزكاة فهي فريضة مثل الصلاة والحج ولا يملك بشر عقابا عليها إلا الله، فالله لم يضع على العبادات عقوبات دنيوية يتولى المجتمع تنفيذها على الأفراد المقصرين، فلم يضع الله عقوبة لتارك الصلاة أو الصيام أو الحج أو الزكاة وإنما اختص بها نفسه، فعلى أي أساس قتل أبو بكر هؤلاء!!.

غير أنه لو كان الهدف من حرب الردة إنفاذ عقوبة دينية (منصوص عليها بالقرآن، وهو ما لم يحدث) (وباعتبار الردة كانوا مسلمين وتنطبق عليهم أحكام الإسلام، فإن أجرموا فالقانون الساري بالنسبة لهم كان هو الشريعة الإسلامية) فإن مسألة تنفيذ العقوبة لها آليات وضوابط محددة أولها معيار شخصية العقوبة أي لا يمكن الهجوم على قرية مثلا لتنفيذ عقوبة القتل على شخص مرتد أو مجموعة أشخاص مجرمين أو مختبئين أو مقيمين فيها، ولا يجوز تنفيذ العقوبة على كامل القرية أو

القبيلة بالجملة لأن وراءهم نساء وأطفال لا ذنب لهم أن يتم أسرهم واستعبادهم وحرمانهم من حضانة وشمل الأسرة، وهذا ما فعله علي أبي طالب عندما أرجأ القصاص من قتلة عثمان عفان لأن القتلة كانوا مجموع، ومسألة النيل منهم ستثير اضطرابا في المجتمع، فهناك كوارث وخيمة من جراء تنفيذ عقوبة بهذا الشكل البشع الذي وقع في عهد أبي بكر حتى أنه هو نفسه استنكره فيما بعد. وفي ذات الوقت لا ينبغي أن تكون مكانة الخليفة أبو بكر في قلوبنا مانعا وحاجزا عن إدراك الحق. فالإسلام أقر حرية التدين كاختيار شخصي للهوية فهو يعلنها صريحة لا مواربة فيها ولا التواء أن (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ). يقول الإمام محمد الغزالي في كتابه خلق المسلم: الإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل، كما أن الإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن، فالحرية النفسية والعقلية أساس المسؤولية، والإسلام يقدر هذه الحقيقة ويحترمها وهو يبني صرح الأخلاق.

لكن ما وقع فيه الخليفة هو أن قرر لأول مرة في تاريخ الإسلام أن يخوض حربا هجومية، وأن يبدأ هو بدراسة القرار بعد سجال طويل وأن يعد للحرب، فهذه حرب هجومية وتختلف في طبيعتها وظروفها كلية عن كافة الحروب التي اضطر النبي لخوضها. فالمجتمع الإسلامي لم يكن يحيط به خطر ولم يكن الردة قد أعدوا عدتهم وتوجهوا إلى مقر الدولة للاعتداء عليها، بل أرسلوا وفودا منهم للتفاوض مع الخليفة والبقاء على وضعهم لكن أبي بكر رفض الحوار معهم.

على كل حال، كان هذا القرار هو أخطر منعطف في تاريخ العرب، لأنه لم يبق في نطاق القرار السياسي وإنما تحصن بقدسية الدين، وانقلبت الغاية والهدف من المعارك التي خاضها النبي عليه السلام بعدما كانت دفاعية صارت هجومية على المسلمين أنفسهم، فرافضي الزكاة لم يكونوا رافضين للإسلام بل رافضين لحكم أبي بكر تحديدا، ورافضين لفكرة الحكم السياسي المركزي، وحروب الردة كانت سلسلة من الغارات الهجومية على قبائل عدة متفرقة في المناطق المحيطة بمكة والمدينة، وكان أغلبهم مسلمون رفضوا الخضوع لسلطة أبي بكر لرفضهم زعامة قريش عليهم، وقريش هنا يمثلها أبو بكر، أي أن أغلب هذه الحروب وقعت مع معارضين لأبي بكر شخصيا، وكانت هناك أيضا بعض القبائل التي ارتدت عن الإسلام، لكن لم يعلن أحد الحرب على الإسلام ولا المسلمين، وإنما رفضوا دفع الزكاة لأبي بكر وهو ما يعني رفضهم الاعتراف بسلطته عليهم، وأرسلوا وفودهم إلى أبي بكر وهو الذي رفض التفاوض معهم وأصر على دفعهم الزكاة وإلا قتالهم.

ولو قلنا أن القتال على مال وهو الزكاة فهذا غير مقبول شرعا، أن يهدد إنسان بالدفع أو القتل لأن ذلك من عمل قطاع الطرق، فهم فقط الذين يقتلون الضحية من أجل المال، وإذا قلنا أن القتال كان لإكراه الردة على اعتناق الإسلام، فهذا غير مقبول شرعا ولا عقلا ولا منطقا، لأن الإنسان نفسه لا يملك أن يكره نفسه على الاقتناع بفكرة ما كما يكره نفسه على القيام بعمل مادي. هذا بالإضافة إلى بعض الفسقة الذين ادعوا النبوة وأخذوا يقرضون شعرا رديئا ويشوشون به على الناس ويسمونه وحيا، في إشارة ساخرة للقرآن ووحي النبي محمد عليه السلام، وهؤلاء تحديدا كانوا في حاجة ماسة للتعامل معهم بأي طريقة تكفل منع الضرر العائد منهم على الإسلام والمسلمين، سواء بنفيهم (كما فعل النبي قبل ذلك مع الحكم ابن أبي العاص) أو عقابهم أو سجنهم أو غير ذلك ولا حرب إلا إذا أعلنوا هم الحرب في وجه المجتمع.

وما يؤكد أن الوضع كان سياسيا لا دينيا بالدرجة الأولى، هو أن غالبية المرتدين قد امتنعوا عن دفع الزكاة تحديدا، وبعضهم صرح بعدم دفعها لأبي بكر، فلماذا لم تكن ردتهم على الإسلام قائمة على الاعتراض على فريضة الحج مثلا، فنفقاتها ربما أعلى من الزكاة، ولماذا لم يعترضوا على الصوم والصلاة، بل إن الزكاة هي أخف فريضة بين الفرائض، غير أن بعض المعترضين على دفع الزكاة قد تمسكوا بقول الله تعالى:" خذ من أموالهم صدقة تطهرهم بها وتزكيهم وصلِ عليهم إن صلاتك سكنٌ لهم) وقالوا لن ندفع زكاتنا إلا لمن كانت صلاته سكنٌ لنا، وأنشد بعضهم يقول: أطعنا رسول الله إذا كان بيننا ... فواعجبا ما بال ملك أبي بكر.

وهذا ما يؤكد اعتراضهم على أبي بكر شخصيا. والعبرة لنا من سنة نبينا الكريم عليه السلام أنه لم يكره أحدا على اتباعه ولم ينتقم من أحد على ارتداده عن دينه، بل كان خلقه القرآن، كان يجذب الناس جذبا روحيا إليه حتى مشركي قريش عجبوا عندما سمعوا منه القرآن، لم يكن غليظ القلب وإلا انفض الناس جميعا من حوله، ولم يثبت أبدا على مدار حياته أنه انتقم من أحد على إزائه أو على ارتداد أحد عن الإسلام، كان سمته أن يمتص غضب من حوله، لم يكن يأبه لمن يدخل ويخرج من الإسلام ثم يدخل ويخرج من الإسلام مرات ومرات، كما قال عز وجل: نَّ الذِينَ آمَنُوا ثمَّ كفَرُوا ثمَّ آمَنُوا ثمَّ كفَرُوا ثمَّ ازْدَادُوا كُفرًا لمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا) ١٣٧/النساء، وهذه الآية توضح بجلاء أن النبي لم يكن يأبه ولا يلقي بالا لمن يدخل الإسلام ثم يخرج ثم يدخل ثم يخرج، ولو كانت عقوبة الخروج عن الإسلام – الردة – هي القتل لما ذكر الله أن هؤلاء دخلوا في الإسلام مرات أخر، ولو كانت هناك استتابة لهم أو تعذير قبل

عقابهم، لما قال تعالى: ثمَّ ازدادوا كُفرًا لمْ يَكُنِ اللهُ ليَغفِرَ لهُمْ ولا ليَهديَهُمْ سَبيلا بَشِّرِ المُنافِقِينَ بأنَّ لهُمْ عذابًا أليمًا" فهذه الآية تدل بجلاء على أنهم مستمرون على قيد الحياة وأن حسابهم على الله.

قال ابن القيم[٣]: " واقعة " أحد " كانت مُقدِّمة، وإرهاصا، بين يدي موت رسول الله عليه السلام، فثبَّتهم، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسولُ الله عليه السلام، أو قُتِلَ، بل الواجبُ له عليهم أن يثبتوا على دينه، وتوحيده، ويموتوا عليه، أو يُقتلوا، فإنهم إنما يعبدُون ربَّ محمد، وهو حيٌّ لا يموت، فلو مات محمد أو قُتِلَ: لا ينبغي لهم أن يَصرِفهم ذلِكَ عن دينه، وما جاء به، فكلُّ نفسٍ ذائِقة الموت، وما بُعِثَ محمد عليه السلام ليخلُد، لا هوَ، ولا هُم، بل ليَمُوتُوا على الإسلام، والتَّوحيدِ، فإن الموت لا بُدَّ منه، سواء مات رسول الله عليه السلام، أو بَقِيَ، ولهذا وبَّخهم على رجوع مَن رجع منهم عن دينه لما صرخ الشَّيْطان: إنَّ محمَّدا قد قُتِلَ، فقال: (وَما مُحمَّدٌ إلا رَسُولٌ قدْ خلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفإن مَاتَ أوْ قُتِلَ انقلبْتمْ على أعقابكُمْ ومَن يَنْقلِبْ على عَقِبَيْهِ فلن يَضُرَّ اللهَ شيْئا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ) آل عمران/ ١٤٤

وعندما نعود لتحليل الخطاب القرآني سنجده خطابا استباقيا، ولم يرتكز على الانتقام ممن سينقلبون عن الإسلام بوفاة رسوله، بل يرتكز على ثواب الشاكرين والثابتين على دين الله، موضحا أن ارتداد آخرين لن يضر الله شيئا، وهذا الخطاب القرآني هو ما يتناسق مع المبادئ القرآنية كافة، ولذا نجد أسلوب النبي في حياته ومعاملاته يتساند على هذه المبادئ، لكن التناقض المعرفي يبدأ لدينا بإصرار أبا بكرٍ الصديق على محاربة من ارتدوا عن الإسلام أو منعوا الزكاة سواء لأسباب دينية أو سياسية، معارضا في ذلك رأي الصحابي الكبير عمر الخطاب، وهذا هو بداية التناقض والانحراف عن منهج الإسلام وعودة لطبيعة المجتمع العربي؛ إذ أن الله قد قالها صراحة أن المرتدين لن يضروا الله شيئا وأن الله سيجزي الشاكرين، وقد أيد عمر الخطاب هذا المبدأ، لكن الخليفة أصر على رأيه وقرر الحرب.

وكما كان موقف عمر الخطاب، تكلم الصحابة مع الخليفة أبا بكرٍ الصديق في أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم، ثم بعد ذلك يزكون، لكن أبا بكرٍ رفض ذلك تماما.

---

٣ ـ (زاد المعاد في هدي خير العباد" (٣ / ٢٢٤ ، ٢٢٥) .

فموقف القرآن الكريم جاء واضحا وهو ما تبناه عمر الخطاب ومعه الصحابة في شأن ترك مانعي الزكاة وعدم قتالهم، لكن أبا بكرٍ أصر على ذلك، وربما أخذ الموقف منحىً شخصيا في ذهن أبي بكرٍ بسبب تحديدهم لشخصه ومنع الزكاة عنه. وحتى وإن وافقه بعض الصحابة في وقتٍ لاحق، فلا شك أن مثل هذا القرار-وفق ما ورد بالمراجع التاريخية- يقف على دعامتين اثنتين، الأولى شخصية ومنشأها غيرة أبي بكرٍ على مركزه السياسي وسط العرب وكذلك مركز إمارته، وهذا ما دفعه لمحاربة من عارضوه ورفضوا الاعتراف به أميرا، لأنه لا يوجد نص لا في الكتاب ولا سنة رسوله يوجب قتل كل من قصر في فرض من فروض العبادة.

وأما الدعامة الثانية، فهي عاطفية ومنشأها غيرة الصحابة على دينهم، إذ من البديهي أن يكرهوا كل من كره دينهم، والذين ارتدوا عن الإسلام إنما كرهوا هذا الدين وعادوا إلى كفرهم أو أديانهم السابقة وتحللوا من ضوابط والتزامات الإسلام، وهذا ما سبب احتقانا لدى الكثيرين، بخلاف من كانوا يهودا أيام النبي وظلوا على دينهم، أما من خرج من الإسلام فخروجه يعبر عن كرهه للإسلام وبديهي أن يتحامل الإنسان على من كره دينه، وعلى هذا جاءت رؤيتهم عاطفية انفعالية مبنية على الحمية الدينية وليست مبنية على أسس فقهية صحيحة من الدين، فلو كان النبي ما زال حيا بينهم وحدث مثل هذا الارتداد الجماعي، فمن البديهي أن يتطوع أغلب الصحابة بطرح فكرة الانتقام منهم أو زجرهم أو عقابهم على فعلتهم، لكن النبي ما كان يسمح بذلك، ولكان أمرهم بالتريث وترك الأمر، لأنه سبق وعرض عليه بعض الصحابة قتل أحد المنافقين في موقعة بني المصطلق بعدما ظهر نفاقه عيانا بيانا لكن النبي أثناهم عن ذلك. أما وقد توفي النبي فتصرف الصحابة وفق فطرتهم وليس بتأسيس حكمٍ شرعي بالاستناد إلى كتاب الله.

ووفقا لرواية ابن كثير: بدأ موقف عمر الخطاب في التراجع قليلا حينما روي عنه قوله لأبي بكر: قال رسول الله عليه السلام: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها! فكيف تقاتل الناس وهم يقولون لا إله إلا الله؟ فقال أبو بكر: والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لأقاتلنهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلنَ من فرق بين الزكاة والصلاة، فقال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق، وقلت – أي عمر – وقد قال الله تعالى { فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا

الزكاة فخلوا سبيلهم} الآية ٥ سورة التوبة[٤]. وهذه أول مسألة فقهية في تاريخ الإسلام يبدأ معها العنصر الشخصي بدلا عن المعيار الموضوعي، إذ أن الفصل بين ما هو حرام وما هو حلال أو ما هو جائز وما هو غير جائز لا يمكن أن يكون بالارتكان إلى الرأي الشخصي لأبي بكر وكونه قد شرح صدره للقتال من عدمه، بل إن الأمر كان في حاجة ماسة إلى بحث فقهي لاستخلاص الدليل قبل الإقدام على القتل الجماعي، لكن هكذا كانت طبيعة المجتمع العرب حربية بالفطرة.

وبجلاء يظهر التراجع هنا في موقف عمر الخطاب اعتمادا على عدة نقاط، لكن هذه النقاط في حد ذاتها ليست موضوعية ولا تعبر إلا عن تقمص عمر لرأي أبي بكر في الواقع؛ لأن عمر الخطاب ذكّر أبي بكر بقول الرسول: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها)، في حين أن هذا الحديث خطأ تماما ولو صح تأريخه فقد أورده عمر خطاب في غير سياق تماما؛ ذلك لأن الرسول الكريم وإن ثبت قوله كذلك، فإن قوله هذا لا ينصرف إلى عموم الناس من غير المسلمين وإلا صارت مهمة المؤمن في الحياة هي قتل الشعوب المجاورة له حتى يقولوا لا إله إلا الله، بل فقط ينصرف الحديث إلى من هم في حالة حرب وأثناء اشتعال الحرب إذا جنحوا للسلم أو آمنوا بالله فلتتوقف الحرب، وهذا ما يؤكده فعل الرسول ذاته ولأن الفعل أصدق في تجسيد مبادئ الرسول، فقد كان كريم الخلق في معاملته مع الكافة حتى مع أعدائه، ولم يثبت على مدار حياته أنه عادى أحدا أو قاتله فقط لكونه غير مسلم، ولم يعتد على أحد ولم يبدأ بحرب.

والثانية أن عمر الخطاب ارتكن إلى إصرار أبي بكر في قوله (والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لأقاتلنهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلنَ من فرق بين الزكاة والصلاة)، فمن أين جاء أبو بكر بهذا الحكم؟ من قال له أن يقتل تارك الصلاة أو تارك الزكاة أو من منع الزكاة؟ من أين جاء بهذا الحكم من كتاب الله؟ فهو قد عقد عزمه على قتال من فرق بين الصلاة والزكاة، وهذا رأي وعزم شخصي بلا دليل من كتاب الله، لأن الله لم يأمر بقتل من ترك الدين، فكيف يأمر بقتل من ترك الصلاة أو ترك الزكاة؟ وقال عمر في نفسه: رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق. أي أن عمر لم يحلل الموقف ولم يدرسه من كافة جوانبه الشرعية والفقهية، ولكنه ارتكن إلى رأي أبي بكر بقوله "رأيت الله قد شرح صدره للقتال"، وهذا ما يؤكد أن ارتكان عمر لرأي أبي بكر لم يكن عن قناعة لأنه لا شرح للقلوب في قتل !،

---

(٤)ـ من كتاب البداية والنهاية لابن كثير ص ٩/٤٣٨ والرواية كما يقول ابن كثير ثابتة بصحيح البخاري

والأمر بالنسبة لأبي بكر لم يكن سوى نوع من العصبية والتصلب في الرأي مع حالة الغضب الشديدة، بل إن القتل كُره للناس جميعا، ولأن مسائل الشرع والأحكام والحرام والحلال لا تقوم على شرح صدر صحابي بإصراره على رأيه حتى وإن كان كبير الصحابة.

ثم يكمل عمر الخطاب بالاستناد إلى قول الله عز وجل: { فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم} الآية ٥ سورة التوبة، مع أن الاستشهاد بهذه الآية في غير موضعها؛ لأن هذه الآية لا تشرع إلى قتال كافة الناس من غير المسلمين، ولكن تتناول حصرا حالة الحرب القائمة مع المشركين، وفي وقت استعار القتال، يوجه الخالق عز وجل خطابه إلى رسوله الكريم قائلا إذا تاب المشركون في الحرب وعادوا عن كفرهم فينبغي عليك وقف قتالهم فورا، في حين أن الوضع والسياق الذي ذكر فيه عمر الخطاب هذه الآية ليس سياق حرب، أي لم تكن هناك حرب دائرة بين مسلمين ومشركين بالفعل كي تستمر الحرب حتى اعتراف الأعداء بوحدانية الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، إنما كان الموقف يدور حول كيفية اتخاذ قرار في عقاب من رفضوا دفع الزكاة أو ترك جزائهم على الله، فالأمر جد مختلف. ولا يمكن القياس بإحداهما على الأخرى. وقد ذكر محمد إسحاق ومجاهد وغيرهما: أن هذه الآية نزلت في أهل مكة. وذلك أن رسول الله عليه السلام صالح قريشا عام الحديبية، على أن يضعوا الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، ولكن خلف المشركون عهدهم قبل المدة.

غير أن الحرب في الإسلام لا تكون إلا في صحارى خالية ولا تكون وسط المدنيين والعزل والأطفال والشيوخ والنساء والحرث والنسل، كما شاهدنا في كافة المعارك التي خاضها النبي، وهذا ما يعني أن الحرب في الإسلام لا يمكن أن تكون هجومية أبدا، لأنها لن تبدأ إلا إذا خرج العدو من بلاده لملاقاة المسلمين في الصحراء بعيدا عن حرثه ونسله، ولا يمكن أن يبدأ عدو الحرب على المسلمين وهو داخل بلده وسط أطفاله ونسائه، فالبادي بالحرب يخرج إليها ويهاجم الطرف المستهدف في عقر داره، والبادي بالحرب هو أظلم، وأمر به أبو بكر، وهذا ما لم يفعله ولم يأمر به النبي لأن الحرب هي وسيلة اضطرارية لرد العدوان فقط، ولا يمكن أن يأمر الدين بشن حرب هجومية عدوانية على أحدٍ مسالم، مهما كان السبب، فالحرب لدفع الضرر فقط.

فعندما سئلت دار الإفتاء المصرية في هذا الشأن عن زعم البعض أن الإسلام قضى على حرية العقيدة حيث أباح قتل المرتد، جاءت الإجابة على النحو التالي[5]: "تمثل قضية "قتل المرتد" في الفكر الغربي إشكالية كبيرة، فيظنون أن الإسلام يكره الناس حتى يتبعوه، ويغفلون عن دستور المسلمين في قضية حرية الاعتقاد التي يمثلها قوله تعالى :(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ويمكن النظر إلى قضية "قتل المرتد" من زاويتين: الزاوية الأولى: هي النص الشرعي النظري الذي يبيح دم المسلم إذا ترك دينه وفارق الجماعة، والثانية: هي التطبيق التشريعي ومنهج التعامل في قضية المرتد في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك خلفائه رضوان الله عليهم. فأما في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فإنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يقتل عبد الله بن أبي، وقد قال: "لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ"، ولم يقتل ذا الخويصرة التميمي وقد قال له: "اعْدِلْ"، ولم يقتل من قال له: "يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تَنْهَى عَنِ الْغَيِّ وَتَسْتَخْلِي بِهِ"، ولم يقتل القائل له: "إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ"، ولم يقتل من قال له لما حكم للزبير بتقديمه في السقي: "أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ"، وغير هؤلاء ممن كان يبلغه عنهم أذى له وتنقص، وهي ألفاظ يرتد بها قائلها قطعًا؛ لأنها اتهام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بما في ذلك من تكذيب له بأمانته وعدله.

وقد كان في ترك قتل من ذكرت وغيرهم مصالح عظيمة في حياته، وما زالت بعد موته من تأليف الناس وعدم تنفيرهم عنه؛ فإنه لو بلغهم أنه يقتل أصحابه لنفروا، وقد أشار إلى هذا بعينه، وقال لعمر رضي الله عنه لما أشار عليه بقتل عبد الله بن أبي: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»، ولم يستخدم ما أباحه الله له في الانتقام من المنافقين ومعاقبتهم كما ورد في سورة الأحزاب قال تعالى :(لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا).

وكذلك ما رواه جابر عبد الله رضي الله عنهما: أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ عَلَى الإِسْلَامِ، فَأَصَابَ الأَعْرَابِيَّ وَعْكٌ بِالْمَدِينَةِ، فَأَتَى الأَعْرَابِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقِلْنِي بَيْعَتِي، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ، ثُمَّ

---

٥ - رابط الفتوى على الموقع:

http://www.dar-alifta.org/AR/ViewResearch.aspx?sec=fatwa&ID=2312&LangID=1

جاءه فقال: أقِلْنِي بيْعتِي، فأبى، ثمَّ جاءه فقال: أقِلْنِي بيْعتِي، فأبى، فخرج الأعْرابيُّ، فقال رسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وآله وسلَّم: «إنما المدِينَةُ كالكِيرِ، تنْفِي خبثَها، وينْصعُ طيبُها «فهو لم يقتله، فلماذا لم يقتل كل أولئك الذين يصدق عليهم قول ربنا: (ولقدْ قالوا كلِمةَ الكُفْرِ وكفرُوا بعْدَ إسْلامِهِمْ)؟

وأما في عهد الخلفاء، وبالتحديد في زمن الفاروق عمر رضي الله عنه، فقد روي أن أنسًا رضي الله عنه عاد من "تستر"، فقدم على عمر رضي الله عنه فسأله: "ما فعلَ الرَّهطُ السِّتَّةُ مِنْ بكْرِ بْنِ وائِلٍ الذِينَ ارتدُّوا عنِ الإسْلامِ فلحِقوا بالمُشْرِكِينَ؟ قال: فأخذْتُ بهِ فِي حدِيثٍ آخرَ ليشْغلهُ عنْهمْ، قال: ما فعلَ الرَّهطُ السِّتَّةُ الذِينَ ارتدُّوا عنِ الإسْلامِ فلحِقوا بالمُشْرِكِينَ مِنْ بكْرِ بْنِ وائِلٍ؟ قال: يا أمِيرَ المؤْمِنِينَ قتِلوا فِي المعْركةِ، قال: إنا للَّهِ وإنا إليْهِ راجِعونَ، قلتُ: يا أمِيرَ المؤْمِنِينَ وهلْ كانَ سبِيلهمْ إلا القتْل؟ قال: نعمْ، كنْتُ أعْرِضُ عليْهِمْ أنْ يدْخلوا فِي الإسْلامِ، فإِنْ أبوْا اسْتوْدعْتهمُ السِّجْنَ". فلم يرَ عمر رضي الله عنه قتلهم بدءًا؛ رغم أنهم ارتدوا وقاتلوا المسلمين؛ لكنه رأى استتابتهم، وإلا سجنهم.

ويرى الشيخ شلتوت شيخ الجامع الأزهر الأسبق رحمه الله أن قتل المرتد ليس حدًا فيقول: "وقد يتغير وجه النظر في المسألة؛ إذ لوحظ أن كثيرا من العلماء يرى أن الحدود لا تثبت بحديث الآحاد، وأن الكفر بنفسه ليس مبيحًا للدم، وإنما المبيح هو محاربة المسلمين والعدوان عليهم ومحاولة فتنتهم عن دينهم، وأن ظواهر القرآن الكريم في كثير من الآيات تأبى الإكراه في الدين". انتهت.

وكما نلاحظ في هذه الفتوى الصادرة عن دار الإفتاء المصرية أنها طرحت بدايتها أدلة من كتاب الله على حرية العقيدة وعدم قتل المرتد عن الدين، ثم طرحت أمثلة عديدة من حياة الرسول، ثم تجاوزت عهد أبي بكر الصديق وحروب الردة، وطرحت أمثلة من عهد الخليفة الثاني عمر الخطاب لتدلل على حرية العقيدة في الإسلام من حيث النص النظري ومن حيث التطبيق العملي، بينما تجاهلت تماما عهد أبي بكر وما حدث فيه من حروب الردة والتي وقع فيها مجازر كثيرة. ما يعني صراحة أن ما فعله أبو بكر من قتل الناس ما كان إلا جرائم حرب باسم الدين، لكننا إلى الآن نستحي القول بأن أعظم الصحابة قد ارتكب جريمة حرب في حق الدين والناس،

لأننا هكذا تربينا على أن هؤلاء لا يخطئون.. هكذا قال لنا العرب، وعشنا على قناعة بذلك أكثر من ألف عام لأننا لم نبحث بأنفسنا، فنحن كان مجرد تبرع للعقل العربي.

وهذا ما يؤكد أن إصرار أبي بكر على موقفه كان خطأ، وعلى كل حال، فهو من كبراء الصحابة ولا نفاضل بين أحد منهم على الآخر، لكن لا يجوز أن يكون اتفاقهم على الخطأ تشريعا للشعوب على مدار التاريخ، لأنهم ليسو شركاء في النبوة، إنما النبوة جاءت لعلاجهم ومجتمعهم، وهم ليسو أوصياء أو معصومين من الخطأ، فطالما كان نص القرآن واضحا فلا مجال لهدمه باتفاق الصحابة على أمرٍ يخالفه أو يخالف مبادئه العامة. وحتى وإن عدنا لبداية الحوار بين الصحابيين الكبيرين عمر وأبي بكر، سنجد أحدهما قد اختلف في رأيه عن الآخر، الأول أبي بكر يرى إعلان الحرب على مانعي الزكاة عنه، والثاني ومعه الصحابة يرون تركهم لحالهم حتى يقتنعوا بالدين ويعودوا من تلقاء أنفسهم، فهل كان أغلبية الصحابة ومعهم عمر في هذا الوقت على خطأ؟ أم أن أبا بكرٍ هو من كان على خطأ؟ والخطأ هنا كارثي، لأن من قتلوا في هذه الحرب لم يكونوا شهداء في سبيل الله بل مجرمي حرب، خاصة لو عرفنا أن خالد الوليد عاد بسبايا من هذه الحروب وعلى أساسها تم تشريع السبي فأصبح دينا للشعوب، ومن هنا أصبحت جرائم الحرب أصلا تشريعيا في الإسلام كون الصحابة الكبار فعلوا ذلك!

ربما كان الأغلبية على صواب ولكن أبا بكرٍ أصر على موقفه لأن امتناع القبائل عن دفع الزكاة له هو خروج صريح عن سيادة دولته، وهذا ما لم يدركه باقي الصحابة. يقول ابن كثير نقلا عن الطبري" وقال القاسم ابن محمد :اجتمعت أسد وغطفان وطئ على طلحة الأسدي وبعثوا وفودا إلى المدينة فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم إلا العباس، فحملوا بهم إلى أبي بكر على أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة، فعزم الله لأبي بكرٍ على الحق وقال" لو منعوني عقالا لجاهدتهم" فردهم فرجعوا إلى عشائرهم."[٦] أي أن الناس قدمت وفودها إلى المدينة يسترضون أهلها وديا ويقدمون السلام، فقط أعلنوا رفضهم دفع الزكاة لأبي بكر، ولكن أبي بكر رفضهم وأعلن الحرب عليهم، وما كان مثل هذا سببا مبررا للحرب أبدا، ولا يجوز شرعا إعلان الحرب لجمع الزكاة أو لإكراه الناس على الصوم والصلاة..إلخ.

ربما كانت نقطة الخلاف هذه هي أخطر منعطف في تاريخ الدولة؛ ذلك لأن هناك نقاط لم يضعها أو بكر في الاعتبار، وهي أنه وإن كان أميرا على القوم، فالنبي لم يبدأ بحربٍ أبدا، ولم يشن

---

(٦)- ابن كثير المرجع السابق ص ٩/٤٤١

حربا هجومية في حياته أبدا، بل كانت رايته بيضاء دائما، وهناك فرق شاسع بين الضريبة التي أراد أبو بكر جمعها بقوة السلاح، وبين الزكاة التي فرضها الله على المؤمنين، لأن العبادات لا رقابة لبشر عليها وإنما الحساب والثواب عند الله، فلا يحق لأحد رقابة غيره في الصلاة والصوم والزكاة، ولكن في الواقع كان أبو بكر يمارس حكما سياسيا لا دينيا، ويجمع الضرائب بالقوة لا الزكاة، لكن الفقهاء جعلوا من شخصية خليفة العرب حاكما دينيا باسم الله وحصنوا قراراته بقداسة دينية أبد الدهر.

ومع ذلك نجد أبا بكرٍ يصرّ على رأيه ويوجه جيشه لحرب مانعي الزكاة، فينهزم جيشه عدة مرات، ثم يضع خالد الوليد على رأس الجيش الكبير بعد عودة جيش أسامة زيد، واستمر خالد الوليد في قتال القبائل إلا من استسلم له، ووقعت مجازر كثيرة وأخذ أسرى وغنائم، وتزوج خالد بفتاة من إحدى القبائل التي حاربها، واستمر حتى وصل إلى البطاح وعليها مالك نويرة، ملك الحيرة، وبرغم أن مالك لم يبادر بقتال بل حاول بشتى السبل تفادي المواجهة وأمر قومه بالتفرق في الصحارى منفردين حتى لا تحدث مواجهة مع جيش خالد، إلا أن خالد بث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل من لم يجب وإن امتنع أن يقتلوه وكان قد أوصاهم أبو بكر –وفقا لابن كثير- أن ((يؤذنوا إذا نزلوا منزلا فإن أذن القوم فكفوا عنهم وإن لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم عن الزكاة فإن أقروا فاقبلوا منهم وإن أبوا فقاتلوهم)). !!

بالطبع إن صحت هذه الرواية التاريخية، فستكون كارثة فعلية، بعيدا عن كل قيم ومبادئ الإسلام، بل هي بوادر العدوان على البشرية جمعاء، ولا أعتقد أبدا أن تكون هذه الرواية صحيحة بأي حال، ومع ذلك دعونا نتأملها سويا: فهي تقول؛ فإن أذن القوم فكفوا عنهم وإن لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا " ومعنى هذه العبارة أن الأمر غير متعلق بحق، وإنما فرض سيطرة على الجميع، وتعبيد للناس عنوة، فكيف إن لم يؤذن القوم أن يقتلوهم ؟ وكيف ينهبوا أموالهم؟ وبأي حق؟ فالله تعالى يقول: من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" ويقول " لا إكراه في الدين".. لكن الأمور بذلك انفلتت بعيدا جدا عن أي دين.

أما مالك نويرة، فأخذته سرية أبو قتادة أسيرا وحضروا به، وذبحه خالد ثم أمر خالد جنوده فوضعوا رأس مالك نويرة مع حجرين ووضع فوقهم قدرا للطبخ، يقول ابن كثير " وأمر برأسه فجُعل

مع حجرين وطبخ على الثلاثة قدرا فأكل منها خالد تلك الليلة ليرهب بذلك الأعراب من المرتدة وغيرهم.."[(٧)]

لم يكن ذلك إنسانيا بأي حال، وإن كان متوقعا من خالد، ولا متفقا مع ما فعله علي أبي طالب رضي الله عنه في موقعة الخندق أيام النبي عندما عبر إليه عمرو ابن هود، فاتجه عليَ نحو عمرو حتى وصل إليه، فقال له: (يا عمرو إنك كنت تقول: لا يدعوني أحد إلى ثلاث إلا قبلتها أو واحدة منها، قال: أجل، قال علي: إني أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن تسلم لرب العالمين. قال: يا ابن أخي أخر هذا عني، فقال علي: أما أنها خير لك لو أخذتها، ثم قال علي: ها هنا أخرى، قال عمرو: وما هي ؟ قال علي: ترجع من حيث أتيت، قال عمرو: لا، تحدث نساء قريش عني بذلك أبدا، فقال علي: ها هنا أخرى، قال: وما هي ؟ قال علي: أبارزك وتبارزني. فضحك عمرو وقال: إن هذه ما كنت توقعت أحدا من العرب يتجرأ ليطلبها مني، وأنا أكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك، وقد كان أبوك نديما لي، فقال علي: وأنا كذلك، ولكني أحب أن أقتلك ما دمت أبيا للحق. فحمى عمرو ونزل عن فرسه، قال جابر الأنصاري: وتجاولا وثارت بينهما فترة، وبقيا ساعة طويلة لم أرهما ولا سمعت لهما صوتا، ثم سمعنا التكبير فعلمنا أن عليا قد قتله، وسر النبي ﷺ سرورا عظيما لما سمع بمقتله، وكبر وسجد لله تعالى شكرا، وانكشف الغبار وعبر أصحاب عمرو الخندق، وانهزم باقي المشركين، فكانوا كما قال الله تعالى :(وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا) ثم أقبل علي نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل، فقال عمر الخطاب: هلا أسلبته درعه فليس للعرب درعا خيرا منها، فقال: ضربته فاتقاني بسوءته واستحييت ابن عمي أن أستلبه وخرجت خيله منهزمة حتى عبرت الخندق.

رفض علي أبي طالب أن ينزع عن الكافر المعتدي درعه لأنه صار في ذمة الله، برغم أنه هو من بدأ الهجوم، وحاول علي أن يثنيه عن القتال، بأن يؤمن بالله ورسوله أو أن يعود إلى حيث أتى، لكنه رفض وأصر فانتصر عليه علي ابن أبي طالب. بينما خالد الوليد بعث بسرية أحضرت مالك نويرة بخدعة أثناء الصلاة، حيث أعطى خالد تعليماته للسرية بأن يؤذنوا للصلاة، فإن أذن الناس، فيكون ذلك دليل على أنهم مسلمون، وإن لم يؤذنوا فيكون العكس، ودخلت السرية على منطقة الحيرة، فأمر مالك أهله بالتفرق حتى لا يستطيع أحد تعقبهم ومحاربتهم، وقيل أنه

(٧)ـ ابن كثير ـ البداية والنهاية ص ٩/٤٢٦

تحصن مع حراسه داخل حصنه، ودخلت السرية على مجموعة بها ملكهم مالك نويرة، ووضعوا أسلحتهم جانبا وقاموا لصلاة العشاء سويا مع سرية أبي قتادة، لكن أفراد السرية قاموا أثناء الصلاة بالقبض على مالك وأحضروه لخالد الوليد، فأمر بقطع رأسه وطها عليها طعامه وأكله لينشر الرعب في قلوب الناس من وحشيته، واستحل زوجته فأخذها لنفسه وهي أول جميلة أخذت أسيرة سبي واستحلها خالد لنفسه وزنا بها (الطبري وابن كثير).

هنا يبرز الفارق الشاسع ما بين واقعتين متشابهتين، في عصرين مختلفين، الإسلام في عهد النبي والإسلام في عهد العرب، الأولى وقعت في عهد النبي على يد علي أبي طالب حيث دعا خصمه وديا إلى الإسلام أو العودة إلى بلده، ولما رفض خصمه وأصر على القتال وانتصر عليه علي أبي طالب لم يمد يده على الدرع التي في يد خصمه أو خوذته، كان ذلك في حضرة الرسول، بينما بعد وفاة الرسول وفي عهد العرب، نجد خالد الوليد يقتل مالك نويرة وهو (مسلم أسير) مسلم يقول لا إله إلا الله، ومع ذلك قتله خالد، وأسير، ممنوع قتل الأسرى في الإسلام ومع ذلك قتله خالد، وأما المصيبة فهو لم ينزع عنه درعه وإنما مثل بجثته وانتهك زوجته أيضا.. يعني إجرام مركب معقد كعادة خالد وكل القومية العربية المريضة، وهذا من طبيعة العربي لا من مبادئ الإسلام، فخالد قد تصرف في هذا الموقف وفقا لفطرته ونشأته قبل الإسلام، فهو الوحيد الذي قتل الأسرى عامدا متعمدا وتبرأ منه رسول الله قبل ذلك. (والغريب أن المؤرخين العظام مثل ابن كثير والطبري يمرون على هذه النوعية من الإجرام المركب المعقد لكنهم لا يجرؤن على تحليل الحدث أو إبداء رأي بشأن هذا الحدث، وما إذا كان مشروعا أو غير مشروع.. جهادا من أجل الدين أم جريمة حرب.. الجميع يصمت صمت مريب.. ولكن كل هذا خوفا من الفقهاء الذين يفتخرون بهذه الأحداث ويعتبرونها بطولات ويضعون الصحابة في أيقونات ذات قدسية بمعزلٍ عن الانتقاد أو التقييم، مع أن الصحابة كمثل كل العظماء في التاريخ كانت أخطاءهم عظيمة، لكن مع صيرورة الصحابة آباء روحيين للشعوب فتقدست سلوكياتهم وتصرفاتهم وأصبحت نماذج مثالية للقدوة بغض النظر عن مدى مشروعيتها .

لم يرض الصحابة وأبو قتادة عما فعله خالد الوليد عندما قتل مالك ابن نويرة وزنا بامرأته بعد قتل زوجها، لأن من يهزم رغباته أفضل ممن يهزم أعداءه، فالانتصار على الذات هو الأصعب.. وحدثت مشادة بين خالد الوليد وأبي قتادة الأنصاري، ولم يرجع خالد عن أمره، فرفض أبو قتادة الاستمرار في الجيش تحت قيادة خالد الوليد وأقسم ألا يسير معه ثانية، وذهب أبو قتادة ومجموعته يشكون خالد

للخليفة أبي بكر الصديق وتضامن عمر الخطاب مع أبي قتادة ولم يرضه ما فعله خالد، وذهبا سويا للخليفة أبي بكر وقال له عمر: " أعزله فإن في سيفه رهقا، فقال أبو بكر: لا أشيمُ سيفا سله الله على الكفار"[(٨)]

ثم جاء أخو مالك ابن نويرة يشكو خالد للخليفة أبا بكر، وتضامن معه عمر ابن الخطاب وقال لأبي بكر: " إن في سيفه رهقا، قتل مالك ونزا على امرأته، يقول ابن كثير في صفحة ٩/٤٦٤ (والمقصود أن عمر ابن الخطاب لم يزل يحرّض الصديق ويزمره على عزل خالد عن الإمرة ويقول: إن في سيفه لرهقا، قتل مالكا ونزا على امرأته حتى بعث الصديق لخالد ابن الوليد وقدم عليه المدينة وقد لبس عليه درعه التي من حديد، قد صدئ من كثرة الدماء، وغرز في عمامته النشاب المخضب بالدماء، فلما دخل المسجد قام إليه عمر ابن الخطاب، فانتزع الأسهم من عمامة خالد فحطمها وقال: أرياءً قتلت امرأ مسلما ونزوت على امرأته؟ والله لأرجمنك بأحجارك". ثم دخل على أبي بكرٍ واعتذر له عما فعله بمالك وامرأته فعذره الصديق واستمر في قيادة الجيش، وخرج خالد شامتا في عمر ابن الخطاب وناداه باسم أمه قائلا: هلمَ إليَ يا ابن أم سلمة. فلم يرد عليه عمر وعرف أن أبا بكرٍ قد رضي عنه فيما فعله".

الفارق بين واقعة علي ابن أبي طالب مع عمرو ابن هود، وواقعة خالد الوليد مع مالك نويرة، أن الأولى كانت في عهد النبي وتحت إشرافه، بينما الثانية وقعت بعد رحيله وانحراف المسار العربي عن مبادئ الإسلام. فالإسلام يحفظ حقوق الإنسان سواء مسلما أو كافرا، ولا يمكن أن يصرح لأحد بالاعتداء على امرأة سواء كانت زوجة لمسلم أو كافر أو لم تكن، والحرب في الإسلام دفاعية وليست هجومية بأي حال، والإسلام لا يأمر بالخديعة التي تم بها القبض على مالك أثناء الصلاة، وقتله بهذه الطريقة البشعة واغتصاب امرأته. والفارق بين الواقعتين يجسد حجم الانحراف الإنساني الذي حدث للعرب بعد رحيل النبي عنهم. ولا ينبغي لنا تبرير خطأ وقع من صحابي أيا كان على حساب الدين، ولا ينبغي أن نذكي أحدا على الله، فكل ابن آدم خطاء، وخير الخطاءين التوابون... فالزكاة ركنٌ من أركان الدين، والدين لله، هو من يحاسبنا عليه، وليس لبشر وصاية أو رقابة بين العبد وربه، فهل يُعتبر الدين دينًا قيّمًا إذا كان يمارَس لا عن رغبة وتطوع بل جبرًا وقسرًا ! إن زكاة يجمعها سيف خالد الوليد وأمثاله، يرفضها الله..

---

(٨)ـ ابن كثير – كتاب البداية والنهاية ص ٩/٤٢٦

والكارثة الكبرى في حروب الردة هذه أن عادت ظاهرة السبي مرة أخرى، وهي خطف المدنيين من النساء والأطفال ونهب الأموال، والإغارة على البيوت والمساكن بهمجية ووحشية، وتشريد الأسر وبيعهم في أسواق النخاسة، فالنبي عليه السلام لم يكن ليسمح بذلك أبدا، لأن حروبه لم تكن تتجاوز الصحارى المفتوحة ولم يدخل مجتمعا مدنيا قط كي يتمكن أحد من الأطفال والنساء، لكن العرب بعد وفاة الرسول اندمجت عاداتهم الجاهلية وعادت طباعهم تغالبهم فمارسوا القتل والإغارة والسبي والسلب والنهب وقتل الأسرى من جديد، وكانت هذه الظواهر قد اختفت في عهد الرسول لكنها عادت مرة أخرى. فلما قدم متمم ابن نويرة إلى أبي بكر يطلب بدم أخيه ويسأله أن يرد عليهم سبيهم فأمر أبو بكر برد السبي ودفع فدية مالك من بيت المال. أي أن أبي بكر دفع الدية لأهل القتيل مالك نويرة وهو ما يؤكد أنه كان مسلما حينما قتله خالد، والكارثة هي أن أبي بكر رد السبايا مع الدية وهذا ما يعني أن خالد خطف نساء مسلمات وأخذهم سبايا !! فردهم أبي بكر، وكان جيش العرب بقيادة خالد قد أحضر سبايا أخريات من قبائل أخرى، ولكن عمر ابن الخطاب ردهم لأهلهم مرة أخرى.. فطبيعة خالد الحربية أنه كان يقفز بالجيش داخل المدن والقرى السكنية ويروع الأهالي ويخطف الأطفال والنساء والبنات.. وهذه كارثة غير إنسانية عادت من تقاليد العرب الجاهلية بعد وفاة الرسول، فقد ورد أثر في جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر برقم١٨٣٧ في مناظرة عمر بن عبد العزيز مع الخوارج يذكر فيه عمر بن عبد العزيز أن أبا بكر سبى نساء وذرية المرتدين ثم ردهن عمر على عشائرهم وهذا ما يؤكد عودة ظواهر الجاهلية مرة أخرى بعد وفاة الرسول عليه السلام.. أو هكذا كتب التاريخ.

لكن الكارثة الأبشع في التاريخ العربي، هي أن يأتي الفقهاء ليشرعوا هذه الجرائم ويضعوا لها أحكاما دينية ! بل إن الفقهاء يحتجون بالحكاية والرواية فيما فعله الصحابة ويعتبرونه حجة قوية بل قد يكون إجماعا منهم، وأثيرت الكثير من المسائل الفقهية الخبلية بهذا الشأن، حول ما إذا كان يجوز سبي المرأة المرتدة أو قتلها أو إكراهها على الدين، أو فقط جوزا سبي الكافرة ! وقيل في مذهب مالك أن المرأة تحبس وتكره على الإسلام ولا تقتل وقد أورد هذا القاضي عياض في الشفا.

وقيل أن هذه الأسئلة إنما ترد فقط على مذهب أبي حنيفة لأن الأئمة الثلاثة لا يجيزون سبي المرتدات، ولا يقبلون منهن إلا الإسلام أو القتل!، ومذهب أبي حنيفة في المرتدة منوط بالدار ككثير من فروع مذهبه في أحكام الأموال والدماء، فهي عنده تحبس وتجبر على الإسلام في دار

الإسلام !، وتسبى وتجبر على الإسلام في دار الحرب!!، لأن دار الإسلام ليست بدار استرقاق، أما الرجال المرتدون فإنه يعاملهم معاملة مشركي العرب فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل، ولا يقبل منهم استرقاقا ولا جزية ! وقيل أن مرويات سبي نساء بني حنيفة (خلال حرب الردة) يعتمد عليها الحنفية في الاحتجاج لمذهبهم !، وقد نقلها الزيلعي في نص الراية عن كتاب الردة للواقدي . هكذا استمر الفقهاء في اجترار ذكريات التاريخ والاحتفال بها والفتوى استرشادا بها، دون النظر في هذه الوقائع الإجرامية، وما إذا كانت حلال أم حرام، هم تلقوا الحكايات والروايات البطولية للصحابة الكرام، عشقوها لمجرد كونها حكايات الصحابة، وسلموا ابتداء بأن ما فعله الصحابة هو من هدي رسول الله، ولم يضع الفقهاء في الاعتبار التقلبات الفكرية والنفسية للبشر، أو أن القومية العربية ليست بشر عاديين أصلا، واستندوا إلى مسلمة جعلوها مطلقة، وهي كون الصحابة قد عاصروا الرسول ونزول الوحي فهم أكثر الناس فهما له ولمبادئه، وتجاهلوا أن معظم هؤلاء الصحابة قتلوا بعضهم بعضا فيما بعد.!

لكن خالد استمر في حربه حتى انتهى من إخضاع هذه القبائل العربية لسلطان الدولة، وانتقل مباشرة إلى العراق بذات فلسفته العسكرية البحتة (الهجوم ـ القتل ـ التمثيل بالجثث ـ قتل الأسرى ـ خطف النساء والأطفال والبنات واغتصابهن واستعبادهن وبيعهن في أسواق النخاسة.. ضمن مرحلة جديدة لنشر الإسلام، قيل أنها بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة!).

فخالد الوليد بشخصه لم يكن رجل دين ولا يمثل سلوكه الدين الإسلامي بأي حال، هو يصلح فقط أن يكون ضابطا بالجيش على رتبة مارشال، هو رجل حربي لا شيء يشغل عقله سوى فنون الحرب والفروسية والقتال، قعقعة السيوف والرماح والنبال والدماء والغبار في الصحارى.. تربى على الفروسية القرشية اثنين وخمسين عاما، وعاش الإسلام فقط عامين تكررت أخطاءه فيهما ولم يكن منضبطا ولا خلوقا في سلوكه وفكره، ولا يختلف عن هولاكو أو هتلر، ولا حد له في دماء وأعراض الناس سوى ما يرضي شهوته من الاثنين.. وكان من الخطأ الفادح أن يتولى مثل هذا الجنرال الحربي مهمة نشر دين، أو حتى حمايته لأن في سيفه عنف وقسوة كما قال عمر الخطاب، هذا الرجل المتعطش للدماء ما كان له أن يتكلم باسم الدين، وأتعجب كثيرا كيف يتخذه المسلمون قدوة حسنة في نشر الإسلام بعد ذلك. يقولون بأنه جهاد في سبيل الله، وما هكذا جاهد رسول الله، كان رسول الله قرآنا يمشي على الأرض، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.. وإن كان يجوز لعرب الحجاز أن يفتخروا بخالد الوليد باعتباره بطلا حربيا لا

أميرا للدعوة، فالعرب بطبيعتهم يأنفون الهدوء ويعشقون الحرب والقتل والدم والفروسية، والفخر والرياء، حتى في أشعارهم لا نجد أكثر غزارة من الفروسية والهجاء والفخر، فالعظماء يتواضعون، والوضعاء يتعاظمون، هذه معادلة نفسية أبدية للبشر، وخالد يناسب ميول العرب النفسية والاجتماعية ولا يناسب الدين الإسلامي بأي حال، فالدين الإسلامي دين السلام وليس دين الفجر والفخر والفروسية، لكن العرب بدهائهم قدسوا حكاياتهم التاريخية حتى اندمجت في التراث الديني وصارت جزءا عقائديا فيه.!

إن خليفة العرب أبا بكر تعامل مع الموقف بنظرية الحكم والسيادة التي كانت سائدة في المجتمعات العربية وقتها، وجد أطراف دولته قد انحلت وأراد إعادتها إلي عصمته بالقوة، وربما أنه كان يعي جيدا طبيعة العرب وأنهم شعب لا يلين ولن يستجيب لفكرة توحيد الحكم ويأنف الخضوع لنظام حكم مركزي، فالعرب ليسوا من شعوب الحضارات التي تستوطن حول الأنهار وفي السهوب وتنهمك في العمل والبناء والإنتاج، فكل واحد فيهم هو حاكم نفسه، ولذلك قرر أبو بكر تأسيس دولة (نظام حكم مركزي- سلطة عامة – جيش نظامي- خزانة عامة) اضطر لتوحيد العرب بالقوة. وفي المجمل كانت أخطاء أبي بكر سياسية ولا علاقة لها بالدين، وهو ذاته كان على وعي وإدراك أنه يحكم العرب بصفته حاكم سياسي وليس وليا من أولياء الله، ولذلك تعامل مع المجتمع العربي وفقا للطبيعة والظروف السياسية والعسكرية ولم يذيل قراراته باسم الله كما فعل معاوية فيما بعد، ولم يحصنها بقداسة دينية، ولذلك نقول أن أخطاءه سياسية وليست دينية، أما خالد الوليد فكانت أخطاءه جنائية بحتة. ولم يكن الأمر عقابا لمن ترك الدين أبدا.. لأن الله أراد بمشيئته وضع البشر في خانة الاختيار ليبتليهم ويزلزل عقولهم ويجعلهم ينتقلون من الشرك إلي الضلال بمحض إرادتهم، لا أن يتم قتلهم.. ومجرد طرح فكرة التخيير ما بين الإسلام أو القتل لهو نوع من الخبل العقلي وضيق الأفق، فالذين قالوا بذلك لم يدركوا في الواقع أن هذا الاختيار يصنع صفوفا خلفية من المنافقين الممتلئة قلوبهم بالحقد نتيجة إجبارهم علي اعتناق دين لم يرغبوه تفاديا للقتل .. لكن العرب كانت أفقهم الفكرية أضيق من أن يستوعبوا ذلك ..

٣ـ انتقال الخلافة

ما يؤكد على انحراف مسار المجتمع العربي بعد وفاة النبي عليه السلام هو الطريقة التي تم بها تعيين عمر الخطاب خليفة على المسلمين بعد وفاة أبا بكر؛ ذلك لأن الله جل وعلا قال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ ٣٨/الشورى، وكذلك لم نجد النبي عليه السلام يستقل شخصيا بأمرٍ يخص المسلمين عامة، بل كان يستشير من حوله ويأخذ بأفضل الآراء مثلما حدث عند تحديد موقع معركة بدر وما حدث عند اتخاذ قرار حفر الخندق حول المدينة والتمترس خلفه لصد عدوان قريش. وحيث قام، وفقا لما ذكره المؤرخون، أ أبا بكرٍ قام باختيار وتعيين عمر الخطاب خليفة له قبل وفاته مباشرة، وأخذ عثمان عفان ورقة التفويض وقرأها على المسلمين ليبايعوه، وهذا في حد ذاته لا يعتبر بيعة ولا تفويض لأنه أمر محتوم مسبقا ولا خيار فيه، وهو خطأ سياسي محض، وكان يتوجب على عمر أن يلغي ورقة التفويض من أبي بكر ويطرح الأمر مشاعا على الجميع كما تقتضي مبادئ الإسلام، لكنهم ربما تركوا الإسلام جانبا وتعاملوا مع المجتمع العربي وفق ظروفه السياسية والعسكرية وأعرافه السائدة، فإن كان كذلك، فهذا شأن العرب وتاريخهم لا تاريخ الإسلام.

رحل أبو بكر وترك الوصية لعمر الخطاب أن يتولى الحكم من بعده.. استمر عشر سنوات كانت الأفضل والأكثر هدوؤا ورقيا وعدلا في تاريخ العرب.. حدّ من حركة التوسع الاستعماري ورفض فكرة نشر الدين بقوة الجيوش.. نشر العدل والتسامح حتى لقبه المؤرخون بـ"الفاروق عمر" لأنه نشر العدل في البلاد وفرق بين الحق والباطل.. حتى وإن اتخذ بعض المؤرخين ملحوظات على عمر الخطاب أنه أقام العدل فقط في دولة العرب دون الشعوب الأعجمية التي سيطر عليها.. أقام العدل بين العرب وترك ظلمهم على غيرهم، لكن منذ متى كان العرب يقيمون العدل بينهم أصلا كي نحاسب عمر على أنه لم يقم العدل في أهل البلاد المفتوحة؟ وحرص عمر الخطاب على أن يلتزم العرب الزهد والتقشف خشية أن تجرفهم حياة الترف التي عاشها المسلمون في المدن المفتوحة، ومنع الصحابة من امتلاك الضياع خارج الحجاز.. كان حاكما شاكما لهم.

ولكن بعد مقتل عمر الخطاب جاء عثمان عفان وسمح للصحابة بالخروج إلى البلدان المجاورة المفتوحة، فامتلكوا الضياع وشيدوا القصور وعادت حركة الفتوحات والتوسع الاستعماري والنهب والسلب وتكنيز ثروات الشعوب المجاورة بمسمى الجزية والخراج وغيره من

المسميات الشرعية ذات الرونق، وظهرت بالتالي طبقة أرستقراطية ذات قداسة دينية، وصار صحابة الرسول عليه السلام طبقة أنيقة في مأكلها وملبسها، في حين زاد عدد العبيد الذين تم خطفهم من البلاد المفتوحة لدرجة أن بخس سعرهم في أسواق النخاسة، وبدأ عصر الفساد السياسي في عهد الخليفة عثمان عفان، حيث عزل الولاة والحكام الذين عينهم أبو بكر ووضع مكانهم من أهله وعشيرته وأقاربه حتى الفاسدين منهم والمطاريد، واستاء الناس كذلك لعزل الولاة القدامى من أيام عمر الخطاب، وتولية آخرين، وأساءوا السيرة في هذا الأمر وتجاوزوا الحدود. ففي البداية عزل سعد أبي وقاص عن الكوفة سنة ٢٤هـ/ ٦٤٥م، وعين مكانه الوليد عقبة وهو أموي من الطلقاء وأخ لعثمان من أمه. وفي السنة التالية عزل عمرو العاص عن إيجبت، وولى مكانه عبد الله أبي السرح، وهو أموي أيضا وابن عم لعثمان وأخ له في الرضاعة.

وفي سنة ٢٩هـ/ ٦٤٩م عزل أبا موسى الأشعري عن ولاية البصرة وعزل عثمان أبي العاص عن فارس وجمع ذلك لعبد الله عامر، وهو شاب أموي كان في الخامسة والعشرين من عمره. وزد على ذلك أن عثمان آوى إليه عمه الحكم العاص «طريد الرسول»(كان النبي عليه السلام قد نفاه إلى الطائف لأنه كان يهزأ من النبي حتى بعد إسلامه، ولم يجرؤ على العودة في عهدي أبي بكر وعمر، وقد أعاده عثمان بل وعينه جابيا لصدقات قضاعة) وابن عمه مروان الحكم وعينه أمينا لسره، وسلمه خاتم الخليفة، وزوجه ابنته. واتهم البعض عثمان بأنه لم يقتد بأبي بكر وعمر في سياستهما التقشفية، ولذا كانوا حين يجادلونه يقولون له «بدلت وغيرت» وكانوا يلقبونه بـ«نعثل» أي «الشيخ الأحمق». ومما أخذ عليه أيضا أنه شدَّ أسنانه بالذهب، وكان يأكل ألين الطعام. وبالطبع اتهم كذلك بأنه يحابي أقاربه من بني أمية ويتعاطف معهم. وقيل في ذلك إنه كتب لابن عمه مروان الحكم – وزوج ابنته – بخمس خمس الغنائم التي غنمها المسلمون في سبيطلة بشمال إفريقية (سنة ٢٧هـ/ ٦٤٨م)، وأنه أمر بستمائة ألف درهم لعبد الله خالد عندما تزوج ابنته.

وقيل إنه أمر بضرب عمار ياسر عندما انتقد سياسته تلك، كما أساء إلى عبد الله مسعود وضابئ الحارث البرجمي، وكان ابنه أحد قتلة عثمان. أما في موضوع أبي ذر فالأرجح أنه طلب العزلة، وأن عثمان استجاب لطلبه ولم ينفه. و رُوي على سبيل المثال أن رجلا تعرض لعثمان سائلا إياه: «لم اختلف الناس عليك ولم يختلفوا على الشيخين؟». فأجابه عثمان: «كان الشيخان أميرين على مثلي، وأنا أمير على مثلك». وفي النهاية عندما أجمع له الناس وطالبوا بعزله قال لهم:" لن

أخلع رداءً سربلنيه الله". [٩] أي أنه يرى أن الخلافة كانت هدية له من الله، ولن يتنازل عنها، ولم يتذكر أن الله تعالى قال في كتابه العزيز " وأمركم شورى بينكم"، وكل ما ذكره وكان محقا. هو أنهم لو قتلوه ستحدث فتنة، رفض التنازل عن الحكم سلميا برغم اعترافه بالفساد ووعدهم بالإصلاح لكنهم كانوا قد فقدوا فيه الثقة لكثرة وعوده دون تنفيذ، ورفض الاستقالة لحل الأمر وديا وتمسك بالسلطة، وحزرهم من قتله حتى لا تقع الفتنة، برغم أنه لو استقال فلن تقع الفتنة، واستدعى الجيش من دمشق لحصارهم فعاجلوا بقتله، وأما سبب الفتنة التي توقع عثمان حدوثها هو أنه مكن عائلته من الحكم والسلطة والمال، وليس من السهل سحب البساط من تحت أقدامهم وتجريدهم من هذا الملك، كان قد زرع أبناء عمومته وعشيرته في أركان السلطة فثاروا للحفاظ على مكتسباتهم ومن هنا كانت الفتنة.

هكذا كانت طبيعة المجتمع العربي سريع الغضب سريع الفتنة والاقتتال.. بينما جدنا الملك الجبتي القديم «خيتي» يبين لنا من خلال وصاياه لابنه؛ كيف أن العالِم الحقيقي هو الشخص الذي يمتلك أخلاقا سامية؛ فهو لا يضر الآخرين ولا يؤذيهم، فيقول:

" إن الرجل الفطِن لا يُهاجمه أهل العلم؛ وهو بفطنته وحسن بصيرته يستطيع أن يتجنب المصاعب فلا يصيبه الضرر ولا يلحق به الأذى".

رحل عثمان ولم يتمكنوا من دفنه في مقابر الصحابة، فحملوا جثته بعدما تعفنت ليلا على باب بيته وانطلقوا به خلسة في الصحراء حتى لا يهجم عليهم الناس ودفنوه في مكانٍ بعيد إذ لم يتمكنوا من وصول المقابر.. وتولى علي أبي طالب السلطة، فطالبه معاوية بثأر عثمان.. طلب علي تأجيل الأمر ربما لاستقرار الظروف السياسية والعسكرية، لكن أقارب عثمان والمنتفعين من سلطته أقاموا الدنيا ولم يقعدوها.. فتأهب الفريقين للقتال.. وقعت أحداث معركة صِفّين، وقد قيل إنّ عدد الجنود في جيش علي مئة وعشرين ألفا، ومعاوية تسعين ألفا.. انتهت المعركة بسقوط عدد من القتلى، إذ قتل سبعون ألفا من الفريقين في هذه المعركة، فقتل من جيش علي

---

٩ ـ قارن الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٤٢٤/٤. وحسن إبراهيم: «النظم الإسلامية»، ص٣٩.

[٢] قارن الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٤٢٤/٤، وابن كثير: «البداية والنهاية»، ج٧، ص١٤٧.

[٣] قارن الطبري: السابق، والسيد عبد العزيز سالم: «تاريخ الدولة العربية»، ص٥٤٩.

[٤] راجع مقدمة حسين مؤنس لتحقيق كتاب «النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم».

[٥] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج١، ص ٢٠٩.

خمسة وعشرون صحابيا بدريا، ومنهم الصحابيَ عمار ياسر، وقد قاتل جيش علي بقوة هائلة، حتى تمكنوا من التضييق على جيش معاوية، وبعد ذلك رفع جيش معاوية المصاحف على أسنة الرماح، وقالوا: (رضينا بكتاب الله تعالى)، ولذا توقف جيش علي عن القتال، وقال علي: (كلمة حق أريد بها باطل).. وانتهت الحرب بالصلح بين الطرفين، هذا الصلح كان خدعة خبيثة دبرها عمرو ابن العاص.

٣ـ خلافة بني أمية

في عام ٤٠ هج قتل علي أبي طالب علي يد عبد الرحمن ملجم من الخوارج، و هو يدخل مسجد الكوفة ليصلي الفجر. وخلفه ابنه الحسن الذي تخلي عن البيعة لمعاوية أبي سفيان سنة ٤١ هج حقنا لدماء المسلمين. وبذلك اجتمعت الخلافة والبيعة لمعاوية أبي سفيان من كل المسلمين. وحول معاوية الخلافة من نظام الشورى والبيعة إلي نظام الملك والوراثة، واستخلف ابنه يزيد قبل وفاته. وفي عهد يزيد معاوية، ظهرت المعارضة لملك الأمويين، وتزعمها الحسين علي رضي الله عنهما الذي رفض أن يبايع ليزيد، وصار إلي الكوفة بعد أن دعاه أهلها لينقضوا بيعة يزيد. ولكن جيش يزيد اعترض أتباع الحسين وتقابلوا في موقعة كربلاء عام ٦١ هج/ ٦٨٠ م التي انتهت بمقتل الحسين علي و فناء جيشه وإخماد معارضة آل البيت.

ولكن ما لبث أن ظهر معارض جديد لملك بني أمية وهو عبد الله الزبير الذي أخذ البيعة لنفسه وبايعته كثير من الأمصار، فأرسل يزيد معاوية جيشا يحاصر مكة التي اعتصم بها عبد الله الزبير. وفي تلك الأثناء، توفي يزيد وتخلي ابنه معاوية عن الملك طواعية، فوثب علي الخلافة مروان الحكم من بيت الأمويين، وثار خلاف شديد بينه وبين عبد الله الزبير، راح مروان يبني كعبة بالشام غير كعبة مكة وجعل الناس يحجون إليها ويعتمرون ويذبون الأضاحي عندها وهي قبة الصخرة الآن، واستطاع أن ينتزع الأمصار الإسلامية من ولاة عبد الله الزبير، وهزم جيش عبد الله الزبير في موقعة مرج راهط عام ٦٤ هج/ ٦٨٤م، و قبض علي عبد الله وقتله، وبذلك توطدت أركان ملك بني أمية في بيت مروان بن الحكم و أولاده[١٠]. واستمر حكم الأمويين ما يقارب التسعين عاما توارثا جيلا بعد جيل، لم يشهد أي تطورات في البنية الحضارية للدولة سوى مزيد من التوسعات الاستعمارية في الشرق والغرب.

استمر الانقسام الذي أصاب الخلافة الإسلامية والذي بدأ في عهد الخليفة أبي بكر بين المناصرين لعلي أبي طالب وآل البيت وهم الشيعة، والمناصرين لمعاوية أبي سفيان وبني أمية من بعده. هذا الانقسام الذي أدي إلي قيام حروب بين الفريقين بدأت بموقعة الجمل بين علي وطلعة

---

١٠ ـ نقلا عن مقال بعنوان: الخلافة الأموية ، منشور بتاريخ ١ مايو ٢٠١١ على موقع تاريخ مصر على الرابط التالي:
http://egypthistory.net/2011

والزبير وعائشة، ثم موقعة صفين عام ٣٧ هـ بين علي ومعاوية، وبعد مقتل علي أبي طالب في الكوفة، اشتدت قسوة الأمويين علي كل من ناصر عليا والحسين من بعده. وتعد موقعة كربلاء التي قتل فيها الحسين شاهدا علي ذلك فقد قطعت رأس الحسين سبط رسول الله صلي الله عليه وسلم و أرسلت إلي يزيد معاوية في دمشق. كما قام الأمويون بالتنكيل بعبد الله الزبير وآل بيته حتى أنهم لم يتورعوا عن مهاجمة مكة المكرمة و ضربها بالمجانق، أي أن العرب هدموا بيت الله الحرام من أجل السياسة، فلا نعيب على الصحابة الكبار إذ تركوا جثة نبيهم تتعفن على سريره ثلاثة أيام لانشغالهم بالسياسة لأن القومية العربية برمتها تعاني من عاهة مستديمة.

و الحقيقة أن البطش الشديد الذي مارسه الأمويون للقضاء علي ثورات المناصرين لعلي والحسين وتنكيلهم بآل البيت قد أوغر صدور الكثيرين ضدهم. هذا بالإضافة إلي تعصب الأمويين ضد كل من هو ليس بعربي مما أهاج أهل فارس وخرسان ودفعهم للانضمام للدعوة الشيعية ليس مناصرة لآل البيت، وإنما نكاية في الأمويين ورغبة في الانتقام منهم لأنهم كانوا عنصريين بدرجة رهيبة في الوقت الذي اشتعلت على يدهم حركة الفتوحات التي قيل لنا بأنها كانت لنشر الدين !..

تحولت الدعوة الشيعية ضد الأمويين إلي دعوة سرية كوسيلة لنشر أفكارهم و حماية أنفسهم من بطش بني أمية. ولكن علي الرغم من ذلك علم الخليفة الأموي سليمان عبد الملك بأن زعيم الشيعة في ذلك الوقت هو أبو هاشم محمد علي أبي طالب. فدعاه إلي قصره ذات يوم وقدم له طعاما مسموما. وعندما غادر أبو هاشم قصر الخليفة شعر بالسم يسري في جسده، فسارع بالذهاب إلي قرية الحميمة جنوب الشام، وكانت المركز السري للشيعة، وهناك التقي بمحمد علي عبد الله العباس وأطلعه علي التنظيم السري للشيعة ليتولي هو الدعوة إليه وتجميع صفوفه لمحاربة الأمويين. ومن ذلك الوقت بدأ بنو العباس في العمل علي استخدام الدعوة الشيعية لتجميع الناس حولهم وتقويض ملك بني أمية الذي اعتمد علي العصبية العربية والقسوة في معظم المناطق غير العربية. لذلك وجدت الدعوة الشيعية التي حمل لواءها بنو العباس صدي في بلاد فارس وخرسان.

ونودي بأبي العباس عبد الله محمد علي عبد الله العباس أميرا لـ(المؤمنين) لدولة بني العباس.

حمل لواء دعوة العباسيين في خراسان أبو مسلم الخرساني الذي أخذ يطوف بسكان خرسان يدعوهم للثورة ضد الحكم الأموي. فاستطاع في خلال أربع سنوات أن يجمع القبائل الفارسية والعجمية حوله. وفي شوال ١٢٩ ه. أصبحت الدعوة العباسية علنية فرفعت الرايات السوداء رمزا للعباسيين. واستطاع أبو مسلم الخرساني أن يخضع خرسان كلها تحت حكمه. وبذلك وضع اللبنة الأولي للدولة العباسية. وفي عام ١٣٢ هـ أرسل أبو مسلم الخرساني جيشا بقيادة قحطبة شيب إلي العراق فاستطاع هزيمة الأمويين وضم العراق لدولة بني العباس الوليدة. وبذلك تهيأ العباسيون للانقضاض علي مقر الخلافة الأموية في دمشق، فجهز خليفة العباسيين جيشا كبيرا من ٣٠٠ ألف رجل من بلاد فارس علي رأسهم عبد الله علي، وأعد الخليفة الأموي مروان محمد جيشا كبيرا من ١٢٠ ألف رجل لملاقاة جيش العباسيين، والتقي الجيشان في موقعة نهر الزاب في شمال العراق. استمرت الموقعة يومان وانتصر العباسيون انتصارا ساحقا وفر الخليفة الأموي إلي دمشق، وفر عبد الرحمن معاوية هشام (عبد الرحمن الداخل أو صقر قريش) إلي المغرب ومنها إلي الأندلس حيث أسس الخلافة الأموية الزاهرة في الأندلس والتي شهدت ذروة ازدهار الدولة العربية هناك.

طارد جيش العباسيين بقيادة عبد الله علي فلول جيش الأمويين وخليفتهم مروان محمد الذي لجأ إلي دمشق. فضرب العباسيون حصارا علي المدينة استمر عدة أيام ثم دخلها جيش العباسيين وتتبع قادة الدولة الأموية وقتلهم جميعا. فهرب مروان محمد إلي مصر. فتبعه جيش العباسيين حتى أوقعوا به في بلدة بوصير في الفيوم فقتلوه وقطعوا رأسه وأرسلوها إلي خليفتهم أبي العباس، الذي سمي في التاريخ بأبي العباس السفاح لبطشه ببني أمية وقتله عدد هائل منهم. حتى أن قبور بني أمية لم تسلم من بطشه فقام بنبشها و إحراقها وعلي رأسهم قبر معاوية أبي سفيان. وبذلك انتهت دولة بني أمية التي استمرت قرابة مائة عام، لم يكن بينهم حاكم صالح سوى عمر العزيز الذي تولى الخلافة عامين ونصف فقط ثم أسرعت عائلته بقتله لأنه لم يسمح لهم بتحقيق أطماعهم من السلطة...

٤ـ خلافة العباسيين

في مسلسل الدم العربي العباسي، نشاهد فقط أربع سنوات منه في مقال للأستاذ أحمد صبحي منصور؛ بعنوان (مسلسل الدم في خلافة السفاح العباسي (١٣٢ـ١٣٦هـ)[١١]

١ـ في معسكر :(دار السلام / الخلافة القرشية) دمر العباسيون دولة أبناء عمومتهم الأمويين. وكان السفاح هو لقب أول خليفة عباسي، وخلال السنوات الأربع التي حكمها هذا السفاح بلغ عدد القتلى رقما مهولا يمكن تصوره من التمعن في هذا المقال. وتوزع القتلى بين معسكر (دار السلام) ومعسكر (دار الحرب). هذا مع قيام الدولة العباسية على دعوة دينية، صنعوا من أجلها أحاديث (نبوية) تبشر مقدما بخلفائهم واستمرار الخلافة العباسية إلى قيام الساعة. ولم يتورع ابن الجوزى (في المنتظم) وابن كثير (في البداية والنهاية) والسيوطي (في تاريخ الخلفاء) من ترديد تلك الأحاديث.

٢ـ انتهى موضوع حصار القسطنطينية من الأجندة العباسية، وتحول الصراع إلى معارك مستمرة على التخوم بين (دار السلام) و (دار الحرب). وفى العصر العباسي الأول كانت الغلبة للعباسيين، ثم تحول إلى صالح البيزنطيين في العصر العباسي الثاني.

٣ـ تحول مركز الخلافة العباسية إلى العراق، وإسهام الفُرس في تأسيسها جعل العباسيين يولون وجوههم أكثر شطر آسيا حتى ضاعت منهم الأندلس ثم المغرب، ثم تونس.. وجعلهم يتشبهون بالأكاسرة ويتأثرون أكثر بالثقافة الفارسية. ومن الطبيعي أن يظهر هذا أكثر بعد مرحلة التأسيس والتوطيد، أي بعد انقضاء خلافة السفاح وأبى جعفر المنصور.

٤ـ في مرحلة التأسيس والتوطيد تفوق العباسيون على بني عمومتهم الأمويين في القسوة والوحشية في تعاملهم مع الثائرين عليهم، حتى لو كان من العلويين الهاشميين. وتفوقوا عليهم في نكث العهود والتخلص من أقرب أتباعهم لينفرد الخليفة بالسلطة. ووصل الصراع مبكرا إلى داخل البيت العباسي في خلافة أبى جعفر المنصور.

١١ـ د. أحمد صبحي منصور- مقال بعنوان " مسلسل الدم في خلافة السفاح العباسي (١٣٢ ـ ١٣٦) " منشور في الإثنين ٢٥ ابريل ٢٠١٦ م على مواقع أهل القرآن

رابط: http://www.ahl-alquran.com/arabic/printpage.php?doc_type=1&doc_id=14682

٥ـ كان شعار العباسيين السواد، جعلوا أعلامهم سوداء حزنا على من قتلهم الأمويون من الهاشميين، لذا كان يطلق عليهم وعلى جيوشهم (المسودة). وفى المقابل كان من يثور عليهم يرفع راية بيضاء، ويقال عنه إنه (بيّض) أي رفع البياض ثائرا على (المسودة)...

ونعطى بعض التفاصيل في خلافة السفاح العباسي، حسب تتابع السنين: عام ١٣٢ هـ سقوط الدولة الأموية:

١ـ في هذا العام تقلبت الأحوال بقواد مروان بن محمد بعد هزيمته ومقتله، منهم من رفع البياض (بيّض) متحديا العباسيين، فانهزم، ومنهم من انضم للعباسيين، ثم عاد وثار عليهم، ونفس الحال مع بعض المدن في الشام وهى مركز الأمويين وشيعتهم. خاف حبيب بن مرة المرى من انتقام العباسيين ـ وكان من قواد مروان، فثار عليهم واتبعته بعض من قبائل قيس وغيرهم، فحاربه القائد عبد الله بن على العباسي، ثم صالحه ليتفرغ لقتال أبى الورد الكلابى وأهل دمشق.

أبو الورد الكلابى كان من قواد مروان، وقد بايع للعباسيين، ثم انقلب عليهم ورفع الشعار الأبيض وانضمت إليه مدينة قنسرين، ثم مدينة دمشق وقام أهلها بقتال الوالي العباسي (وقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة)، وانضم إلى أبى الورد أهالي حمص وتدمر، وقادهم حفيد لمعاوية بن أبى سفيان جعلوه (السفيانى المنتظر)! وهزموا القائد العباسي عبد الصمد بن على وقتلوا ألوفا من جيشه، فهرب إلى أخيه عبد الله بن على. وتولى قتالهم عبد الله بن على بنفسه، فهزمهم وبايعوه، ثم تحرك نحو دمشق فهرب معظم أهلها، فدخلها بلا قتال، وبايعه من فيها. وخلع أهل الجزية الخليفة السفاح ورفعوا الراية البيضاء (راية الثورة) وتمكن أبو جعفر (الذي تولى الخلافة باسم المنصور) من إخضاعهم بعد عدة معارك.

٢ـ كان يزيد بن هبيرة والى العراق لمروان، وقبل هزيمة مروان في موقعة الزاب ــ انهزم ابن هبيرة أمام قحطبة بن شبيب القائد العباسي فانسحب إلى واسط وتحصن بها ومعه خزائن الأموال. ثم بعث الداعية العباسي أبو سلمة الخلال بجيش يقوده الحسن بن قحطبة فلقي جيش ابن هبيرة وهزمه، فرجع ابن هبيرة إلى واسط، فحاصره فيها العباسيون. وطال عليهم الحصار وعلموا بمقتل مروان وحدث نزاع بين اليمانية والنزارية من جنود يزيد بن هبيرة، فطلب الصلح مع عقد الأمان من أبى جعفر (المنصور). وكتب له أبو جعفر عهد أمان: (وكتب به كتابا، مكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوما حتى رضيه، فأنفذه إلى أبي جعفر، فأنفذه أبو جعفر إلى أخيه السفاح فأمره

بإمضائه...) ووفد ابن هبيرة على أبى جعفر بألف وثلاثمائة من أتباعه يحيطون به. ثم صار أبو جعفر يخفض عدد حراس ابن هبيرة حتى أصبحوا ثلاثة، ثم جاء أمر السفاح لأخيه أبى جعفر بقتل ابن هبيرة، واستخلاص أمواله، وخرّ ابن هبيرة ساجدا حين دخلوا ليقتلوه، فقتلوه ساجدا. وضاع الأمان المكتوب هباء منثورا !

٣ـ وتخلص السفاح من اثنين من دعاته، وهما أبو سلمة الخلال وسليمان بن كثير، أمر السفاح قائده أبا مسلم باغتيالهما. وقتلهما أبو مسلم. وفيما بعد قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني. وأمر أبو مسلم بقتل ولاة فارس الذين عينهم أبو سلمة الخلال. وقام بذلك محمد بن الأشعث الوالي الجديد الذي عينه أبو مسلم. والعادة السيئة للمستبد أنه عندما يصل إلى الحكم يبادر بقتل أعوانه الذين ساعدوه على الوصول للحكم حتى لا يشاركه أحد في سلطانه. وهى عادة سيئة في الشرق وفى الغرب، ولكن من العار أن تأتى ممّن يزعم الخلافة والهداية.

٤ـ مذبحة الموصل: كره أهل الموصل الوالي العباسي محمد بن صول لأنه من الموالى وليس عربيا، فأخرجوه عنهم. وهم لم يخلعوا الطاعة. ولكن السفاح أرسل إليهم أخاه يحيى بجيش من ١٢ ألفا. ودخل يحيى العباسي الموصل بلا مقاومة من أهلها. ثم ارتكب فيها مذبحة مروعة شملت الأطفال والنساء. تقول الرواية عن دخوله الموصل سلميا: (فنزل قصر الإمارة بجانب مسجد الجامع، ولم يظهر لأهل الموصل شيئا ينكرونه ولم يعترض فيما يفعلونه، ثم دعاهم فقتل منهم أثني عشر رجلا، فنفر أهل البلد وحملوا السلاح، فأعطاهم الأمان، وأمر فنودي: من دخل الجامع فهو آمن؛ فأتاه الناس يهرعون إليه، فأقام يحيى الرجال على أبواب الجمع، فقتلوا الناس قتلا ذريعا أسرفوا فيه، فقيل: إنه قتل فيه أحد عشر ألفا ممن له خاتم وممن ليس له خاتم خلقا كثيرا. فلما كان الليل سمع يحيى صراخ النساء اللاتي قتل رجالهن، فسأل عن ذلك الصوت فأخبر به، فقال: إذا كان الغد فاقتلوا النساء والصبيان. ففعلوا ذلك، وقتل منهم ثلاثة أيام، وكان في عسكره قائد معه أربعة آلاف زنجي، فأخذوا النساء قهرا (أي اغتصبوهن)، فلما فرغ يحيى من قتل أهل الموصل في اليوم الثالث ركب اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف المسلولة، فاعترضته امرأة وأخذت بعنان دابته، فأراد أصحابه قتلها فنهاهم عن ذلك، فقالت له: ألست من بني هشام؟ ألست ابن عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ أما تأنف للعربيات المسلمات أن ينكحهن الزنج؟ فأمسك عن جوابها وسيّر معها من

يبلغها مأمنها، وقد عمل كلامها فيه. فلما كان الغد جمع الزنج للعطاء، فاجتمعوا، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم).

(نترك للقارئ التأمل في طبيعة العقلية العربية حتى من كان من آل بيت رسول الله، لأن القومية العربية بجنسها وعرقها ليست كالبشر العاديين، بل هي تعاني من عاهة مستديمة، ولما اشتد عليهم المرض أرسل الله رسوله لعلاجهم، فكيف يخرج من هؤلاء المرضى أطباء استشاريين ! يصبحوا ولاة وخلفاء للمسلمين ! الحمد لله أننا لسنا عرب).

عام ١٣٣

١- (قتل داود بن علي من ظفر به من بني أمية بمكة والمدينة، ولما أراد قتلهم قال له عبد الله بن الحسن بن الحسن: "يا أخي إذا قتلت هؤلاء فمن تباهي بملكه؟ أما يكفيك أن يروك غاديا ورائحا فيما يذلهم ويسوؤهم؟". فلم يقبل منه وقتلهم)

٢- إعادة فتح شمال أفريقيا: (توجه محمد بن الأشعث إلى إفريقية فقاتل أهلها قتالا شديدا حتى فتحها)

٣- ثورة على الظلم العباسي: (خرج شريك بن شيخ المهري ببخارى على أبي مسلم ونقم عليه، وقال:" ما على هذا اتبعنا آل محمد، أن نسفك الدماء وأن يعمل بغير الحق! ". وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين ألفا، فوجه إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعي فقاتله، وقتله زياد). هذا خبر آخر يستحق التأمل!

٤- قتل بعد إعطاء الأمان: (قتل عبد الرحمن بن يزيد بن المهلب بالموصل، قتله سليمان الذي يقال له الأسود بأمان كتبه له.). كتب له أمانا، ثم نكث بالعهد وقتله!

٥- غزو وحروب مع دار الحرب (بيزنطة): توجه (صالح بن علي سعيد بن عبد الله ليغزو الصائفة وراء الدروب) وحاصر قسطنطين البيزنطى (ملطية) بعد أن هزم جيشا عباسيا، وطلب من أهل ملطية الجلاء عنها والعودة إلى (بلاد المسلمين) فرفضوا ثم أذعنوا (.. فأرسل قسطنطين إلى أهل ملطية: إني لم أحصركم إلا على علم من المسلمين واختلافهم، فلكم الأمان وعودون إلى بلاد المسلمين حتى احترث ملطية. فلم يجيبوه إلى ذلك، فنصب المجانيق، فأذعنوا، وسلموا البلاد على الأمان وانتقلوا إلى

بلاد الإسلام وحملوا ما أمكنهم حمله، وما لم يقدروا على حمله ألقوه في الآبار والمجاري.فلما ساروا عنها أخربها الروم ورحلوا عنها عائدين، وتفرق أهلها في بلاد الجزيرة). هذا ما يذكره ابن الأثير في تاريخه الكامل. ويقول ابن الجوزى في تاريخ المنتظم:(أقبل طاغية الروم فنزل على ملطية فقاتلوه قتالا شديدا ثم نزلوا على أمان، فهدم المدينة والمسجد الجامع ودار الإمارة، ووجه مع المسلمين خيلا حتى بلغتهم مأمنهم). لم يغدر بهم!

٦- حرب أخرى مع (دار الحرب) في أقصى الشرق: القائد العباسي يحاصر عاصمة (الختل) ويرحل عنها صاحبها إلى فرغانة..حتى انتهوا إلى أرض فرغانة، ثم دخلوا بلد الترك وانتهوا إلى ملك الصين، وأخذ أبو داود من ظفر به منهم فبعث بهم إلى أبي مسلم) .. زياد بن صالح يهزم جيشا لملك الشاش وملك الصين (فالتقوا على نهر طراز فظفر بهم المسلمون وقتلوا منهم زهاء خمسين ألفا وأسروا نحو عشرين ألفا وهرب الباقون إلى الصين)

عام ١٣٤ :

١- انشق بسام بن إبراهيم عن السفاح ومعه جماعة فأرسل إليهم السفاح خازم بن خزيمة فقتله وأصحابه، وفى الطريق لقي خازم جماعة من بني الحارث أخوال السفاح، فتشاتم معهم، فقتلهم ونهب أموالهم، وكاد السفاح أن يقتله، ثم اختار أن يبعثه لقتال الخوارج في عمان وجزيرة بركاوان. ورسى خازم بسفنه على جزيرة بركوان وهاجم قائد الخوارج شيبان وهزمه فهرب إلى عمان، وفيها خوارج من الصفرية يتزعمهم الجلندى، فهزمهم خازم (فحمل عليهم خازم وأصحابه فوضعوا فيهم السيف فقتلوهم وقتلوا الجلندى فيمن قتل، وبلغ عدة القتلى عشرة آلاف، وبعث برؤوسهم إلى البصرة، فأرسلها سليمان إلى السفاح)

٢- غزو (كش): كان ملكها الأخريد على الطاعة، ولكن طمع العباسيون في ثروته، فأرسلوا إليه حملة يقودها خالد بن إبراهيم، فقتلوا الملك (الأخريد): (فقتل الأخريد ملكها، وهو سامع مطيع، وقتل أصحابه، وأخذ منهم من الأواني الصينية المنقوشة المذهبة ما لم ير مثلها، ومن السروج ومتاع الصين كله من الديباج والطرف شيئا كثيرا فحمله إلى أبي مسلم وهو بسمرقند، وقتل عدة من دهاقينهم، واستخلف (طاران) أخا الأخريد وملكه على كش؛ وانصرف أبو مسلم إلى مرو بعد أن قتل في أهل الصغد وبخارى)

٣- كان منصور بن جمهور مستوليا على (السند) فأرسل السفاح حملة هزمته وقتلته.

عام ١٣٥

١- انشقَ عن السفاح القائد زياد بن صالح، وراء النهر، فسار أبو مسلم من مرو مستعدا للقائه، وتخلى عن زياد بعض قواده وانضموا والى أبى مسلم، فهرب زياد إلى دهقان هناك، فقتله الدهقان، وبعث برأسه إلى أبى مسلم.

٢- غزا عبد الله بن حبيب جزيرة صقلية وغنم بها وسبى وظفر بها ما لم يظفره أحد قبله بعد أن غزا تلمسان. ووقعت الفتنة بين العباسيين والبربر فاستعاد الروم صقلية (وعمروها فيها الحصون والمعاقل وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها، وربما طارقوا تجارا من المسلمين فيأخذونهم).

عام ١٣٦:

موت السفاح: (وكان له يوم مات ثلاث وثلاثون سنة، وقيل: ست وثلاثون، وقيل: ثمان وعشرون سنة. وكانت ولايته من لدن قتل مروان إلى أن توفي أربع سنين). هل هي موتة طبيعية ؟.. الغريب أنه بموت السفاح كان العهد لأخيه أبى جعفر المنصور ثم من بعده لموسى بن عيسى مكتوبا وفى يد موسى بن عيسى، فتمت البيعة لهما سريعا، يقول ابن الجوزى: (عقد أبو العباس لأخيه أبي جعفر بالخلافة من بعده وجعله ولي عهده ومن بعد أخيه جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن علي، وكتب العهد بذلك وصيره في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته، ودفعه إلى عيسى بن موسى). كان أبو جعفر هو الأخ الأكبر للسفاح، وتقدمه السفاح لأن أمه كانت عربية بينما كانت أم أبى جعفر جارية، وأبو جعفر (المنصور) أشد خلفاء بني العباس دهاءً ومكرا وأعرقهم وأعرفهم بالتآمر ونكث العهود. لذا لا نستبعد أن يكون قد قتل أخاه الأصغر سريعا، وساعده في التآمر عيسى بن موسى، الذي كوفئ (مؤقتا) بولاية العهد بعد أبى جعفر، ثم قهره أبو جعفر وخلعه من ولاية العهد.... ونلتقي بأبي جعفر المنصور ومسلسل الدم[١٢].

ويعد الخليفة أبو جعفر المنصور من أقوي وأشد الخلفاء العباسيين الذين تولوا الخلافة العباسية. عرف عنه بطشه بأعدائه وحتى أصدقائه خوفا علي سلطانه منهم. تولي الخلافة بعد

---

١٢ ـ أحمد صبحي منصور في الأربعاء ٢٧ ابريل ٢٠١٦ ـ مقال بعنوان مسلسل الدم في خلافة أبى جعفر المنصور من عام ١٤٦ إلى وفاته في ١٥٨ على موقع أهل القرآن،

رابط: http://www.ahl-alquran.com/arabic/show_article.php?main_id=14688

وفاة أخيه أبي العباس عبد الله السفاح سنة ١٣٦ هـ بعد أن أمضي أربع سنين في الخلافة. ولكن صراعا دمويا نشب بينه وبين عمه عبد الله علي بسبب طمع الثاني في تولي الخلافة نظرا لبطولاته السابقة في حرب الأمويين والروم. جمع عبد الله جند الشام حوله لمهاجمة جيش المنصور الذي استنجد بأبي مسلم الخرساني. فأتي بجيشه من خراسان وتقابل مع جيش عبد الله في معارك كثيرة كانت الغلبة فيها لجيش أبي مسلم الخرساني، و فر عبد الله علي إلي البصرة حتى بعث المنصور إليه من يغتاله سنة ١٤٨ هـ. ويبدو أن أبا جعفر المنصور رأي أنه يجب ألا يترك نفوذ أبي مسلم الخرساني يستفحل في خرسان ويعلو نجمه بعد الانتصارات التي حققها للدولة العباسية الوليدة، فأرسل إلي أبي مسلم يدعوه للحضور إلي قصره، وهناك أمر حراسه بقتله، مما أهاج أهل خراسان ودفعهم إلي الثورة ضد الخلافة العباسية التي لم تحفظ لهم معروف أنهم قاتلوا من أجلها ضد الأمويين. فأرسل المنصور إليهم جيشا كبيرا هزمهم وكسر شوكتهم. ولكن ثورات أهل خراسان استمرت تقلق حكم العباسيين، فيرسلون إليهم من يبطش بهم وينكل بهم، فيزداد السخط علي العباسيين وتتجدد الثورات مرة أخري.

ولقد واجه أبو جعفر المنصور ثورة العلويين أيضا من أحفاد الحسن علي أبي طالب في الحجاز. فلقد ثار محمد عبد الله الحسين الحسن علي، وكنيته محمد النفس الزكية، علي الحكم العباسي، وتجمع حوله الناس، وانضم إليه أخوه إبراهيم، ولكن أبو جعفر المنصور أرسل جيشا بقيادة عيسي موسي، الذي اقتحم المدينة وهزم جيش محمد النفس الزكية وقتل الكثيرين من جنده. ومحمد النفس الزكية نفسه قتل علي يد بن قحطبة الذي قطع رأسه وصلب جسده. ثم ما لبث أن قتل أخاه إبراهيم عبد الله الحسين الحسن علي، وبذلك خمدت ثورة العلويين التي كادت أن تزيل حكم بني العباس، و تعيده إلى آل البيت. ومن أشهر أعمال أبي جعفر المنصور قيامه ببناء مدينة بغداد سنة ١٤٥ هـ ولكي يختار موضع المدينة، سار المنصور يطلب موضعا يتخذه بلدا فبات ليلة موضع القصر، فطاب له المبيت ولم ير إلا ما يحب، فقال: ها هنا ابنوا، فإنه طيب، ويأتيه مادة الفرات ودجلة والأنهار. تم البناء عام ١٤٩ هـ / ٧٦٦ م. وظلت بغداد عاصمة الخلافة العباسية حوالي خمسة قرون، مكث أبو جعفر المنصور في خلافته اثنين وعشرين عاما.

<u>خلافة هارون الرشيد وأبنائه</u>

يعد عهد هارون الرشيد (١٧٠ / ١٩٣ هـ – ٧٨٦ / ٨٠٨ م) من أزهي عصور العباسيين، وذاعت شهرته في الشرق والغرب، ففي عهده بلغت بغداد أوج عمرانها وسيطرتها علي أجزاء الدولة مترامية الأطراف من المغرب إلي الصين. وتوغلت الجيوش العباسية في آسيا الصغرى حتى بلغت عاصمة دولة الروم. ولكن عهد الرشيد شهد كذلك قيام دولة الأدارسة المستقلة في المغرب (١٧٢ هـ / ٧٨٨ م). وعلم الرشيد أنه يصعب عليه السيطرة علي حدود دولته المترامية، فعهد إلي إبراهيم الأغلب حكم المغرب الأقصى، وجعل الحكم متوارثا في أبنائه. كما قام هارون الرشيد قبل وفاته بتقسيم الدولة بين أولاده: الأمين والمأمون والمؤتمن، وجعل ولاية العهد من بعده للأمين، ثم المأمون، ثم المؤتمن، ولكن بعد وفاة هارون الرشيد قامت فتنة شديدة بين الأمين والمأمون وقامت بينهما حروب طويلة تخربت فيها بغداد وانتهت بقتل الأمين (١٩٨ هـ / ٨١٣ م)، وتولي المأمون الخلافة العباسية.

حكم الخليفة الرشيد كأسلافه وأتباعه بموجب (نظرية الحق الإلهي) أي أن طاعته واجبة شرعا، والمعارض يقع تحت مقصلة السياف، وكان هارون الرشيد يتعامل بميكافيلية (الغاية تبرر الوسيلة) هدفه الحفاظ على كرسي الحكم مهما كلف الأمر، وهو الخليفة الرشيد الذي حبس ابن عمه الإمام "موسى جعفر" عشرين عاما واغتاله ورمى به على جسر بغداد، وكان يعاني من فوبيا زوال حكمه بشكلٍ هستيري بحيث عامل جميع الفتن والثورات بكل قسوة وضراوة. واتبع هارون الرشيد سياسة الكتمان مع عنصر المفاجأة بشأن البرامكة، وكانوا مجموعة من الأمراء يتولون مناصب عليا في الدولة وزادت شعبيتهم حتى غطت على الخليفة وأوغرت صدره، وفي ليلة أمر بالقبض عليهم جميعا بدون استثناء وشغل سيف جلاده برقابهم وصادر أموالهم وضياعهم.. و(نكبة البرامكة) مصطلح يشير إلى ما وقع للبرامكة على يد الخليفة العباسي هارون الرشيد، من قتل وتشريد ومصادرة أموال.. بالأمس كانوا وزراء الدولة وأصحاب الأمر والسلطان، واليوم تحت مقصلة السياف.. وتعدّ هذه الحادثة أحد أبرز الأحداث السياسية المؤثرة في حكم الرشيد، وبقيت بصماتها المأساوية الدموية في الذاكرة العباسية، وتعتبر حلقة في سلسلة نكبات طالت وزراء الدولة العباسية منذ قتل أبي مسلم الخراساني

بتدبير الخليفة أبو جعفر المنصور، وقتل معظم المقربين (كآل سهل)لاحقا، وتصفية أكثر أئمة العلويين غيلة بالسم. [١٣]

خلافة المعتصم و نهاية العصر العباسي الأول

يعد عهد المعتصم نقطة فاصلة في تاريخ الخلافة العباسية، فقد قام الخليفة المعتصم بتكوين جيش من الأتراك يدينون له بالولاء. كما قام ببناء عاصمة جديدة للخلافة هي سامراء ليسكن فيها جيشه الجديد من الأتراك. ونهج ابنه الخليفة الواثق نفس النهج من تقريب الأتراك والاعتماد عليهم، حتى أصبح لهم السلطة والأمر في الخلافة، وأصبح الخليفة ألعوبة في أيديهم، وبدؤوا يتدخلون في البيعة ويتحكمون فيمن يتولي الخلافة من أسرة العباسيين، فحل الضعف والتفسخ في الدولة العباسية، وانتهي عصر الازدهار وبدأ نجم العباسيين في الأفول.

العصر العباسي الثاني

كان العصر العباسي الثاني مثال لاضمحلال حضارة وانكماش دولة، فقد كثرت الفتن والصراعات بعد غلبة العنصر التركي في الجيش والقصر. كما شاع تدخل النساء وحاشية القصر في شئون الإدارة، وقامت ثورة الزنج وثورات العلويين وصراعات الأتراك وسادت الفوضى والاضطرابات. ضعفت السلطة المركزية للخلافة بضعف الخليفة، فبدأت موجة استقلال الإمارات البعيدة عن السلطة المركزية و تحولت إلي دويلات مستقلة، فقامت في إيجبت الدولة الطولونية، ثم من بعدها الإخشيدية، وقامت في المغرب الخلافة الفاطمية الشيعية واستولت علي إيجبت من الإخشيديين. وفي الشرق قامت الدولة الطاهرية في خرسان، ثم ورثتها الدولة الصفارية، وقامت الدولة الزيدية العلوية في طبرستان. كما قامت الدولة السامانية وعاصمتها بخاري. و كذلك قامت في الشام الدولة الحمدانية وسيطرت علي موصل وحلب وامتدت سيطرتها علي بغداد في بعض الأوقات.

ولم يتوقف الأمر علي ضعف الخليفة العباسي وتحكم القواد الأتراك في توليته وخلعه، وإنما وصل الأمر أن بدأ القواد في تكوين دويلات في بغداد نفسها وحكمها متوارث في الأبناء والأحفاد. فنجد أحمد بن بويه الشيعي الذي استعان به الخليفة المستكفي للتخلص من سيطرة

١٣ ـ عبد الجبار نوري ـ مقال بعنوان: البرامكة/ وشم في ذاكرة الدولة العباسية
http://www.ishtartv.com/viewarticle,69936.html

الدولة الحمدانية، يؤسس دولة بني بويه في بغداد والتي استمرت قرن من الزمان. وكان البويهيون الشيعيون لا يعتقدون في حق العباسيين في الخلافة، فعاملوهم بقسوة كبيرة وجردوهم من كل سلطة وسجنوهم في قصورهم، فلما قامت دولة السلاجقة التي أسسها سلجوق واعتنقت المذهب السني، استنجد بها الخليفة القائم بأمر الله، فسار طغرل زعيم السلاجقة إلي بغداد ودخلها (٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م)، وأزال دولة بني بويه، وبدأت حلقة جديدة من سيطرة الأمراء علي الخليفة ولكن هذه المرة الأمراء السلاجقة السنيين.

دولة السلاجقة و بداية موجات الحملات الصليبية

بدأ السلاجقة يسيطرون علي بغداد ٥٩٠ هج/ ١١٩٤ م، وذلك زمن الخليفة العباسي الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هج/ ١١٨٠ – ١٢٢٥ م). وكان لسيطرة السلاجقة علي الخلافة نتائج بعيدة الأثر. فقد عملوا علي تمكين المذهب السني في العالم الإسلامي. و تولوا الدفاع عن المشرق الإسلامي ضد الصليبيين، ونجحوا زمن سلاطينهم الثلاثة الأول طغرل بك، وألب أرسلان، وملكشاه في توحيد جزء كبير من أراضي الخلافة في المشرق، فاستولوا علي أرمينيا. وبعد أن هزم ألب أرسلان البيزنطيين في الموقعة التاريخية ملاذكرد عام ١٠٧١ م، توغل السلاجقة في آسيا الصغرى والشام. علي أن دولة السلاجقة لم تلبث بعد وفاة ملكشاه ٤٨٥ هج/ ١٠٩٢ م أن بدأت تتفكك نتيجة لمشاحنات الأمراء السلجوقيين. وبينما بقي الفرع السلجوقي الرئيسي يحكم العراق وفارس استقل سلاجقة الشام وسلاجقة كرمان وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى.

ظلت الخلافة العباسية بمأمن من هجمات الصليبيين، حتى جاء هولاكو المغولي في زمن المستعصم آخر الخلفاء العباسيين، وهجم علي بغداد وقتل الخليفة المستعصم ٦٥٦ هج / ١٢٥٨م وكل أسرته ولم يبق أحد من بني العباس، بالضبط كما قضى بني العباس على بني أمية لينتزعوا منهم الحكم قبل أربعة قرون. ويوم دخل هولاكو بغداد قتل العلماء والتجار والقضاة، وقال لجنوده ابقوا **الخليفة** المستعصم حيا حتى يدلنا على أماكن كنوزه.. وذهب المستعصم معهم ودلهم على **مخابئ** الذهب والفضة والنفائس وكل المقتنيات الثمينة **في** داخل وخارج قصوره ومنها ما كان يستحيل أن يصل إليه المغول بدون **إرشاده**، حتى أنه أرشدهم إلى نهر مطمور من الذهب المتجمد لا يعلم أحد بمكانه، **كان الذهب مطمورا في نفق عميق تحت حمام سباحة بالقصر**، فقال له هولاكو لو كنت أعطيت هذا المال لجنودك لكانوا حموك

مني.. وأمر أن يضعوه **في** شوال ثم يضربه الجنود **ركلا** با**لأ**قدام حتى الموت.. يقول المؤرخون أن ما جمعه بنو العباس **في** خمسة قرون أخذه هولاكو **في** ليلة..

وبهذا زالت الخلافة من بغداد التي استمرت ٥٠٠ سنة. كانت فترة ازدهارها هي المائة سنة الأولي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ)، ثم أصابها الفساد السياسي لمدة ٤٠٠ سنة حتى قضي عليها المغول سنة ٦٥٦ هـ. وعاد الظاهر بيبرس وأحياها بعد ذلك بخمس سنوات وبقيت قائمة إسما إلي أن استولي الأتراك علي إيجبت ٩٢٢ هـ / ١٥١٧م. وتعتبر الخلافة العباسية هي آخر خلافة إسلامية تجمع الأقطار التي فتحها العرب تحت سلطة مركزية واحدة. وبعدها بدأت أجزاء الدولة العربية تنفصل في دويلات. [١٤]

١٤ ـ مع التصرف الموضوع نقلا عن مقال بعنوان (الخلافة العباسية (١٣٢ـ ٦٥٦ هـ) منشور على موقع تاريخ مصر على الرابط التالي: http://egypthistory.net/2011 /

٥ـ مُحصلة دولة الخلافة

ما سبق شرحه كان هو ملخص سيناريو الحضارة العربية السياسي خلال خمسمائة عام من عمر الزمان، بدأت من لحظة وفاة النبي محمد عليه السلام في شبه الجزيرة، وانتهت تحت أقدام المغول في بغداد.. وهي فترة قصيرة للغاية مقارنة بالحضارة الجبتية القديمة، أو الحضارة الصينية القديمة أو الهندية أو الرومانية القديمة، فهذه الحضارات قد شهدت ازدهارا علميا وأدبيا على مدار آلاف السنين، وتدوولت سلطة الحكم فيها بسلام وأمان، بينما العرب نجد حجم الدماء والرقاب التي طارت في صراعات ونزاعات على السلطة أكثر من عدد الأشخاص الذين تولوا السلطة آلاف المرات، الحروب والتوسعات الاستعمارية بالخارج تكاد تعادل الحروب والصراعات المسلحة بالداخل، وهي صراعات ونزاعات داخلية بين أركان الدولة والعائلات والقوى السياسية، ولم تشهد الحضارة العربية أي تقدم يذكر مقارنة بحجم الدماء التي شهدتها، وهي في المجمل لا تصلح أن تكون قدوة للأجيال ولا مصدر لفخر العرب بها مقارنة بغيرها من الحضارات ومقارنة بحجم الدماء التي شهدتها.

وبرغم أنها الحضارة الوحيدة بين حضارات العالم التي أخذت ماركة دينية وحملت اسم الدين الإسلامي وعرفت في كتب التاريخ بأنها " الحضارة الإسلامية " لكن الاصطلاح الصحيح لها هو "الحضارة الدموية " لأنها في الواقع كانت منفصلة كلية عن الدين الإسلامي وإن استخدمه العرب للتسويق لدولتهم، فهم يفهمون من الدين بقدر ما يستفيدون منه فقط، لدرجة أنهم حتى يومنا هذا يعتمدون على التسويق والترويج بالمعالم الدينية دون أن تكون لها في قلوبهم أي اعتبار. فأذكر أحد الدعاة السعوديين حينما صعد المنبر يوم الجمعة وبدأ خطبته بالحمد والثناء كالعادة، ثم توجه إلى جمهور المصلين في المسجد يطلب منهم ألا يحضر للصلاة في مسجده هذا إلا من كان ذو حسب ونسب ومن عائلة كبيرة وقبيلة لها اسمها..!

هذه الدولة لم يعرف حكامها شيئا عن الدين الذي روجوا لحكمهم باسمه، وعلى مدار تاريخهم كانوا أكثر دموية وعنفا من غيرهم الذين لم يحملوا اسم دين على الإطلاق، ومع ذلك استعذب فقهاء الدين تاريخهم السياسي والعسكري الدموي فجعلوه تاريخ الإسلام، وهكذا تناقلته المصادر التاريخية .. فالعرب ظلموا الدين الإسلامي بنسب حضارتهم الفاشلة إليه، لأن الحضارات تمثل الشعوب لا المناهج الدينية.

في هذا المسقط الرأسي اطلعنا على صورة عامة ومختصرة عن النظام السياسي الذي اتبعه العرب في حكم دولتهم وقد اصطلح الفقهاء على هذا النظام مسمى " الدولة الإسلامية" ونظام الحكم في الإسلام، ونظام الخلافة، واشتقت منه تشريعات وتخريجات فقهية بعناوين من نوعية " السياسة الشرعية" والتي تصدرها كتاب الأحكام السلطانية للشيخ الماوردي، هذا الكتاب الذي يصعب تصنيفه، إما أنه كتاب تأريخ لنظام حكم العرب، وإما أنه تقرير صحفي استطلاعي لنظام المجتمع العربي، وإما أنه كتاب قانوني ينظر للمنظومة القانونية والعرفية السائدة في عصره في المجتمع العربي، لكن مؤلفه إمام وشيخ وقاضٍ وفقيه، وليس صحفي ولا رجل قانون ولا مؤرخ، ودخل هذا الكتاب قسم الكتب الفقهية الدينية، وحصل على قداسة يمكنه من خلالها تحويل تاريخ العرب إلى دينٍ للشعوب.. برغم أن المجتمع العربي كما سبق وأوضحنا مجتمع بري متوحش ماديا وفكريا؛ فكريا من ناحية المكر والدهاء والنفاق والفجر العقائدي، ومتوحش ماديا من حيث التعاملات المادية معدلات الجريمة الجنائية والتي شهدناها في نظام الحكم الذي أخذ طابعا دينيا لكنه لم يخل من معدلات الجريمة ذاتها التي اعتادها المجتمع العربي على مدار حياته قبل وبعد الإسلام.

فلو نظرنا إلى حقبة الحضارة الجبتية الفرعونية سنجدها استطالت إلى ما يجاوز الخمسة آلاف عام بسلام، وقد انتقل الحكم بالتداول بين ٣١ أسرة حاكمة في إيجبت، وبرغم أن الحكم في إيجبت القديمة كان ملكيا ينتقل بوراثة العرش، لكنه تنقل بين العائلات على مدار خمسة آلاف عام تولى خلالها الحكم آلاف الملوك من هذه العائلات الإحدى وثلاثون، دون أن تبرز ظاهرة الصراع والقتل والنزاعات بين الملوك والأقارب والعائلات، ولم تدعي عائلة منهم الحكم باسم الدين إطلاقا برغم أن ظاهرة الدين هي غريزة ومكون رئيس في النفسية الجبتية، ولم تقتل عائلة عائلة أخرى بالإجماع من أجل الحكم، ولم يتحرك الجيش بالداخل (ولو مرة واحدة) لتصفية قرية أو مدينة أو عائلة كما كان يحدث بصورة اعتيادية في الدولة (الإسلامية) ولمن أراد التيقن الاطلاع على تاريخ الحضارة الجبتية.

أما بالنسبة للحضارة العربية فقد انتقل الحكم بين عائلتين فقط وعلى مدار خمسمائة عامٍ فقط شهدت صراعات ومجازر دموية لا مثيل لها في التاريخ ولا في أي شعبٍ من الشعوب سوى المغول، إذ بدأ طمع القبائل العربية في الحكم عقب وفاة النبي ببرهة قصيرة، اختلفت طائفة المهاجرين والأنصار على الاستئثار بالحكم ولم يكن بينهم إيثار كما علمهم النبي، ثم بعد وفاة

الخليفة الثاني عمر الخطاب بدأ الصراع العنيف على الحكم والسيادة، بعدما تمكن الخليفة الثالث عثمان عفان من عزل الولاة والحكام وتولية أقاربه وأعوانه وبني عمومته وقبيلته، واستعر النزاع ولم يهدأ إلى أن سقطت العائلة الأموية في الشرق وتم ذبحهم جميعا على يد العائلة العباسية، والي استعر القتال داخلها بين الأبناء والإخوة وأولاد العم من أجل السلطة، وفي الجانب الآخر في الأندلس استعر الصراع والنزاع بذات الطابع العربي، وانشقت الخلافة الأموية في الأندلس بالتزامن مع تفتت الدولة العباسية في بغداد وتصارع حكام الطوائف حتى سيّر الابن جيشا لمحاربة والده ! وانتهى الأمر بأن وقع كلاهما في الأسر.

والمطالع للتاريخ منذ البداية يجد أنه؛ قتل عثمان بأيدي مسلمين، تم قتل علي بأيدي مسلمين، ثم قتل الحسين وقطعت رأسه بأيدي مسلمين، وقتل الحسن مسموما مغدورا بأيدي مسلمين، وقتل اثنين من المبشرين بالجنة "طلحة والزبير" بأيدي مسلمين، وفي معركة كان طرفاها "علي" و "عائشة" (موقعة الجمل) قتل مسلمين بيد مسلمين، وفي معركة كان طرفاها "علي" و "معاوية" (موقعة صفين) .. قتل مسلمين بيد مسلمين، وفي معركة كان طرفاها "علي" و "أتباعه" (موقعة نهروان) قتل مسلمين بيد مسلمين، وفي معركة كان طرفاها "الحسين" و "يزيد" .. ذبح ٧٣ من عائلة رسول الله بيد مسلمين، وفي معركة إخماد ثورة "أهل المدينة" على حكم "الأمويين" غضبا لمقتل الحسين ؛ قتل ٧٠٠ من المهاجرين والأنصار بيد ١٢ ألف من قوات الجيش الأموي المسلم.

وفي (معركة الحرة) التي قاد جيش الأمويين فيها "مسلم بن عقبة" جاءه صديقه الصحابي معقل بن سنان الأشجعي (شهد فتح مكة وروى أحاديثا وكان فاضلا تقيا) فأسمعه كلاما غليظا في "يزيد بن معاوية" بعدما قتل الحسين فغضب منه وقتله.. لم يتجرأ "أبو لهب" و "أبو جهل" على ضرب "الكعبة" بالمنجنيق وهدم أجزاء منها، لكن فعلها "الحصين بن نمير" قائد جيش عبد الملك بن مروان أثناء حصارهم لمكة، ولم يتجرأ "اليهود" أو "الكفار" على الإساءة لمسجد رسول الله يوما .. لكن فعلها قائد جيش يزيد بن معاوية عندما حول المسجد لثلاثة ليالي إلى إسطبل، تبول فيه الخيول... وفي خلافة عبد الملك بن مروان: قتل عبد الله بن الزبير (ابن أسماء ذات النطاقين) بيد مسلمين، وفي خلافة هشام بن عبد الملك: لم يقتل زيد بن زين العابدين بن الحسين (من نسل النبي) فحسب، بل صلبوه عاريا على باب دمشق لأربعة سنوات ثم أحرقوه

معاوية بن يزيد (ثالث خلفاء بني أمية) لما حضرته الوفاة (وكان صالحا على عكس أبيه)، قالوا له: أعهد إلى من رأيت من أهل بيتك؟ فقال: والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فكيف أتقلد وزرها ! اللهم إني بريء منها متخلٍ عنها، فلما سمعت أمه (زوجة يزيد بن معاوية الذي قتل الحسين) كلماته، قالت: ليتني خرقة حيضة ولم أسمع منك هذا الكلام. وتقول بعض الروايات أن عائلته هم من دسوا له السم ليموت لرفضه قتال المسلمين، بعد أن تقلد الخلافة لثلاثة أشهر فقط وكان عمره ٢٢ سنة. ثم صلى عليه "الوليد بن عتبه بن أبي سفيان" وكانوا قد اختاروه خليفة له، لكنه طعن بعد التكبيرة الثانية.. وسقط ميتا قبل إتمام صلاة الجنازة. فقدموا "عثمان بن عتبة بن أبي سفيان" ليكون الخليفة، فقالوا: نبايعك ؟ قال: على أن لا أحارب ولا أباشر قتالا.. فرفضوا.. فسار إلى مكة وانضم لعبد الله بن الزبير .. وقتلوه.. نعم .. قتل الأمويون بعضهم البعض، ثم قتل أمير (المؤمنين) "مروان بن الحكم" بيد مسلمين، ثم قتل أمير (المؤمنين) "عمر بن عبد العزيز" بيد مسلمين، ثم قتل أمير (المؤمنين) "الوليد بن يزيد" بيد مسلمين، ثم قتل أمير (المؤمنين) "إبراهيم بن الوليد" .. بيد مسلمين.

ولأن الغاية من هذه الدراسة ليست التأريخ، ولكن التعرض فقط لطبيعة العقلية العربية المتوحشة فكريا وماديا، والغريب أن الفقهاء يتشبثون بها باعتبارها تاريخ لدولة الإسلام، لكن في الواقع فإن هؤلاء الفقهاء جميعا مصابون بعدوى ستوكهولم العربية لأنهم من أبناء الشعوب التي انكسرت إرادتها تحت أقدام هؤلاء العرب، وبالتالي وفقا لمسلمات المتلازمة سيؤمنون بأفكار المعتدي عليهم ويدافعون عنه.. والحقيقة أن هناك إسلام يجب انتقاءه بحذر شديد من مؤثرات العقلية العربية، لأنها عقلية متوحشة وغير عادية. وما التاريخ العربي هذا إلا مقلبا عموميا للقمامة العربية في قلب القاهرة، حظي بعناية الأزهر ودراسته وتنميته لتغذية عقول أبناء الفراعنة بهذه النفايات... دون التفكر في مدى الخطورة الفعلية العائدة من النبش في بقايا حضارة الغجر.

... وفي هذه اللحظات .. قرر الحكيم الجبتي " آمون أم أوبي" من قمة الهرم الأكبر أن يلملم عدساته عن الشرق وعن الغرب.. قرر أن يعود ليتأمل الحدائق الخضراء على طول امتداد النيل.. وخطوط المياه العريضة التي تعبر القناطر وتشق السهول وتلقى بالجزر الساحرة يمينا وبالحقول الخضراء يسارا في مشهدٍ بديع لا مثيل له في الشرق ولا في الغرب.. وأصبح إيمانه يقينا بالصورة الرائعة التي رسمها عندما شبّه لنا الرجل الحليم بالشجرة المثمرة؛ والرجل المشاغب بالشجرة

اليابسة؛ فقال: لكي يكون المرء كاملا؛ عليه أن يظهر دائمًا باحتشام ورقة وتواضع... فالشخص المشاغب كالشجرة التي تنتهي بأن تصير أغصانها وقودا، أما الوديع فهو كالشجرة التي تحمل ثمارًا في الحديقة... فلا تغرك صحبة المشاغب ولا تقترب منه لمبادلته الحديث"[15]..

بينما علماء الأزهر يصرون على اجترار نفايات العرب ويعتبرونها تراثا دينيا لهم.. فقد جاءنا فضيلة الشيخ الدكتور صبري عبد الرءوف أستاذ الفقه المقارن بالأزهر ليحدثنا عن "مضاجعة الوداع " فيقول: أن معاشرة الزوج لزوجته الميتة عقب خروج روحها حلال ولا يعتبر زنا برغم أن الجثة باردة ولا حياة فيها ! ولا حرمة للميت بشرط أن يكون ذلك قبل تعفن الجثة، وأن البكاء على الميت حرام.. هذه العقلية التي تقمصت العقلية العربية الغجرية ما كان لها أن تنتج فكرا إنسانيا بأي حال وما كان لها أن تبنى حضارة في إيجبت بأي حال (هذا نتاج تقمص العقلية والقومية العربية بدلا من استيراد الدين فقط). وهنا سمع فتواه جدنا الملك الأكبر رمسيس الثاني فبكى على أحوال أحفاده الجبتيين، وأطلق وصيته لابنه المقبل على تولي العرش، فقال:

" يا بُني.. كميت أرضٌ لا تموت.. وشعبٌ لا يندثر.. ونورٌ قد يخفت.. لكنه لا يُظلم أبدا.. فحافظ عليها ".

****



---

١٥ ـ دكتور حسين دقيل: كاتب متخصص في الكتابات الأدبية ، حاصل على الدكتوراه في الآثار ، والدراسات العليا في التربية قسم اللغة العربية ـ في مقال له بعنوان " من أخلاق الجبتيين القدماء ج(٨) الحلم والأناة" منشور بموقع ساسة بوست بتاريخ ٢ يوليو ٢٠١٨ على الرابط التالي

"https://www.sasapost.com/opinion/from-the-morals-of-the-ancient-egyptians-8-dream-and-patience،

– نقلا عن مصادره: أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة: عبد المنعم أبوبكر ومحمد أنور شكرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧

الإضاءة الثانية

مسقط رأسي على المجتمع العربي من منظور حضاري

عادة ما تنهض الشعوب وتبني حضارات وتتوسع سياسيا وجغرافيا لحقبة من الزمن، وبذات القدر ترتقي رأسيا من حيث معدلات الإنتاج المعرفي والفكري والإبداع العلمي، لكن هناك نوعية من الشعوب تتوسع أفقيا وتنبطح أرضا دون أن ترتقي رأسيا، وعادة ما تكون أعمارها قصيرة جدا مثل دولة المغول والهكسوس والعرب.

١ـ تأسيس الدولة العربية

حدثت ثورة دينية في جزيرة العرب بدأت بنزول الوحي على الرسول الكريم وانتهت بوفاته، وقابلها العرب بثورة مضادة من فلول قريش ما لبثت أن تغلبت على أصحابه، وساعد في تفوق الثورة المضادة انحراف العقلية الجمعية ذاتها عن الإسلام وانشقاق صفوف الصحابة، حتى أن الكثير منهم انضم لحزب الفلول القرشية بقيادة معاوية أبي سفيان، ما مكن قريش من استعادة السيطرة على العرب، لكن في الصورة الجديدة بعد أن وحد الرسول شبكة من القبائل. ذلك لأن حالة الثورة بطبيعتها موجية تبدأ فجأة وترتفع إلى عنان السماء ثم تهوي، وهو ما حدث مع صحابة رسول الله، إذ تضامنوا وتحابوا وتناصروا خلال الهجرة وبعدها، فتح الأنصار بيوتهم للمهاجرين واقتسموا معهم أموالهم وزوجوهم بناتهم، ثم بمجرد وفاة الرسول فكر الأنصار قبل دفنه في الاستئثار بالسلطة، واجتمعوا في نادٍ بحيَ من أحيائهم واتفقوا على اختيار أمير من أهل البلد ضمانا لعدم وصول أحد المهاجرين (القرشيين) إلى الحكم، وهو ما يعد حركة جماعية مضادة تماما لما حدث عند استقبال الرسول وتآلف الأنصار والمهاجرين. وللمتخصصين في علم النفس أن يعيدوا النظر في تلك الظاهرة، فالانقلاب والتحول جاء نفسيا من النقيض إلى النقيض، وهذا من طبيعة النفسية العربية، أيا كانت طبيعة المنهج أو الديانة، فلم يكونوا يقبلوا أن يحكمهم أحد من المهاجرين من قريش الذين منهم كبار الصحابة (عمر وأبي بكر وعثمان وعلي وغيرهم)، وهنا انفرط عقد المحبة والتضامن الذي نسجه الرسول على مدار ثلاثة وعشرين عاما، وهذا من الطبيعي أن يحدث لأن النبي لم يكن يبني حجرا على حجر، وإنما يروض نفوسا بشرية مستعصية.

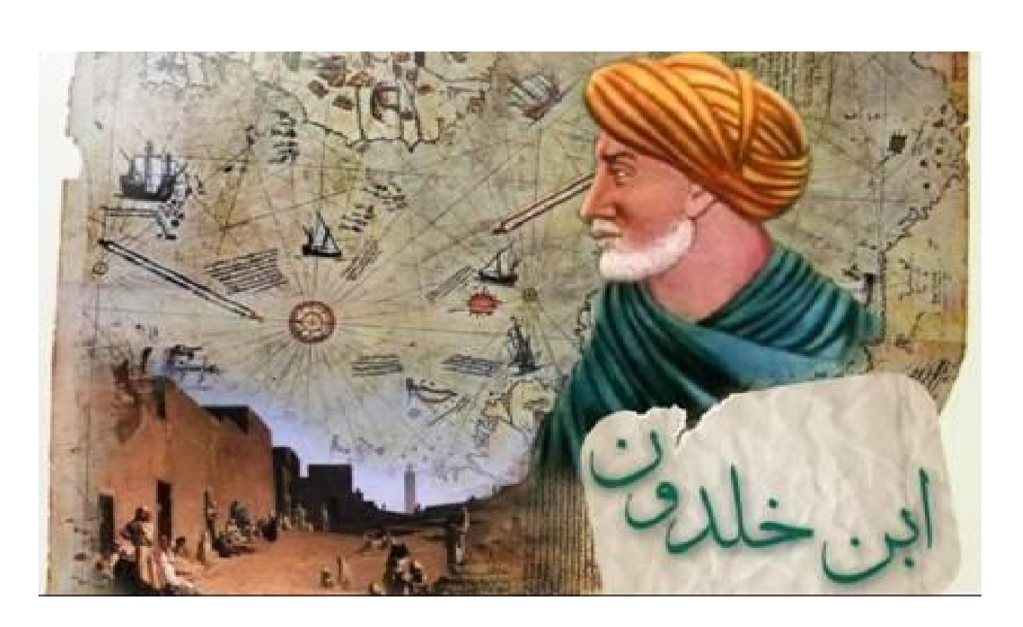
بعدها تصارع خليفة العرب الأول أبي بكر الصديق مع المعارضين له وتخلص من معارضتهم بالقوة العسكرية، ثم تصارع عثمان مع معارضيه وطلب لهم الجيش فعجلوا بقتله قبل أن يصل الجيش، ثم تصارع علي أبي طالب وطلحة والزبير والسيدة عائشة، ثم معاوية أبي سفيان وأعوانه من الصحابة، وانقسم المجتمع قسمين على أساس قبلي طائفي حزبي واشتعلت بينهم فتنة تبعها معارك تقابل فيها الصحابة وجها لوجه بالسيوف والخناجر، وانتصر علي أبي طالب، وراح ضحية هذه المعارك والحروب الأهلية ما يقارب المائة وعشرين ألف صحابي. وبعد وقتٍ وجيز قتل عليَ وصعد معاوية إلى الحكم وبدأ مشروع توريث السلطة باعتباره أحد الطقوس الدينية. استخدم معاوية سليل الفلول الدين كعلامة تجارية للتسويق لحكمه مستعينا بصديقه الودود أبي هريرة الدوسي.

وفي هذا السياق لا بد أن نوضح أنه ليست هناك أي صلة بين الثقافة الدينية وبين الحضارة البشرية والعمران، إلا بقدر اقتران القلب بالرئة واتصالهما معا بالجهاز الدوري والعصبي رغم انفصالهما عضويا، فالدين يحث كافة الناس على الفضيلة، والمجتمع أيا كانت ديانته وأيا كانت ثقافته الأدبية، هذه الثقافات الأدبية لا تبني حضارات، والدين ليس كتالوج حضارات، لأن الحضارة في حد ذاتها هي جهد بشري، فالصينيون قديما شيدوا حضارة وابتكروا صناعة الورق والنسيج من تدجين دود القز وابتكروا صناعة الورق والكتابة وتقدموا في الطب وهم يعبدون الأوهام. والفراعنة شيدوا حضارة عظيمة وهم يعبدون الشمس، والرومان شيدوا حضارة وهم يعبدون الكواكب، والفرس شيدوا حضارة وهم يعبدون النار. أما العرب فقد استخدموا دينهم في الترويج لدولتهم فأساءوا إليه.

بل إنه عندما جاءهم الرسول لم تكن مهمته أن يعلمهم قواعد البناء والعمارة والهندسة أو الزراعة، فقط إصلاح نفوسهم وفسادهم الخلقي والعقائدي، قضى النبي بينهم ثلاثة وعشرين عاما لم يقم فيها أي مظهر من مظاهر الإنتاج أو الصناعة أو الزراعة، لأن رسالته هي الدين والعقيدة والفضيلة، وهي غذاء روحي للغني والفقير على حد السواء، ولا علاقة بين الفضيلة والغنى أو الفقر، فالفقير قد يكون أكثر فضيلة من الغني، أما الحضارة والعمران فهي رسالة العقول ذاتها وجهدها المستمر، وقد بدأها العرب بعد وفاة الرسول، لكن العرب بطبيعتهم الفطرية ليسو من شعوب الحضارات والعمران بل من شعوب السطو والسيطرة. ولهذا قامت حضارتهم على جهد غيرهم، كانت سواعدهم ماهرة فقط في القتل والذبح والسيطرة، لم يبرعوا في الفقه بقدر ما برعوا في الإغارة والفروسية، ثم قالوا أن ذلك كان جهاد من أجل الله، بينما كانت هي حرفتهم يتقاضون عليها رواتب شهرية بالإضافة إلى حصص من عوائد السلب والنهب والسبايا.

ولذلك يقول ابن خلدون في مقدمته لعلم الاجتماع: (في باب.. أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب) - والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة، وكان عندهم ملذوذ لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد لسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران. فالحجر مثلا أنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي القدر، فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك. والخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران، هذا في حالهم على العموم. أيضا من طبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وأن رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون

انتهبوه. لا يكلفون على أهل ألأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم ولا يرون لها قيمة ولا قسطا من الأجر والثمن. ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض أنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهبا وغرامة. وأيضا فهم متنافسون في الرئاسة وقلَ أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل وعلى كره من أجل الحياء، فيتعدد الحكام منهم والأمراء وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام.. فيفسد العمران وينقض"(١٦).



ونظرا لأن ابن خلدون تنقل في كثير من أقطار الدولة العربية من تونس إلى الأندلس إلى المغرب وتونس مرة أخرى ثم جاء إلى القاهرة وشارك مع الجبتين في حربهم ضد تيمور لينك بالشام ثم عاد واستقر بالقاهرة، وتعرف على العديد من المجتمعات واطلع على الكثير من كتب التاريخ ما وسع مداركه لمبادئ علم الاجتماع وفهم طبيعة الشعوب، وعمل بالعديد من الوظائف السياسية حتى وصل إلى الوزارة وتولى منصب القضاء في إيجبت وعمل أستاذا بالفقه المالكي بالأزهر، وكان مؤمنا بالمنهج التجريبي في الفكر بوجهٍ عام، ثم تفرغ كي يعصر ذهنه بعد تجربة الحياة، وضع موسوعة سياسية تاريخية اجتماعية تتكون من ستة مجلدات، ووضع لها مقدمة، جاءت هذه المقدمة في ستة أبواب، الباب الأول يتحدث عن العمران البشري والثاني عن العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية. أما الباب الثالث فخصص للدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية، وفي الباب الرابع تحدث عن العمران الحضري والبلدان والأمصار أما الباب الخامس فهو للصنائع والمعاش والكسب ووجوهه والباب السادس للعلوم واكتسابها وتعلمها... وضع ابن خلدون نظرية في علم الاجتماع ما

(١٦)ابن خلدون – تاريخ ابن خلدون ـ الفصل السادس والعشرون (١٤٩ ـ ١٥٠

زالت تدرس في الجامعات حتى بعد ألف سنة من وفاته، ووضع نظريته في السياسة ونظرية في الاقتصاد، وكذلك وضع نظريته في العقلية العربية، وكانت نظرته ثاقبة ما رفع مقامه ليصل لخانة أفضل فلاسفة العالم..

ومن الملاحظ أن هذا الكلام كتبه ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع في القرن الثالث عشر أي في أوج ازدهار الدولة العباسية في العراق، وازدهار الدولة الأموية في الأندلس، وهذا ما يؤكد أن هذه النهضة لم تكن من بناة أفكار العرب، ولم يكن علماءها عرب بل جميعهم أعاجم، ولم تنشأ بسواعدهم ولكن هجموا هم عليها وسيطروا عليها بالقوة والهمجية. كتب ابن خلدون هذا الكلام في عز ازدهار دولة العرب، ولم يذكر لهم أي قيمة علمية أو إنسانية، لأنهم بالفعل لم يتحلوا بأي قيم إنسانية.. فقط كل ما لديهم هو الخيل والليل والبيداء.. السيف والرمح والفروسية..

ما نود توضيحه في هذا المقام أن الرسول لم يأت ليعلم العرب فنون الغزل والنسيج وصناعة الورق أو كيفية بناء الحضارات، هو جاء برسالة سماوية لضبط السلوك البشري والفكر العقائدي على عقيدة التوحيد، جاء ليرسي مبادئ أخلاقية لكافة الشعوب والحضارات، العرب وغيرهم من الجبتين والصينيين والهنود والأوروبيين..إلخ. بينما الحضارات تحتاج إلى جهد بشري في البناء والتعمير والهندسة والفلك والطب، هذا الجهد يبذله شعب معين سواء كان العرب أو الجبتين أو الصينيين والهنود أو الأوروبيين..إلخ، لأن كل شعب هو نسيج حيوي مختلف عن غيره من الشعوب وله آلية عمل وحياة وملاءمة وظيفية تنسجم مع تكوينه النفسي والفكري وتتلاءم مع معطياته البيئية، ولذلك إن أمكن توحيد الأديان فلا يمكن توحيد كتالوج الحضارات. ولم يكن النبي يمارس سلطة حكم سياسي بالمعنى الدقيق لذلك العصر، بل كان محافظا على دوره في المجتمع، دوره الدعوي، وهو دور ثقافي اجتماعي أكثر منه سياسي، والنبي عليه السلام لم ينشئ دولة بمؤسسات نظامية، ولكنه أسس مجتمعا، ووحد القبائل على رابطة ثقافية واجتماعية متينة، ما أهل هذا المجتمع بعد رحيله ليحيا كغيره من الشعوب ويؤسس دولة كما غيره من الدول.

بدأ تأسيس نواة هذه الدولة في عهد الخليفة أبي بكر الصديق، حينما وجه الجيش لإخضاع المعارضين له بالقوة، ثم لضم مزيد من البلاد وإخضاعها لسلطانه، تولى إدارة المال العام بنفسه، وكان حاكما بالمعنى السياسي لا الديني، برغم أن الفقهاء استحبوا بعد ذلك تلقيبه بلقب "خليفة" لرسول الله، لكنه وقتها كان مجرد أمير وحاكم بالمفهوم السياسي لا الديني، لأنه تولى إدارة شؤون المجتمع

والجيش والمال العام، ولم يكن المتخصص في الفتوى بالحلال والحرام، حتى وإن اهتم بتنفيذ الأحكام والفصل بين الناس فذلك دور الحاكم السياسي، ولم يكن نائبا عن النبي، وما كان لنبي أن يكون له نائب ديني يتولى الحديث باسمه، بل إنه بدأ دولته بتكوين جيش بصفة دائمة ومستمرة، لأن النبي لم يؤسس جيش نظامي، ولكن كان المؤمنون يتجهزون وقت الضرورة فقط للدفاع عن أنفسهم وأعراضهم وعن النبي، جميع أفراد المجتمع كان مكلفا بالجهاد، لكن في عهد الخليفة بدأ تخصيص أفراد الجيش وقواده بصفة دائمة، واستخدم الجيش لأول مرة في قمع المعارضين، ثم انتقل لضم مزيد من الرقع الجغرافية لتزداد مساحة الدولة ونفوذها بضم الشعوب المجاورة لسلطانها.

وفي عهد الخليفة الثاني عمر الخطاب بدأ تأسيس الدولة بالمفهوم السياسي، منظومة قانونية متواضعة، بدأت بنظام العسس والحسبة وهم مراقبي الأسواق العامة، باعتبارهم موظفين عموميين دائمين ولهم رواتب ثابتة يتقاضونها من المال العام، وفي عهد عمر بدأ إنشاء منظومة عقابية، ولأول مرة عرف العرب نظام السجون العقابية كمؤسسة عامة ورسمية، وكذلك بدأ توزيع الولاة والحكام على البلاد ومساءلتهم عن جمع الضريبة العامة، وهنا بدأت تتشكل ملامح دولة للعرب من خارجها، لأن شعوب العالم التي أسست دولا وإمبراطوريات قبلهم كانت قد سبقتهم كثيرا جدا في تنظيم الدولة، ولذلك اقتبسوا كل أدوات ووسائل الحكم وحتى مصادر الدخل القومي جاء جاهزا من الخارج، فلم يقم أي نشاط اقتصادي أو علمي داخل شبه الجزيرة، لأن نشاطهم الرئيس كان إما الرعي وإما التجارة وإما الإغارة.. وهذه الأنشطة لا تصلح لبناء دولة وحضارة، فتحللوا منها جميعا وأبقوا على النشاط الأخير " الإغارة " في صورة جديدة هي " الجهاد"، وهذا النشاط الاقتصادي الوحيد قامت عليه دولة العرب.

عندما اتسعت أقاليم الدولة نتيجة انتشار العرب في الأقاليم المتاخمة لشبه الجزيرة العربية، اتجه عمر الخطاب إلى تقسيم البلاد المحتلة إلى خمس مناطق كبيرة تنقسم بدورها إلى ولايات، ووضع على كل إقليم واليا لإدارة شؤون الولاية وتحصيل الضرائب من أهلها. و كان له مُفوَضون رسميُون يسافِرُون إلى البلاد ويراجعون أعمال الوُلاة، وحدد لهم مرتباتٍ ثابتة.

أدرك عمر أهمية التنظيم العسكري، لذلك أوجد فرقا نظامية تقدَر كل منها بأربعة آلاف فارس لترابط في كل بلد، وهذا يعني تأسيس جيش نظامي ثابت يُقدَر باثني وثلاثين ألف فارس عدا المشاة والمتطوعين، ونظم الرتب في الجيش مثل "أمير الجيش" على عشرة آلاف أو تزيد، و"أمير الكردوس" على

ألف، و"القائد" على مئة، وعرف الجيش خلال هذا العهد استخدام أسلحة الحصار التي اقتبست عن الروم، ومنها المنجنيق وأبراج الحصار والدبابة وأكباش الدك. وأصدر عمر أيضًا أمرًا بوجوب تدريب الجنود على ركوب الخيل والرماية والمشي حفاة والسباحة، وأنشأ مراكز عسكرية في المدينة والكوفة والبصرة والموصل والفسطاط ودمشق والأردن وفلسطين، بنيت فيها ثكنات مخصصة لإقامة العساكر، وحل مصطلح "العساكر" محل المؤمنين والمجاهدين في عهد النبي، وأصبحت الجندية عمل احترافي مستمر ومصدر دخل لهم، كما شيدت اصطبلات كبيرة يأوي كل منها قرابة أربعة آلاف حصان مخصصة لدعم الجند عند الحاجة. بالإضافة إلى المراكز العسكرية، وأنشأ معسكرات في المدن الكبيرة والأماكن ذات الأهمية الاستراتيجية. كما أنشأ عمر ديوان الجند وكفل للجنود معيشتهم ومعيشة عائلاتهم، مقابل انصرافهم إلى أعمال الجندية.

وهذا التنظيم بالطبع يختلف عن عهد النبي حيث كان عامة الناس يجاهدون في سبيل الله بأموالهم قبل أنفسهم وليس في سبيل أرزاقهم ومرتباتهم، ولم تكن الجندية مصدر دخل لهم. ولم يكن الجهاد في عهد النبي مهنة ووظيفة ثابتة. وهذا ما يؤكد أن التنظيم السياسي والعسكري لدولة العرب مستقل ومختلف شكلا وموضوعا عن عهد النبوة والدعوة المحمدية، وهذا التنظيم سياسي عسكري عربي وليس منشأه الدين، بل هو ملامح دولة وقومية عربية تتشكل وفق الطموح والمعطيات السياسية والعسكرية دون أن يكون للدين دور في ذلك.. بل إن هذا التنظيم السياسي والعسكري لا يختلف كثيرا عما فعله الإسكندر الأكبر قبل أن ينزل الدين الإسلامي، فهذه طبيعة الشعوب في إدارة شؤونها ومصالحها وطموحاتها.

ونشأت الدواوين في عهد عمر نتيجة لاتساع الدولة واتصال العرب الفاتحين بالأنظمة الفارسية والبيزنطية في الأقاليم والتعرف على حضارتها، فانتقوا منها ما وجدوه ملائمًا للاقتباس، كما أبقوا على الكثير من الأنظمة الإدارية التي ثبت لهم صلاحيتها. ومن هذه الدواوين: ديوان الإنشاء، وهو ديوان المراسلات الإدارية، ثم أنشأ ديوان العطاء وديوان الجند الذي سجل فيه أسماء المقاتلين، ووجهتهم، ومقدار مرتباتهم وحصصهم من عوائد الجيش، وديوان الجباية الهادف إلى إحصاء خراج وضرائب البلاد المفتوحة، وتنظيم الإنفاق منها، وذلك بعد أن وردت الأموال الكثيرة إلى المدينة مركز الدولة العربية بعد فتح الشام والعراق وفارس وإيجبت، فبدأت فكرة إنشاء مثل هذه الدواوين لإحصاء الأموال وطريقة

توزيعها. وكان ذلك تمهيداً لإنشاء "بيت المال" أو "ديوان الأموال" الذي يمكن اعتباره بمثابة أول وزارة للمالية. وقد اهتمّ عمر بالأموال الواردة للدولة. وأبقى على النقود الذهبية والفضية التي كانت متداولة وعليها نقوش مسيحية أو فارسية، لكنه أضاف إلى هذه النقود البيزنطية والفارسية كلمة "جائز" ليميزها عن النقود الزائفة. ومع ذلك يعتبر عمر أول من سك عملة معتمداً النقش الفارسي وأضاف إليها عبارة "الحمد لله" وفي بعضها "لا إله إلا الله" وعلى جزء منها اسم "عمر".



بينما الجبتين بغض النظر عن كونهم أول من سك العملة في التاريخ كان لديهم نظام في سك العملة الوطنية ولم يعتمدوا على أية تقنيات مستوردة في بناء دولتهم، لأن عملية البناء عند الجبتين كانت تتم بسواعدهم لا بسواعد غيرهم، وبعقولهم لا بعقول غيرهم ولهذا استمرت حضارتهم عدة آلاف عام في قمتها، ذلك لأنها قامت على نظام اقتصادي حلال مقارنة بالنظام الاقتصادي الذي اعتمده الصحابة في بناء دولتهم. فقد ورد في بردية بولاق Papyrus Boulaq للمقاييس عام ٢١٠٠ ق.م خبرا عن العملة الجبتية القديمة، وأن واحد ديبن = ٢٧ جرام، ويقسم الديبن إلى إثنين كيدت kidet والكيدت يساوي = ١٣,٦ غرام، ويقسم الكيدت إلى إثنين سينو Senyu والسينو يساوي = ٦,٨ جرام، ويقسم السينو إلى إثنين بارة Copper والبارة يساوي = ٣,٤ جرام، ويقسم البارة إلى ٢ شعت والشعت = ١,٧ جرام (سحتوت Shaty) ثم تغيرت هذه المقاييس إلى النظام العشري عام ١٥٥٠ ق.م تقريبا.



ثم في عصور لاحقه أصبح واحد ديبن = ٩١ جرام، والكيدت = ٩ جرام، والسينو = ٠,٩ جرام، والباره = ٠,١ جرام . وكانت تسك عملة الديبن في منف (ممفيس) قديما. وورد ذكر عملة الديبن Deben في رسالة لموظف الجبتي يسمي "تحوت نخت" أرسله الملك للتفتيش عن الجسور المقامة علي نهر النيل في النوبة ودفع إيجارها المطلوب في صورة عملات من الديبن وبعض نتاج الزراعة من المحاصيل . وكانوا يسجلون على العملة قيمتها وتاريخ سكها واسم وصورة الملك. وهناك ورقة بردى مشهورة باسم (بردية اللاهون Lahun Papyrus) تؤكد تداول الوحدة النقدية (شحاتShaty) وبها تفصيلات استخدامها: ورد فيها أن قيمة أجر الخادمة عن استخدامها يومين فقط ثوب قيمته ٣,٥ سحتوت.. وحددوا قيمة البضائع بالعملات الذهبية والفضية[١٧].

ليس هذا فقط، بل كان هناك نظام لتوحيد الموازين ومعايير القياس في إيجبت القديمة، وهو ما يُعرف في عصرنا بالكيلو جرام، وهذا يقابل "صواع الملك" الذي ذكر في القرآن في قصة يوسف حيث كان العرب والسريان يكتالون بالصاع وهو حجم وليس وزن، أو يتبادلون سلعهم بالمقايضة.. بينما كان الجبتيون يعتمدون معايير رسمية بأوامر تصدر من الملك أو من جهة حكومية معتمدة مثل مصلحة المعايير والمقاييس حاليا، وكانت مثل هذه المعايير تختم بخاتم الملك. وما يظهر في الصورة هذه التحفه الفنية المزينة بأجمل النقوش الفرعونية ما هي سوي مكيال عند الفراعنة أو معيار ثابت للوزن.. المكيال الأول: باللون الفاتح يعود للأسرة الخامسة ويزن (٥) ديبن والديبن يساوي ٩١ جرام أي أنها تعادل ٤٥٥ جرام، والمكيال الثاني:باللون الغامق يزن (٧٠) ديبن أي ما يعادل ٦ كيلو و ٣٧٠ جرام

(١٧) ـ المصادر: موسوعة مصر القديمة ؛ سليم حسن – آثار الإسكندرية القديمة ؛ عزت قادوس – أخناتون وديانة النور ؛ إريك هورونونج



إلى هنا يتضح أمام القارئ أن الدولة العربية لها خصوصية فريدة من نوعها، فجميع الحضارات التي قامت قبلها كان لها نشاط أساسي مركزي تقوم عليه ويتشكل نظام الحكم المركزي، فالحضارة الرومانية نهضت في قرية زراعية في روما ثم توسعت، وبعد ثلاثمائة عام من الزمن بدأت عملية التوسع الجغرافي بضم الأقاليم المجاورة لسيادة الدولة، ثم ارتقت علميا وفنيا ومعماريا وأبدعت في فنون الصياغة القانونية، وكذلك الحضارة الجبتية قامت في إيجبت وتأسست عاصمتها بكل أجهزة الدولة ومؤسساتها، كان نشاطها الثقافي والاقتصادي مركزي نابع من داخل إيجبت وبسواعد أبنائها، ثم بعد مرور ألف عام من الزمن بدأت عملية التوسع الجغرافي بضم الأقاليم المجاورة للسيادة الجبتية في عهد تحتمس الثالث. وكذا الحضارة الأوروبية الحديثة نهضت منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي واستمرت في الارتقاء والتحضر، ثم بعد مرور أربعمائة عام من الزمن بدأت عملية التوسع الجغرافي لضم أقاليم جديدة، لكن كان نشاطها الثقافي والاقتصادي مركزي نابع من داخل بلادها، وفي كل الأحوال كان المحتل أرقى ثقافة وأكثر تحضرا من البلاد التي ذهب لاحتلالها والاستفادة من ثرواتها، وفي كل الأحوال كانت الشعوب الخاضعة للاحتلال تستفيد من المستعمر ثقافيا وتقنيا لأن حضارته نهضت ونضجت في بلاده قبل أن يفكر في احتلال غيره.

بينما دولة العرب كما رأينا قامت وتأسست دواوينها ومؤسساتها على عوائد الجيش من الخارج مبدئيا، أي أن مصدر الدخل القومي بالكامل جاء من خارج شبه الجزيرة العربية، ولم يكن لها نشاط اقتصادي مركزي، بل كان تزايد حجم الواردات من الخارج هو الدافع إلى إنشاء ميزانية للدولة"

بيت المال الحرام"[18] فيقول الحكيم الجبتي«آمون أم أوبي» محذرا ابنه من اغتصاب مال الغير فيقول: ... المال المغتصب ليس فيه متعة لك، وينصحه بالعمل حتى يكون قادرا على العطاء ولا يطلب شيئا من أحد؛ فيقول: ازرع الحقول حتى يمكنك أن تجد ما تحتاج إليه، وتجني خبزك من حرثك، وأن المكيال الذي يعطيه الرب خير لك من ٥ آلاف تكسبها بالبغي." إنما العرب قامت دولتهم بالكامل على البغي، وتم اقتباس عملتي الفرس والروم بحالتها وبنقشها المسيحي، مع إضافة عبارة (الحمد لله ـ عمر)، وتم اقتباس الأنظمة الإدارية والعسكرية من الحضارات المجاورة، فلم يكن للعرب نشاط مركزي سوى الإغارة وهي نشاطهم الاقتصادي المركزي الرئيس الذي قامت عليه الدولة، أما الدين فقد كان وسيلة، ولا يمكن اعتبار العرب أن مركز نشاطهم الثقافي كان هو الدين الإسلامي وميراث النبوة؛ لأنهم لم يبرعوا فيه ولم يتفقهوا فيه، بل جاء العبيد الذين جلبهم العرب من بلادهم ولملموا ميراث النبوة من بين العرب وصانوه. ولو كانت هذه الفتوحات لنشر الدين لكان أولى أن من يهتم بصيانة الدين وحفظ ميراث النبوة هم العرب أنفسهم لا العبيد الأجانب، كان متوقعا من العرب وخصوصا أنهم أصحاب اللغة وأهل الدين أن يعرفوا قيمته أكثر من العبيد الأعاجم وأن ينموه ويصونوه ويتفقهوا فيه ليصدروه لشعوب العالم. لكن ما حدث كان العكس تماما، فلم تثمر الثقافة الدينية في بلادهم المنشأ ولكن أثمرت في البلاد التي احتلوها وعلى يد أعاجم لا يتحدثون لغتهم.

---

١٨ ـ (وبالنظر إلى القومية العربية بشمولية (كمجتمع)، وما قيل عنه من كرم وعن كرم حاتم الطائي وما قيل فيه من شعر، ما كان هذا الكرم العربي إلا نفاقا بدافع التفضل على الناس وليس فضيلة؛ لأن القومية العربية والدولة العربية لو كانت كريمة لكان عنوانها الكرم، ولكانوا أكرموا الشعوب المجاورة لهم، أما وأنها قامت ميزانيتها بالكامل على المال المنهوب، فما محله من الكرم ؟ وهذا في حد ذاته يؤكد أن الكرم العربي ما كان إلا نفاقا .. فالكرم ذاته كان أداة من أدوات الكبرياء والغرور والتعالي العربي.. بل إننا لو عدنا إلى كتابات ابن خلدون عن العرب وحدودهم في نهب أموال الناس لعرفنا منبع الكرم العربي الذي طالما حدثونا عنه في كتب التاريخ العربي ..

٢ـ حركة الصعود المفاجئ لدولة العرب

المراقب لحركة الصعود المفاجئ للدولة العربية – برغم اعتزازنا بشخصية عمر الخطاب سيجد أن دولة العرب وحضارتهم قامت على أكتاف الغير، اقتصاديا وثقافيا وفكريا وعلميا، فقط الهوجة العسكرية الأولى كانت عربية، فلم يكن لهم أي نشاط مركزي متميزين فيه سوى الحرب والفروسية والجباية، كانت الدولة التي أسسها عمر الخطاب في الواقع نتيجة مباشرة لعمليات الغزو وليست نتيجة نشاط نابع من الداخل، وكانت ذات تنظيم سياسي عسكري دقيق، فعمر أنشأ مؤسسات الدولة بناء على ظروف عصره ومجتمعه ومنظوره وطموحه السياسي والعسكري دون أن يكون للدين دخل في هذا التنظيم، لأنه اقتبس هذا التنظيم من الخارج، ولأنه واصل حركة الغزو التوسعي الاستعماري ككل القادة وزعماء الحضارات البشرية عبر التاريخ، حتى أنه اقتبس كل أدوات الدولة السياسية والعسكرية والإدارية والاقتصادية من الشعوب المجاورة له، وفرض عليهم ضرائب موسمية، "الخراج" ليكون مصدر الدخل القومي الثابت للعرب، وهذا تنظيم سياسي لا علاقة له بالدين، أي تختص به الدراسات التاريخية والقومية السعودية لا الدين الإسلامي، فالدين تاريخه منحصر في النبوة، ولا صلة له بتاريخ الفراعنة ولا تاريخ العرب ولا تاريخ العثمانيين، فكل الشعوب تبنى دولها وحضاراتها وفقا لمعطياتها.

بالطبع أحدث الإسلام ثورة دينية وأخلاقية في المجتمع العربي، نقلت المجتمع العربي من الهمجية إلى القيم السامية، وحدثت حركة هجرة جماهيرية في المكان والزمان، حتى عمر الخطاب نفسه كان ضمن هذه الحركة، فقد كان أكثر العرب معاداة للإسلام والمسلمين وقد دبر أكثر من محاولة لاغتيال النبي قبل إسلامه دفاعا عن آلهة العرب اللات والعزى، ثم أسلم وانضم لحزب النبي، لكن عمر كان رجل دولة في الأساس، فلم يبرز له دور كما أبي هريرة في رواية الحديث وتفسير القرآن كابن عباس وابن مسعود، بقدر ما ظهر دوره في التنظيم السياسي العربي ناجحا. لكن هذه الثورة الدينية ما لبثت أن صعدت قمتها ثم عادت لتهوي إلى الأرض مرة أخرى وتدفن في الأرض، وقابلتها ثورة مضادة تغلبت عليها وركبتها وتربعت بالكامل عندما وصل بنو أمية إلى سدة الحكم فسادت وطأة الثورة المضادة على المشهد، ثم تصارع معها حزب آخر من الثورة المضادة هم بنو العباس، أعلنوا ثورتهم من خراسان ثم انطلقوا زاحفين إلى قصور الحكم في الشام وذبحوا وأعدموا كل من وجدوه من سلالة بني أمية، كان موسم الذبح العباسي للأمويين أكثر غزارة في الدماء من عيد الأضحى.. في كل بيتٍ كانت هناك مذبحة.. وحتى الهياكل أخرجوها من قبورها وأعدموها

لتكون العبرة للجميع.. ومن وصل إلى الحكم بهذه الطريقة البشعة لا يمكن أن يحكم دولة في سلام، ولا يمكن أن يمثل الإسلام فيما بعد وصوله للحكم، وما لبث العباسيون أن تربعوا على سدة الحكم وكان أول إنجازات هذه الثورة هو قتل مفجرها أبو مسلم الخراساني، واستمرت النزاعات على السلطة داخل الأسرة الحاكمة فترة من الزمان وصلت إلى أربعمائة عام حتى جاء المغول في القرن الثالث عشر الميلادي وأعدموا ما تبقى منهم، وهدموا الدولة العربية وأرقدوها إلى الأبد..

ومع ذلك نجد أن الفقهاء يتبركون بتسمية الهوجة العربية بأنها حضارة إسلامية، ربما لكي يشعروا أنفسهم بالعظمة والفخر، وربما من آثار الصدمة التي أصابتهم بمتلازمة "ستوكهولم العربية"، وهذه في حد ذاتها نزعة نفسية لا دينية، لأن الإسلام لن يتضرر إذا كانت هذه الحضارة متخلفة أو متحضرة لأنه في الأصل منهج عبادة وليس كتالوج حضارات وصناعة وتجارة وزراعة. وكما قلنا أن الأغنياء وأصحاب النفوذ ليسو أفضل تدينا من الفقراء، لكن الفقهاء يعشقون الافتخار بحضارة العباسيين وينسبونها إلى الدين، دون أن يدركوا أن ذلك يفتح الباب الخلفي لمن يقولون بأن الشعوب المتخلفة الآن سبب تخلفها هو الإسلام، فإذا كنا نحن نتباهى ونقول أن سبب تقدم العباسيين هو اتباعهم للإسلام وأن سبب تقدم الأندلسيين هو اتباعهم للإسلام، بينما في الواقع لم يكن العباسيين يعترفون بأي مبادئ ولا قيم إنسانية أصلا، وكذلك كان الأمويون في الأندلس عبارة عن حلبة صراع على النفوذ والسلطة دون أن يكون لهذا الدين أي وجود.. ودارت الأيام وما زال لدينا الإسلام لكن عجز جهدنا عن بناء حضارة متقدمة، فاتهمت الشعوب إسلامنا بأنه سبب تخلفنا، وما مقولتهم هذه إلا اشتقاقا من فخرنا السابق بحضارة العرب الجوفاء ونسبها للدين. وبالتالي علينا تنزيه المنهج عن روث الحضارات، خاصة حضارة العرب، حلوها ومرها لأنها في النهاية جهد بشري يصيبه المسلم وغير المسلم طالما أخذ بالأسباب وبذل الجهد.

بل إنهم العرب لم يشيّدوا حضارة من الأساس بالمعنى المتعارف عليه تاريخيا بين الشعوب، هم عاشوا جهلهم وهمجيتهم في شبه الجزيرة العربية قبل بعثة الرسول، وعاشت مجموعة منهم فترة الرسول في نقاء وصفاء روحي برعايته وتحت إشرافه، ثم ما لبثوا أن عادوا لعاداتهم القديمة واندمج وتوحد العرب فأصبحوا هجين ما بين المنهج الإسلامي والمنهج العربوي القديم، ولم يشيدوا حضارة بل سيطروا هم على الحضارة ومقدرات وثروات الشعوب المجاورة لهم (فارس والشام والعراق وإيجبت) هدموا إحداها أثناء الغزو (فارس) ونهبوها وسيطروا على الأخرى (العراق والشام) التي قبل أهلها الاستسلام حفاظا على بلادهم من همجية العرب، بينما أعدموا حضارة الهند القديمة، ما دفع الفلاسفة

والعلماء الهنود ليهربوا منهم إلى الجبال ويهجروا صوامعهم في المدن والقرى.. حدث ذلك خلال حقبة الحكم العباسي..

وما نلاحظه أن العرب لم يبدؤوا رحلتهم الحضارية ككل الشعوب، تبدأ بتأسيس نظام حكم مركزي، ثم تزدهر الأنشطة الاقتصادية والعلمية، ثم تبدأ حركة التوسع الجغرافي، لكن حضارة العرب بدأت بحركة عسكرية عنيفة ومفاجئة، فلم يبدأ الحكم المركزي على يد أبي بكر هادئا سليما ولكنه استقر تحت سطوة السيف، ثم تحولت السيوف إلى الشعوب المجاورة فأخضعتها، لم تبدأ دولة العرب بإنشاء مركز نشاط اقتصادي أو صناعي أو علمي أو بأي نشاط مدني، وإنما بدأ أولى مصادر الدخل القومي على عوائد أسواق النخاسة والنهب والسلب والسبايا.. بدأت دولة العرب تصعد فجأة بالقوة العسكرية وحدها.. بالمقارنة بين الحضارات (العربية والجبتية والإغريقية) نجد أن فعل المبادرة الحضارية الجبتية تبدأ بحركة عقلية علمية مدنية تنهض عليها الدولة، وليست البداية مبادرة عسكرية، بينما المبادرة العربية تبدأ بحركة عسكرية عنيفة خالية من أي نشاط مدني، كما رأينا طريقة تأسيس العرب لدولتهم على يد أبي بكر وعمر مقارنة بطريقة الجبتين الفراعنة في بناء دولتهم ومقارنة بطريقة الإغريق في بناء دولتهم.

لكن العرب لم يؤسسوا فكرا حضاريا في بلادهم، ولا في البلاد التي دخلوها، هم فقط سيطروا على حضارات قائمة فأفسدوا سياستها فعجلوا بهدمها، وسيطروا بعد ذلك على حضارة الأندلس، وظلت بلادهم على وضعها (مكة والمدينة والأحياء العربية المجاورة) برغم أنها مقرهم ومنشأهم الأصلي ولم تتعرض لأي نوع من الغزو، إلا غزوهم هم، إذ هجم عليها الأمويون وقتلوا، وهجم عليها العباسيون وقتلوا أحفاد الرسول وهدموها ونهبوها ليحكموا السيطرة في عاصمتهم في بغداد، ولم تتعرض منطقة الحجاز إلى احتلال خارجي أبدا لأنها لم يكن بها أي أطماع للغزو أصلا، سوى بعض البيوت التي شيدها كبار القوم ممن امتلأت حجورهم من عائدات أسواق النخاسة والسبي والسلب، ولا يمكن لعائدات أسواق النخاسة والجزية والجباية والإتاوة أن تبني حضارة.[١٩]

---

١٩ ـ حتى أن الغزو المغولي عندما اكتسح العراق، لم يفكر المغول في عاصمة العرب (شبه الجزيرة الحجازية) ولم يضعوها في حسبانهم باعتبارها مهدا لحضارة العرب ومقرهم ومنشأهم، بل فكروا فورا في مصر، برغم أن الجزيرة العربية أقرب، مروا عليها كمرورهم على المقابر وتركوها متجهين إلى مصر، واعترض قائدهم هولاكو عالم الاجتماع المغربي ابن خلدون في طريقه إلى الشام، وطلب منه أن يرسم له خريطة المنطقة، وقرر هولاكو الاستمرار في الزحف على مصر، فخرج له المصريون وهزموه في عين جالوت.

هكذا كانت طريقة إدارة العرب وسياستهم، وهكذا كانت أطماعهم وصراعاتهم على السلطة، وهكذا استغلوا دين النبي محمد عليه السلام في التسويق لنفوذ قريش في إيجبت وغيرها من الشعوب، قالوا بأنهم ينشرون الدين، بينما هم يحاربون جميع الشعوب على التوالي، ولم ينشروا الدين في بلدٍ دون احتلالها عسكريا وسياسيا واستنزافها اقتصاديا.

على كل حال، كان عمر الدولة العربية قصيرا جدا وتوقف عمرها على خمسمائة عام بالكاد وانقسمت إلى أربع دويلات متفرقة ومتصارعة مع بعضها.. ولم يكن لها مقر في بلادهم إلا واحدة منهم. بدأت بعد وفاة الرسول محمد عليه السلام ٦٠٩ ميلاديا، وانتهت بغزو المغول للعاصمة العربية عام ١٢٥٨ ميلاديا. بدأت الدولة العربية عاصمتها الأولى في المدينة لمدة ٢٤ سنة عهود أبي بكر وعمر وعثمان، وهي الدولة التي أسسها فعليا عمر الخطاب، ثم عشرة أعوام بالعراق في الكوفة عهد علي أبي طالب، حيث ترك مدينة رسول الله لأن العراق في هذا الوقت كانت مركز نشاط سياسي واقتصادي مقارنة بشبه الجزيرة، ورأى عليٌ أن المدينة لم تعد تمتلك المقومات التي تملكها بعض البلاد الأخرى في تلك المرحلة، فقال: (إن الرجال والأموال بالعراق)، وهذا ما يؤكد أن العراق كانت مركز نشاط سياسي وثقافي واقتصادي مقارنة ببلاد العرب، فانتقل إليها لإحكام السيطرة على الدولة التي توسعت أكثر من قدرة العرب على حكمها من داخل بلادهم.. فالعسكرية وسعت نطاق الحكم السياسي أبعد من تصوراتهم البدائية الساذجة، وبرغم اعتزازنا الشديد بشخصية علي ابن أبي طالب، كونه صحابي فدائي منذ بواكير طفولته، وكونه شاعر وأديب وحكيم مثقف، لكن ذلك لا يغني عن إعادة التقييم بمنظور عصره العربي وبمنظور عصر الفراعنة الجبتي وبمنظور الإسكندر الأكبر ..إلخ. كي نقف على الوضع الحقيقي بمسقطٍ رأسي..

ففي الواقع فإن الفلسفة التي تحرك بها علي لم تكن تحمل أي نظرة سياسية تتعلق بدولة وحضارة، إنما الأمر كان أشبه بسيطرة عصابية على مساحات من المراعي، مجرد استحواذ سياسي دون غاية بعد هذا الاستحواذ، ودون أي فكر أو نية أو فهم لمعنى بناء دولة أو إمبراطورية ومؤسسات ونظام حكم مدني، ولهذا ترك المدينة ومكة وتحرك إلى المستعمرة الأولى لهم وهي العراق ليحكم من هناك، بينما لو كانت لديه أي خلفية عن معنى الحضارة والدولة لكان استقر في المدينة وجعلها مركز النشاط أي قام بتحويل مركز النشاط الثقافي والاقتصادي والسياسي إلى الداخل مركز الدولة، إنما النية الجمعية لم تكن بناء بقدر ما كانت سيطرة وتحكم، ولهذا تنازعوا كثيرا على الحكم والتحكم... ثم انتزع معاوية الخلافة فنقل عاصمة الدولة إلى مقره

في دمشق إذ كانت مركز نشاط سياسي واقتصادي مقارنة بالركود الذي ساد شبه الجزيرة العربية، ثم اختطف بنو العباس الراية ونقلوا مقر العاصمة إلى بغداد، حيث كانت أكثر تحضرا من سواها، وانسلخ عبد الرحمن الداخل، وهو الوحيد الذي نجا من مذابح بني أمية، انتقل إلى الأندلس فاستقل بحكمها عن العباسيين في العراق، وأصبح بذلك هناك دولتين عربيتين مستقلتين متحاربتين متباعدتين الأولى في الشرق والثانية في الغرب وما بينهما بحرٌ طويل وصحارى شاسعة بطول البحر الأبيض المتوسط وعرضه.. حتى سقطت بغداد وسقط الأندلس بالتزامن ودون رابط بينها سوى نسيج العقلية العربية..

وهذا ما يبدوا جليا من المشهد المأخوذ بمسقط رأسي على الحضارات، فلكي نقول أنه قامت حضارة عربية، فلا بد على الأقل أن تتسم بوحدة ومركزية الحكم، كما كانت إيجبت الفرعونية، وليس المقصود بمركزية الحكم أن يكون ديكتاتوريا، بل أن يكون مركزيا من حيث وحدة الحاكم ومقر العاصمة والسياسة العليا والقانون والجيش، إنما في الواقع ما حدث في دولة العرب أنها لم تشهد وحدة في الحكم ولا في الحاكم ولا في الجيش ولا القانون ولا السياسة العليا، فالعواصم الأربعة للدولة العربية كانت متصارعة ضد بعضها البعض بسياسات متصارعة وقوانين متصارعة وجيوش منقسمة متصارعة وحكام مجانين متعددين، ولا توجد واحدة فيهم لم تقم بها ثورة أو حركة معادية ضد الأخرى أو محاولة للسيطرة على الأخرى والاستئثار بالحكم، وغالبا ما كانت تنتهي هذه الحركات المناهضة ببحورٍ من الدم العربي العربي. فالعاصمة الكوفية لم تقم إلا بعدما عجزت المدينة عن السيطرة على الوضع في الشام والعراق، والعاصمة الأموية في دمشق لم تقم إلا بعد تصفية الكوفة والمدينة معا ببحور غزيرة من الدماء، والعاصمة العراقية لم تقم إلا بعد تصفية دمشق ببحور من الدماء، ثم لاحقا تصفية المدينة ببحور أخرى من الدماء، والعاصمة الأندلسية لم تقم إلا بعدما نجح صقر قريش في الهروب والإفلات من مذبحة العباسيين في دمشق.. ولم تستمر العاصمة الأندلسية إلا بعدما امتنع على العباسيين تصفيتها نتيجة وقوعها خلف البحار! ثم قامت ثورة فيها أدت إلى تفتيتها طوائف وولايات مستقلة !

خمسمائة عام هي عمر الهوجة العربية، لم يكد العرب أن ينعموا بالحضارة أو يعرفوا معنى الرقي الإنساني خارج بلادهم، ثم عادوا سريعا إلى القاع مرة أخرى، كما الثعلب الذي هبط من الجبل وهجم على غزالة يقتنص عنقها فاستعصت عليه فتركها وعاد من حيث أتى، لكنه ترك أنفاسه الجبلية النفاذة في المكان تنتشر مثل الغبار.. هذا الغبار الثقافي العربي ما زال يشكل ضبابا على

عقول أجيالنا حتى اليوم.. ثم يأتي فقهاء الأزهر ليقنعونا أنه كانت هناك دولة إسلامية ! فلماذا لم يقولوا أن حضارة الجبتين هي حضارة إسلامية؟ فقد كانت أفضل وأرقى ملايين المرات من حضارة العرب، وكانت دولة سلام مقارنة بالعرب، بل إن حضارة العرب عرفت الرق والعبودية والاسترقاق، إنما الحضارة الجبتية لم تعرف ظاهرة الرق والعبودية أصلا، لأن طبيعة الشعب الجبتية متسامحة متواضعة حتى على الأعمال اليدوية، بينما العرب يملأهم الغرور والصلف والاستعلاء والافتخار بالأصل والأنساب، ولهذا عرفوا ظاهرة الرق وظاهرة سبي النساء والأطفال، وما زال الفقهاء يلوثون الدين الإسلامي بهذا الإجرام العربي.. والسبب فقط لأن الفقهاء يستمدون بعض قواعدهم الفقهية من هذا التاريخ العربي، لأن الفقهاء القدامى والأئمة الأربعة اعتمدوا على ثقافة عصرهم وعاداتهم وظروفهم ومازال فقههم ساريا حتى اليوم، ومن هنا أصبح تاريخ العرب دينا للمصريين !

غير أن هذه الحضارة في الواقع لم تكن عربية الطابع، ولكنها وقعت تحت سيطرة العرب، أو دخلت ضمن الهيكل السياسي لدولة العرب، لأن العرب لو كانوا أصحاب حضارة لكانوا أقاموا عاصمتهم في بلادهم (شبه الجزيرة العربية – مكة والمدينة) ولم يكن ممكنا نقل مقر العاصمة إلى المستعمرات الجديدة سواء دمشق أو العراق، فالدول الاستعمارية لا تنقل عواصمها إلى مستعمراتها، بل تظل العاصمة هي مقر النشاط السياسي والاقتصادي والثقافي.

ليس تحيزا ضد العرب أو مع غيرهم، ففي الواقع لا صلة لنا نحن الجبتين بقومية العرب، فلم تنشأ جذورنا في شبه الجزيرة العربية، فحضارة الجبتين الفراعنة ازدهرت لأكثر من أربعة آلاف عام متوالية في القمة، وتنقلت عاصمتهم ومقر إدارتهم في عدة مدن متقاربة داخل إيجبت من عين شمس بالقاهرة إلى منف بالجيزة ثم عين شمس مرة أخرى، ثم طيبة بالأقصر، ثم تل العمارنة بالمنيا ثم طيبة بالأقصر مرة أخرى، ثم انتقلت إلى صان الحجر بمحافظة الشرقية، ثم إلى سمنود بمحافظة الغربية بالدلتا..



واستقرت مدافن الملوك جميعهم في البر الغربي بوادي الملوك والملكات كونه بعيدا عن فيضان النيل.. ولم تكن بينها أي صراعات سياسية لأنها لم تكن متزامنة بل متتابعة، ولم تشهد انقساما سياسيا أو عسكريا، بل كانت المنظومة العسكرية والقانونية والسياسية واحدة في كل أطراف الدولة.. هذه المدن كانت هي مراكز الحضارة الجبتية على طول عصورها، ولذلك استمرت ولم تنتقل عاصمة الفراعنة إلى السودان أو تشاد أو السعودية برغم وقوعها تحت السيادة الجبتية؛ لأن منشأ الحضارة كان بسواعد أبنائها وبأفكارهم وعقولهم، شيدوا أهراماتٍ عظيمة قامت على نظرية بناء هندسية فلكية عجيبة... ووضعوا خريطة للأبراج الفلكية.. واكتشفوا أسرار التحنيط.. وتركوا رسائل علمية في الطب النفسي وهو أرقى أنواع العلوم.. وقدسوا زهرة اللوتس النظيفة..

وكذلك حضارة العراق "البابلية والآشورية" استمرت الدولة البابلية في قمتها ألف ومائتي عام متواصلة في قمة ازدهارها، وكانت عاصمتها في مقرها بابل طوال حقبة الحضارة البابلية. وكذا قرينتها الآشورية في ذات الحقبة التاريخية، وكانت كتابة الآشوريين الكتابة المسمارية التي كانت تكتب علي ألواح الطين، وأشهر مخطوطاتها ملحمة جلجامش التي ورد بها الطوفان لأول مرة. وكانت علومهم مرتبطة بالزراعة ونظام العد الحسابي السومري الذي عرف بنظام الستينات، وكانوا

يعرفون أن الدائرة ٦٠ درجة، كما عرفوا الكسور والمربع والمكعب والجذر التربيعي، وتقدموا في الفلك وحسبوا محيط خمسة كواكب، وكان لهم تقويمهم القمري وقسموا السنة لشهور والشهور لأيام، وكان اليوم عندهم ١٢ ساعة والساعة ٣٠ دقيقة. وكانت مكتبة الملك آشور بانيبال من أشهر المكتبات في العالم القديم حيث جمع كل الألواح بها من شتى مكتبات بلاده.

وكذا الحضارة الأوروبية القديمة (الإغريق والرومان) قاربت على ألف وستمائة عام في قمة ازدهارها واستقرت عاصمتيها في أثينا و روما مقرا لها برغم امتداد سلطانهم إلى كثير من أطراف العالم. رحل الرومان والإغريق وتركوا للبشرية إرثا حضاريا عظيما لا تخطئه عين قارئ، فالحضارة الأوروبية الحديثة ارتكزت فعليا على منجزات الحضارة الرومانية الإغريقية القديمة بقدر أكبر من حضارة العرب، غير أن علماء الحضارة العربية لم يكونوا عرب وإنما شتات من بقايا الحضارات التي تطفل عليها العرب. وكذلك بالنسبة للحضارة الأوروبية الحديثة، لم نر عاصمة انتقلت من بلادها إلى إحدى المستعمرات التي سيطرت عليها، فلم تنتقل عاصمة الإمبراطورية البريطانية العظمى إلى السودان مثلا أو إلى إثيوبيا خلال فترة استعمارها، ظلت طوال عهدها على الأراضي الإنجليزية ذاته لأنها مركز النشاط الحضاري ثقافيا واقتصاديا، كانت العاصمة هي مانشستر حتى اشتعلت الثورة الصناعية الكبرى، ولما اسودت جدران المباني والعمائر من كثافة الدخان مع زيادة حجم النشاط الاقتصادي ودخول عصر الصناعة، انتقلت العاصمة إلى المدينة المجاورة لندن على حافة النهر لتبقى نظيفة من أثر الصناعة على البيئة.. بينما دولة العرب تنقلت عواصمها جميعا إلى المستعمرات، بدأت بالكوفة لأن فيها المال والرجال، ثم دمشق التي كانت مرتعا لجيش معاوية، ثم بغداد لأن هواءها طيب، وقرطبة لأنها بعيدة عن بغداد ! حتى التنظيم السياسي والإداري جاء متقلبا متصارعا كما طبائع العربي.

ولا بد من التفرقة بين حدثين مقترنين، هما حدث البعثة، أي الصحوة الدينية التي حدثت في المجتمع بظهور الرسول، وانطفاء شعلتها بوفاته، وحدث نهضة العرب بتأسيس دولة وتكوين جيش ونظام حكم ومؤسسات ودواوين، فهذان حدثان مقترنين لكنهما في الواقع مختلفين ومنفصلين تماما من حيث الرؤية والغاية والهدف والرسالة، لأن نظام الدولة والحضارة هو جهد بشري، بينما الرقي والسمو الأخلاقي الروحاني هو من أثر الرسالة والنبوية، فالنبي جاء ليعلمهم الصلاة والإيمان، بينما الحضارة تعلمهم الصناعة والزراعة وفنون العمارة والهندسة والفيزياء، هي في مجملها تقوم على العلوم العقلية لا العقائدية، وهذه ليست من اختصاصات النبي، كما غيره من الأنبياء أتوا إلى

الدنيا ودعوا مجتمعاتهم إلى توحيد عبادة الله، دون أن يكون لذلك أي أثر على أنظمة الحكم أو مستوى الحضارة التي يعشها كل مجتمع سواء من جانب سلطة الحكم أو من جانب الأنشطة الحضارية، فإبراهيم عليه السلام دعا قومه إلى عبادة الله ولم يعلمهم الصناعة والزراعة والهندسة، ونوح عليه السلام دعا شعبه لعبادة الله ولم تكن رسالته تعليمهم صناعة السفن برغم أنه كان نجارا ناجحا، وكذلك موسى عليه السلام ومن تبعه من أنبياء، وعيسى عليه السلام دعا إلى توحيد عبادة الله، ولم تكن له صلة بنظام الحكم السياسي، وجاء خاتم الرسل والأنبياء ليوحد كافة الرسالات والديانات، لا ليوحد أنظمة الحكم السياسية والعسكرية أو يشرعن فلسفة الإغارة والعدوان باسم الجهاد، وحد عبادة الله في الأرض، ولم تمتد رسالته أيضا إلى تعليم الصناعة الهندسة والطب والفلك أو فنون العمارة، ولم تتطرق إلى جانب العلوم العقلية والصناعة والحرف، لم تمتد رسالته إلى أي تنظيم سياسي، لأن ذلك يأتي تدريجيا بمجهود البشر أنفسهم وبالتجربة والخطأ وحسب ظروف المجتمع وإمكاناته وطموحاته وليس النبوة.. لكن العرب استخدموا اسم الدين لتسهيل السيطرة على الشعوب المجاورة؛ ولهذا ضخموا من الشخصيات السياسية والتاريخية بقداسة دينية.

أما محمد فهو نبي ورسول جاء بالسلام من أجل السلام ورحمة للعالمين. وما ميزه عن غيره من الأنبياء والرسل إلا كونه اعتصم بحق الدفاع الشرعي، واستخدام النبي للجيش لم يكن بهدف تأسيس مملكة أو إمبراطورية، ولكن فقط لضرورة الدفاع عن حق الوجود، فجميع الأنبياء الذين لم يكن لديهم قوة كافية لحمايتهم تم قتلهم، سيدنا إبراهيم تم حرقه.. وسيدنا عيسى تم قتله صلبا، وجميع أنبياء اليهود تم قتلهم، ولذلك لم يكتفي النبي محمد بالمقاومة والصبر، بل واجه من حاربوه وانتصر عليهم، وهذا ما يعني احتياجه لجيش يتولى الدفاع عن مجتمعه ودعوته، وليس لتأسيس دولة مؤسسات وحضارة للعرب. وفي ذات الوقت، فإن تأسيس الجيش هو خطوة سياسية ضرورية لبناء حضارة بشرية، فالجيش في حد ذاته ليس طقس ديني ولا شعيرة عبادة، ولا صلة له بالعبادة والتوحيد، لكن الرسالة كانت في أمس الحاجة إلى الدفاع عنها، ما اضطره لتكوين جيش بصورة مؤقتة يتشكل وينحل حسب الضرورة، حتى أنه تعرض لكثير من الحملات الحربية من المجتمعات المعاصرة له للقضاء عليه وعلى مجتمعه، وقد تحمل كثير من الضربات، وانتصر في غالبها.

وبعد وفاته استخدم العرب الأدوات التي تركها لهم النبي في تأسيس دولة يحكمونها وينعمون في ظلها بالسلطة والسيادة على غيرهم.. استخدموا الجيش والدين في بناء دولتهم، ولهذا قامت دولة العرب على الدين والحرب، ودمجوا الاثنين معا فخرج لنا الجهاد في سبيل الله، وبهذه الطريقة السحرية حوّل العرب هوايتهم الحربية إلى ركن في الدين والعبادة، حيث استمر هذا الجيش وتتابعت حملاته على الخارج وتتابع إنشاء المؤسسات العامة على ذات الشاكلة تستمد تمويلها من عوائد الجيش، ما يعني تأسيس دولة ونظام حكم. وكما هي العادة في كل الشعوب والحضارات، فإن بناء نظام حكم مركزي وجيش هو الخطوة الأولى لبناء دولة، وبرغم أن الرسول لم يبن جيشه بهدف بناء دولة ومؤسسات صناعة وتجارة، بل فقط كانت الضرورة له للدفاع. لكن هكذا بعض الشعوب تنشئ دولا لها بطرقٍ قصرية عجيبة، مثل دولة الكيان الصهيوني التي نشأت بجهاز الموساد، الذي مثل أكبر آلة قتل واغتيال في التاريخ.. هذا الجهاز اعتمد الإسرائيليون عليه بنسبة ٩٧,٥٪ في بناء الدولة ونسبة ٢,٥٪ بجهود العسكرية.

لكن العرب بعد وفاة الرسول استخدموا هذا الجيش في فرض السيطرة على الشعوب المجاورة، ما فتح مصادر غزيرة للدخل القومي وتضخمت الخزينة على أثر عائدات الغزو والسلب والنهب وعوائد أسواق النخاسة وحصيلة الجزية والزكاة والجبايات والأراضي التي تمت مصادرتها وبيعها ورصد ثمنها لخزينة الدولة (بيت المال وهو أول مؤسسة تعتبر نواة لمركزية الدولة بعد تكوين الجيش وسلطة الحكم المركزية، ولذلك نجد أبي بكر الصديق أصر بشدة على محاربة مانعي الزكاة حتى وإن كانوا مسلمين!)، وهنا بدأت تظهر ملامح الحضارة العربية. أي أن النبي ورسالته كان موضوعا مستقلا عن الحضارة العربية، والحضارة العربية ليست استرسالا للدعوة المحمدية.

فالرسالة هي هدي من الله لتوحيد العقيدة وإتقان العبادة والرقي الأخلاقي والفضيلة، بينما تأسيس دولة وحضارة هو جهد بشري غير متعلق بالرسالات السماوية، وكل ما حدث هو أن النبي محمد جمع القبائل العربية تحت لواء ديني اجتماعي، واضطر لتكوين جيش لصد الحملات التي تعرض لها، فاستغل العرب وحدة القبائل هذه واستخدموا هذا الجيش كنواة لتأسيس دولة ونظام، اعتمادا على عائدات الجيش الذي كان مصدر الدخل الوحيد للعرب من خارج بلادهم، وبعدما انتشرت حركات الغزو في كل اتجاه، هدموا كثير من الحضارات، بداية من الحضارة العراقية والحضارة الفارسية، أعدموها وخربوها تماما في سبيل توسعاتهم وفرض سلطاتهم وتحصيل العوائد، اعتبروا أن طعام الناس وأموالهم وأولادهم أولى بها العرب طالما لم يتبع هؤلاء الناس دينهم ! هذه الحضارة

البشرية العربية لم تبدأ من الدين الإسلامي، ولم تبدأ من حيث بدأ الرسول، ولكنها عادت لمنهج العرب وتقاليدهم وعاداتهم القبلية في الجاهلية لتبدأ من عندها. فاشتعلت حركات الغزو الخارجي قبل أن تتشكل ملامح الدولة، ثم ما لبثوا أن تصارعوا على الحكم فيما بينهم.

وكما أوضحنا أن طبيعة الحضارات لا تأتي متزامنة في شعوبٍ متعاصرة، أي لا تعيش الكرة الأرضية كلها في حال تقدم وحضارة في ذات الوقت أو حال تخلف وانهيار في ذات الوقت، وإنما تأتي متبادلة بصورة موجية وليست خطا مستويا، بمعنى أن كل شعبٍ من الشعوب يبدأ الصعود في سلم حضارته خلال مدة زمنية معينة ثم يستمر صعوده ويتربع على عرش الحضارة والرقي فترة من الزمن بعدها يبدأ مساره في الانحدار والسقوط تدريجيا، حضارة تشرق في مكانٍ وحضارة تغرب في مكانٍ آخر في ذات الوقت، ولا تتعاصر حضارتين لشعبين من الشعوب في ذات الوقت، وإلا ستتحد القوة، فالقوة المسيطرة لها مركز واحد، وإذا تصارعت قوتان فحتما ستغلب إحداهما الأخرى وتميل كفة الميزان في أحد اتجاهيها لا محالة، وكل حضارة تأتي لا تبدأ مشوار تقدمها العلمي من الصفر وإنما تبدأ بترجمة ما توصلت إليه الحضارات السابقة عليها، فالحضارات تأتي متتابعة في أجيال متسلسلة ومتصلة ومتساندة على أكتفا بعضها.

وبالتالي إذا حاولنا قياس ما قدمته الحضارة العربية للبشرية، فينبغي تقييمها على الحضارات التي سبقتها والتي تلتها لا المعاصرة لها وإلا كان ذلك محض هراء بلا قيمة وخداع للنفس فقط من باب كسب الثقة المؤقتة. فالحضارة الفرعونية القديمة قطعت شوطا جبارا في طريق التقدم والرقي البشري، قدمت مكتشفات عظيمة للبشرية، بدأت بتأسيس الحكم المركزي لجناحي البلاد شمالا وجنوبا، ثم ازدهار النشاط الاقتصادي والثقافي في العاصمة ومراكز النشاط الحيوي لمدة ألف عام، ثم غزو الفراعنة للجنوب الأفريقي (السودان وتشاد وبلاد بنط إثيوبيا حاليا) والتوسع شرقا وغزو الأشوريين والبابليين والحيثيين (شمالي سوريا وتركيا والعراق حاليا) وامتدت إلى شبه الجزيرة العربية شرقا، وإلى سواحل ليبيا غربا، فرضت سيادتها على كل الشعوب المجاورة لآلاف السنين من الزمن، وتركت من العلوم الطبيعية والفلك والطب والحساب والهندسة والعمارة والفن ما لم تدركه الحضارات اللاحقة لها مثل علوم الفلك وهندسة الأهرامات وهي من عجائب الدنيا السبع الباقية على مدار التاريخ، بل إن الهرم ما زال هو لغز الحضارات عبر العصور، فإذا كان سور الصين العظيم من عجائب الدنيا لكن في وقتنا الحالي يمكن بناء سور مثله وأفضل وأقوى، وإذا كان برج بيزا المائل

من عجائب الدنيا فهو ممكن بناء أفضل منه في عصرنا، بينما الهرم من عجائب الدنيا وما زال العالم عاجزا عن فهم نظرية البناء الهندسية التي اتبعها الفراعنة فيه..

وقد تعاصرت الحضارة الجبتية فترة من الزمن مع الحضارة البابلية (العراق حاليا) وكانت بينهما مراسلات دبلوماسية لا زالت محفوظة إلى اليوم حيث يوجد بالمتحف الحربي عجلة حربية مرسلة من ملك آشور إلى الملك الجبتي. وبعد دخول الحضارة الجبتية عصر الاضمحلال، بدأت الحضارة الإغريقية تنهل من العلوم الجبتية القديمة بالترجمة، وكانت قواعد الحساب والهندسة التي وقف عليها إقليدس وفيثاغورث من نتائج الترجمة والنقل عن الحضارة الجبتية القديمة. فيثاغورث نفسه تعلم في إيجبت، وسطع نجم الحضارة حيث بدأ غزوها للعالم بقيادة (الإسكندر الأكبر ٣٣٠ ق.م تقريبا) مرورا ببلاد الشرق الأوسط وإلى الشرق الأدنى وحتى الصين، وأنتجت الكثير من العلوم والعلماء من أمثال (أرسطو وأفلاطون وسقراط وفيثاغورث وإقليدس وأبوقراط وغيرهم).

وكما هو ملاحظ أن كل شعب يستغرق حوالي ألفي عام من الحضارة بينما الجبتين اكتسحوا كل المقاييس سواء من حيث المدة الزمنية أو من حيث الارتقاء الرأسي لمستوى العلوم والاكتشافات. ثم بأفول نجم الحضارة اليونانية الرومانية، بدأت السيادة تنتقل للحضارة العربية التي بدأ سطوع نجمها في شبه الجزيرة العربية فجأة بالتزامن مع بعثة النبي محمد عليه السلام الذي جعل للعرب قيمة وسط الشعوب وتوحد مجتمعهم على يده. لم يتحرك العرب على المسار المعتاد للحضارات (تأسيس حكم مركزي– نشاط اقتصادي – ترجمة ونقل علوم من الحضارات الأخرى ـ غزو وتوسع استعماري ـ ثراء وازدهار وارتقاء رأسي وإبداع علمي وأدبي) كما عادة الحضارات كلها أن تشرع في غزو الشعوب الفقيرة والسيطرة عليها واستغلال ثرواتها في بناء نهضتها بعد التوسع، فالحضارة عند بداية نهضتها تكون أكثر الشبه بالبذرة التي نبتت في باطن الأرض، وتستمر في إزالة غطاء التربة فوقها وحولها حتى ترتفع أوراقها وتتوسع على سطح الأرض ثم تستمر الساق في الارتفاع رأسيا وتزدهر أوراقها وتتفتح زهورها بزيادة ارتفاعها حتى تنضج ثمارها، وحبذا لو كانت هذه الحضارة من نوعية الأشجار المعمرة التي زهر في المواسم باستمرار.

ولكن بدأت حضارة العرب في النهوض فجأة على النحو التالي (غزو – حكم مركزي ـ ثم توقف)، بما يعني أنها توسعت أفقيا وأزالت الغطاء ثم انبطحت على الأرض وزادت في التوسع الأفقي دون أي ارتقاء رأسي، ثم تجمدت الحياة في عروقها وذبلت أوراقها ولم تنضج ولذلك لم تزهر ولم تثمر.. ثم

تبين في نهاية الأمر أنها لم تكن حضارة من نوعية الأشجار المعمرة لكنها كانت من نوعية النباتات الزاحفة الشوكية الحولية أي تتمدد أفقيا على سطح الأرض دون نمو رأسي وتنتهي دورة حياتها خلال موسم واحد فقط ثم تذبل وتموت ولا يتبقى منها إلا أشواكها الصلبة.. فهي من نسيج النباتات الشوكية الزاحفة التي تمددت أفقيا بمساحة كبيرة جدا ولم تستطع أن ترتق رأسيا بذاتها واعتمادا على سيقانها إنما اعتمدت على سيقان نباتات أخرى من جنس العلماء والفقهاء الفارسيين، الذين شكلوا وقود العلم والحضارة العربية، فالعرب وحضارتهم تمددت كثيرا جدا في أطراف العالم من الأندلس غربا إلى الهند شرقا ومن تركيا شمالا إلى النوبة جنوبا، في حين أنها لم ترتفع رأسيا إلا بقدر اعتمادها على سيقان غيرها، وكما نعلم أن النباتات الزاحفة منها ما يزحف أفقيا فقط ومنها ما يزحف أفقيا وله محاليق يمكنها من خلالها التسلق على غيره من النباتات ذات السيقان. فالعرب كما النباتات الزاحفة التي يمكنها التسلق على سيقان غيرها من النباتات المجاورة. وفي المجمل لا يمكن المقارنة بين حجم التطور العلمي والتقني والخدمات التي قدمتها حضارة العرب للبشرية وبين حجم المساحة التي سيطرت عليها دولة العرب عسكريا، ما يعني أنها كانت نباتات شوكية زاحفة أكثر من كونها متسلقة.. وبانتهاء مرحلة الغزو العربي توقفت حضارة العرب وأصابها الشلل إلى اليوم، دخلت في مرحلة الاضمحلال مبكرا جدا، حيث أن عمر الحضارات لا يقل عن ألفي عام، أو ألف وخمسمائة عام، تكون مرحلة التوسع الاستعماري إحدى مراحلها الوسطى، وتسبقها مرحلة الترجمة ونقل العلوم والمعارف من الحضارات السابقة.

بينما الحضارة العربية قامت على حركة عسكرية عنيفة ومفاجئة، ثم اضمحلت بمجرد توقف عمليات الغزو عند حدود الهند شرقا والأندلس غربا. وقد اشتعل الصراع بين الأسر الحاكمة في كل أرجائها وعلى مدار تاريخها حتى انهارت ببزوغ نجم الحضارة الغربية الحديثة المعاصرة في أوائل القرن الثاني عشر، حيث بدأت بغزو ملوك الطوائف في الأندلس والذين استعانوا بأعدائهم ضد إخوانهم مما ساعد في سقوطهم جميعا (بالتزامن مع تفتت الخلافة العباسية وسقوط العاصمة بغداد دون رابط بينهم إلا نسيج العقلية العربية)، ثم بدأت بعد ذلك عمليات الغزو الأوروبي في التوسع، بداية من تحرك الرحالة البرتغالي أمريكو بسفنه الاستكشافية من البرتغال عام ١٤٩٥ باتجاه الغرب ما أدى إلى اكتشاف الأمريكتين وغزوهما فيما بعد على يد الأوروبيين مجتمعين واستعمارهما، ثم استمرت عمليات الغزو حتى القرن التاسع عشر فاحتلت الدول الاستعمارية الكبرى بلاد الشرق الأوسط والشمال الإفريقي وسيطرت بريطانيا على شبه القارة الهندية، وعانت

شعوب أفريقيا وأسيا من الاحتلال الأوروبي الذي كرس جهوده لنهب الثروات والأموال لاستغلالها في بناء حضارته، وفي توقيتٍ معاصر اشتعلت الثورة الصناعية الكبرى داخل أوروبا عام ١٨١٨م واستمرت عجلاتها في الدوران إلى اليوم بذات السرعة.

فجميع الحضارات مارست الغزو والتوسع الاستعماري للشعوب المجاورة لها، وتبقى الحضارة الصينية هي الأكثر تسامحا لانفرادها ببناء سور الصين العظيم حول حدودها لصد الغزاة والمعتدين لا للسطو على الشعوب المجاورة لها، فهذه الفلسفة الدفاعية المتسامحة هي الأكثر انسجاما مع مبادئ الإسلام، وهو ذات النموذج الذي تتبناه سويسرا حاليا؛ إذ أن الدولة السويسرية ليس لها جيشا مُسلحا ينتشر على أراضيها استعدادا للهجوم وقتما تصدر الأوامر، بل فقط تحتفظ بما يكفل لها حقوق الدفاع الشرعي عن شعبها وأرضها ومستحقاتها، تقيم أنفاقا مُلغمة بأسلحة نووية ذاتية الانفجار وقت الخطر، تقيم حصون قوية من منصات الدفاع الجوي تنتشر على كافة حدودها، وتربط منظومة الدفاع هذه بوحدة تحكم مركزية دون الحاجة لجيش. وليس بخافٍ على أحد أن الشعب السويسري هو أرقى شعوب العالم خلقيا وحضاريا وأكثرها تسامحا مع النفس ومع الغير.

لكن عبر التاريخ كانت عادة الحضارات جميعها أن تستغرق فترة في غزو واحتلال الشعوب المجاورة ونهب ثرواتها، ثم تحقق استقرارها ورخاءها في قمة الحضارة خلال ألف أو ألفي عام، ففي الوقت الذي توسعت فيه حركة الاستعمار الأوروبي تجاه بلاد الشرق لنهب ثروتهم، قامت في أوروبا الثورة الصناعية الكبرى مطلع القرن الثامن عشر، بينما حضارة العرب توسعت استعماريا وأخضعت الشعوب المجاورة، ولم تستخدم ثرواتهم في بناء نشاط اقتصادي في بلادهم، بل ترك العرب بلادهم فقيرة لأنهم ليس من طبيعتهم البناء والإنتاج وإنما الاستهلاك.. ولهذا انتقلوا بعاصمتهم إلى المستعمرات التي احتلوها.. الكوفة ثم دمشق ثم العراق ثم الأندلس.. ولأنهم ليسوا من شعوب الحضارات والبناء والإنتاج فقد نهبوا ثروات غيرهم ولم يستفيدوا منها في البناء والإنتاج وإنما في الاستهلاك.. فلم تشهد حضارتهم حركة اقتصادية كبرى أو علمية كما شهدت أوروبا القديمة والحديثة أو إيجبت الفرعونية.. فقط عاشت خمسمائة عام للغزو والنهب والسلب واستهلك العرب عائدات السبايا والعبيد في الاستهلاك والإنفاق على قصورهم وليس في تأسيس أنشطة اقتصادية إنتاجية في بلادهم، وأجزلوا العطاء على المساجد لدورها السياسي في استقرار الدولة، وبمجرد أن عجزت حركة الغزو والنهب انهارت الدولة لأنها كانت مجرد هيكل سياسي وليس حضارة ضاربة في عمق الأرض، لأنهم لم

يستخدموا ما نهبوه من ثروات في بناء حضارة وإنما استخدموه في الاستهلاك فقط، وغالبا ما كان أفضل النهب والسبي سبي النساء.

٣ـ السقوط المفاجئ لدولة العرب

كان هناك انفصال حقيقي بين العرب والحضارة التي ساسوها، كانت الأندلس تزداد حضارة ورقيا وعلما، بينما النظام السياسي العربي يزداد انهيارا وتفتتا يوما تلو الآخر، حتى كانت الأندلس في قمة حضارتها بينما الحكام العرب فيها مختلفون طوائف متناحرة لدرجة أن يتحد بعضهم مع الفرنسيين ضد بني عمومتهم من حكام الطوائف، وهو ما ساعد في سقوطهم ورحيلهم عن الأندلس، فالأندلس كانت حضارة أوروبية تحت سيطرة حكام عرب، ورحل العرب عن الأندلس وعاشوا فقرهم وجهلهم في بلادهم كما جاؤوا، بينما أكملت الأندلس طريقها في الرقي والتحضر بالتوازي مع كافة شعوب أوروبا وقامت بنقل العلوم من العربية والرومانية إلى لغتها فازدادت بجهدها علما، فالحضارة هي جهد شعب من الشعوب خلال فترة معينة وليست جهد حاكم فاسد، وخصوصا أن الحاكم الفاسد ليس من بني جلدتهم، وإنما كل ما يهمه التسلط عليهم واختيار أجمل النساء وإنشاء أفخم القصور، ولذلك تحضر وارتقى شعب الأندلس رغم وقوعهم تحت الحكم العربي بينما بقيت شعوب العرب الأصلية ترزح تحت نير التخلف في شبه الجزيرة العربية، فكيف يزعم العرب بناء نهضة وحضارة في البلاد الأندلس التي احتلوها، بينما هم عجزوا فعليا عن بناء أي نهضة لهم في بلادهم؟، عجزوا عن بناء نهضة تعادل الأندلس في مكة والمدينة ؟

فما أنجزه الجبتيون من تقدم علمي وحضاري خلال حقبة الهكسوس في إيجبت من غير المعقول القول بأنه حضارة هكسوسية، لأن الهكسوس أنفسهم لم يستطيعوا بناء حضارة في بلادهم الأصل، برغم نجاحهم وابتكارهم للوسائل التي مكنتهم من السيطرة على إيجبت، هم فقط سيطروا على إيجبت سياسيا وعسكريا لفترة. فكيف يمكن أن ننسب حضارة الأندلس للعرب بينما بقيت شبه الجزيرة صحراء عارية على حالها ! ولماذا لم ننسب حضارة الهند للعرب والإسلام برغم أن الهند عاشت ما يقارب الستة قرون تحت الحكم الإسلامي بالتوازي مع الأندلس الجناح الغربي؟ ذلك بالطبع لأن حال الهند تحت الحكم الإسلامي كان حرفيا مهزلة بشرية أشبه أسوأ من حال الجبتين تحت الحكم العربي. فالعرب عاشوا فقط متطفلين على غيرهم، فلا مبرر لنسب حضارة الأندلس إلى العرب لأن حكامه العرب لم يهتموا ببناء حضارة لكنهم اهتموا فقط بالحكم والجباية، كما كان

وضع المماليك في إيجبت[٢٠]، كانوا منعزلين عن الشعب الجبتي برغم أنهم الحكام والأمراء، لكن لا همة لهم إلا جمع الجبايات والضرائب وبناء المساجد التي تحمل أسماءهم كي يرضى عنهم المشايخ ويدعون لهم على المنابر ويدعونهم يبنون قصورا شامخة كما شاءوا، ويسهل لهم حكم البلاد. وهكذا كان الخلفاء الأمويين والعباسيين، كلّ منهم يبني مسجدا لا ليصلي فيه ولكن ليدعوا الخطيب باسمه على المنبر، فيكسب طاعة الناس، ولهذا اهتموا كثيرا بالعمارة الإسلامية في المساجد، كي يتمكنوا من دغدغة مشاعر الجماهير والعوام.

وكذلك الهند احتلها مسلمون وعرب لمدة ستة قرون كاملة، لم تقم فيها أي حضارة ولا علم كما يزعم العرب أنهم شيدوا حضارة باسم الإسلام في الأندلس والعراق، فلماذا لم ينشئوا حضارة في الهند التي كانت تحت سلطتهم ٦٠٠ عام كاملة؟ بل وقع فقط أبشع أنواع الإجرام من القتل والذبح والصلب والخطف والاستعباد وخصي الشباب لاستخدامهم كخدم مع النساء في القصور.. في الهند وقعت المجزرة الأبشع في التاريخ علي يد مسلمين من العرب والمغول.. لم تقم أي حضارة، بل هدم المسلمون الحضارة الهندية وطاردوا العلماء ورجال الدين والأدباء الهنود وحاصروهم في الجبال والوديان.. هدموا العلوم والثقافة والحضارة.. بينما كان الأندلسيون يعملون بجد واجتهاد واستمروا بعدما رحل عنهم الحكام العرب.

كيف نسمي هذا حضارة إسلامية؟ وما علاقتها بالدين، إنها أبلغ إساءة لهذا الدين الذي أصبح يتيما بعد وفاة النبي محمد، فالحضارة هي جهد شعبٍ قد يقوم مع الدين أو من غيره، فلا يجوز نسبها للدين وإلا مثلت إساءة له، لأنه في تلك الحال سيكون ازدهار الحضارة ازدهار للدين وانهيار الحضارة

٢٠ـ (يستحب علماء الأزهر تسمية حقبة المماليك بمصر الإسلامية، برغم أن حكمهم كان حكما أجنبيا عسكريا، هم فقط كانوا امتداد لحكم الخلافة العربية بعد سقوطها، ثم استلم منهم الاحتلال العثماني تحت مسمى الخلافة أيضا بعد أن قام العثمانيون بذبحهم في الشوارع، ولهذا يستحب الفقهاء تسمية هذه الحقب بالحكم الإسلامي طالما انتسب إلى لقب الخلافة الذي تعود أصوله إلى قريش، فكل ما ينتمي للعرب يصبح دينا للشعوب، وهكذا يعيشون في حالة من عبودية الأمم).. وأصل هؤلاء المماليك بدأ عندما هاجم المغول قبائل المماليك في القرم فقاموا بقتل آبائهم وسبي أمهاتهم كما كان يفعل العرب في الجهاد، فأصبحوا أطفال (مماليك) أيتام لا آباء لهم هائمين على وجوههم، فباعهم المغول كعبيد في موانئ البحر الأسود. وتنقلوا بين أيدي تجار الرقيق لشهور ذاقوا فيها من العذاب والذل ألوان حتى وصلوا للشام فأشترى السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب مجموعة كبيرة من هؤلاء الأطفال وأسكنهم في جزيرة الروضة في نهر النيل بالقاهرة، وعين لهم الشيوخ والمربين والمدربين العسكريين، ولما كبروا أصبحوا يشكلون العمود الفقري للجيش الأيوبي وبعد ضعف الدولة الأيوبية وانهيارها تولوا الأمر بعدها وأصبحوا ملوكا عليها بعدما كانوا مستعبدين ، وحكموا مصر حكما عسكريا مستبدا بعد سقوط الدولة العباسية، وما زال فقهاء الأزهر يعتبرون فترة حكمهم لمصر حكما إسلاميا ! فقط لأنهم كانوا أجانب حكموا مصر !

انهيار للدين أو بسبب الدين، وهذا غير صحيح لأن الدين منهج ثابت قوامه الفضيلة. فالحضارة هي جهد بشري يخضع للتجربة والعلوم العقلية، جهد يقوم به شعب وليس دين، وبالتالي إذا كان فاتحو الهند مسلمين وارتكبوا أبشع المجازر الدموية هناك، هم مسلمين لكنهم لم يطبقوا الإسلام، فكيف ننسب أفعالهم وجرائمهم هذه للإسلام؟ أم أننا ننكر عن الإسلام الجريمة التي فعلها المسلمون في الهند، ثم ننسب للإسلام الحضارة التي فعلها مسلمون في الأندلس؟، ثم نعود لننكر المجازر التي ارتكبها العثمانيون عن الإسلام، وفي ذات الوقت ننسب توسعاتهم الجغرافية للإسلام؟

الحضارة هي جهد بشري بحت ولا علاقة لها بالدين، فهناك شعوب كثيرة ومختلفة وكلهم مسلمون، لكننا نجد إندونيسيا أكثر رقيا وتقدما، بينما نجد الصومال وهي دولة مسلمين أيضا لا يكادون يعرفون معني الحضارة .. وكذلك نجد شعوبا مسيحية، نجد في قارة واحدة (دولة جنوب السودان ودولة جنوب أفريقيا) الأولى ترزح تحت نير التخلف والفساد والجهل، بينما الثانية تناطح الحضارة الغربية، وكلتا الدولتين مسيحيتين، وكذلك نجد الولايات المتحدة ودولة المكسيك وكلاهما دول مسيحية متجاورة في قارة أمريكا الشمالية، الأولى في قمة الحضارة والقوة بكل أنواعها، والثانية في مستوي جهل العرب، مع أنهما جارتان متلاصقتان متحدتان في الديانة، لكن الشعبين من نسيج اجتماعي مختلف، فما علاقة الأديان ؟ ولا يمكن القول بأن أمريكا تفوقت لأنها تعبد الله حق عبادته وأن المكسيك تخلفت لأنها ابتعدت عن نهج المسيح، ولا يمكن القول بأن كل غني اغتنى لأنه راعى مبادئ الدين ولا كل فقير افتقر لأنه لم يعبد الله. هل تقدم الأمريكان لأنهم أكثر التزاما بدينهم وتأخر المكسيكيون لأنه لا يلتزمون بدينهم؟ فكيف سيطر العباسيون على كل هذه الدولة وهم أيضا لم يلتزموا بدينهم؟

وتجدر الإشارة إلى أن الحضارة الأوروبية التي بزغ نجمها في الإمبراطورية الرومانية القديمة، وتقدمت فيها كافة مظاهر الحياة والعلوم والفلسفة والطب والفلك والاقتصاد والسياسة والقانون، حيث وضعت منظومة قانونية رائعة، وشكلت نظام حكم جمهوري بالديمقراطية المباشرة، وشكلت مجلسا تشريعيا وتقدمت العمارة بشكلٍ مذهل، وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في عام ٤١٠م، انتكست واضمحلت كل مظاهر الحضارة الأوروبية. ثم ازدهرت حضارة تحت السيادة العربية خلال فترة قصيرة، ثم بانهيار الحضارة العربية في بداية القرن الثالث عشر، وفي ذات الوقت صعدت الحضارة الأوروبية مرة أخرى لتقوم هي بالترجمة والنقل من علوم الأندلسيين، ثم لم يكتفوا بذلك فعادوا إلى المكتبات العتيقة للحضارة الرومانية القديمة، فوجدوا فيها أصولا علمية

أفضل من النسخ المترجمة للعربية. وهذا ما يعني أن الحضارة العربية لم نجمها لفترة قصيرة جدا لم تتجاوز مرحلة الترجمة العلمية الجيدة، فترجمة العلوم هي أول خطوة من خطوات الحضارة العلمية، والحضارة العربية بدأت الترجمة عن اليونان والفرس والهنود في عهد الخليفة العباسي المأمون، ثم انهارت سريعا وتراجعت خلال خمسمائة عام فقط بالمقارنة بعمر الحضارات، بل إنها مثلت محض فترة انتقالية ما بين الحضارتين الأوروبيتين القديمة والحديثة، وقضت معظم حقبتها فقط في مرحلة الغزو، وهي كذلك لا تقارن بالحضارة الصينية القديمة التي سبقت بعلومها والحضارة الرومانية الأقدم منها على مسار التاريخ.

وبإعادة النظر بواقعية في هذا السيناريو المختصر لبعض الحضارات؛ نجد أنها جميعا تتوسع بالغزو وتنكمش تحت الاحتلال من قبل غيرها بعد مرور ما يربو على الألفي عام تقريبا، عدا الحضارة الجبتية تجاوزت الحدود القياسية، أما الحضارة العربية فقد بدأت بمسار الغزو في القرن السابع ميلادي كغيرها من الحضارات، ثم توقفت بتوقف الغزو حتى قبل أن تخضع للاحتلال المغولي، ما يعني أنها عاشت حرة ما يقارب الخمس قرون فقط غزو متواصل دون باقي أنشطة الحضارة الأخرى. وإن وجدنا بعض الاهتمام العلمي – في مجال العلوم العقلية التي هي غذاء ووقود الحضارات– نجده فقط ازدهر في عصر الخليفة العباسي المأمون وفقط في عاصمته بغداد، وفقط في بدء حركة الترجمة العلمية عن الحضارات الأخرى، وفقط لمدة ٢٢ عاما، وفقط لأنه لم يكن سلفيا وكان معاديا للمشايخ الأصوليين، وهذا النشاط العلمي كان بالطبع غير مرغوبا فيه من جانب الفقهاء وعلماء الدين، بل وغالبية الشعوب العربية، ولذلك لم يستمر كثيرا وتوقف بمجرد رحيل هذا الخليفة المأمون، ولم يكد يتجاوز مرحلة الترجمة.

وإن كان آحاد العلماء قد برز نجمهم في الأندلس قبل سقوطها، فقد عانى أكثرهم من جهل حكامها العرب، فهذا الإقليم تحديدا من الصعب احتسابه للحضارة العربية كما سبق البيان؛ وذلك لعدة أسباب؛ أولها أن العلوم الدينية التي تمثل أساس الدخول للجنس العربي لم تتطور لا في بلادهم ولا في بلاد الأندلس بل جاء فقهاؤها متشددون دينيا ومنغلقون ولم يضيفوا إلى الفكر الديني أي جديد سوى مزيد من التصلب المعرفي والعصبية وسخانات الدم أمثال ابن حزم الأندلسي، وغالبية إضافتهم جاءت توسعات أفقية وليست ارتقاء بالفكر الإنساني، عدا ابن رشد الذي تم حرق كتبه واتهامه بالزندقة. وأما الجانب الآخر من الحياة فلم يكن ممثلا للإسلام كما في الشرق، بل ازدهر الغناء والموشحات والفنون والموسيقى وتسريحات الشعر، وهذا ما يعني البعد عن الإسلام لأن عدد المسلمين في

الأندلس لم يتجاوز ١٪ خلا المائة عام الأولى لاحتلالها من قبل العرب، بل كانت حضارة الأندلس أوروبية الطابع ولم تكن عربية بأي حال كي يتمسح بها المسلمون تعويضا عن إحساسهم بالضعف.

على أي حال، كان نمط حياتهم غربي وليس عربي، كان مختلفا تماما عن نمط الحياة في الشرق العربي، غير أن النهضة العلمية (الفلك والطب والهندسة والملاحة وغيرها) كانت هذه النهضة هي بوادر الحضارة الغربية الحديثة ولم تكن نتاج نهضة عقلية للعرب، لأن الجنس العربي الذي احتل الأندلس لم يكن هو رائد هذه النهضة الحضارية بل كان وجود العرب في الأندلس كما وجود الهكسوس في إيجبت عهد الفراعنة، وكان أهل البلاد الأصليين هم أصحاب هذه النهضة سواء كانوا مسلمين أو ظلوا مسيحيين، ولا يمكن إرجاع نهضة هذا الشعب الأندلسي إلى حزم وهمة الحكام العرب لأن الحكام العرب المسلمين في هذه الفترة كانوا في صراعات واقتتال دائم لم يتوقف أبدا، ولم يكن من طبيعته الاستقرار الذي يؤدي للنهوض الحضاري، بل إن العرب الفاتحين للأندلس لا يتعدى حصرهم بضعة آلافٍ زهيدة ومعظم الجيش الفاتح للأندلس كان من بلاد المغرب الأمازيغ الذين شكلوا الجيش لفتح الأندلس على يد طارق زياد وموسى نصير، وبقيت بلادهم في الشمال الإفريقي على وضعها المتردي وهو ذات المستوى الذي عاشت فيه كافة شعوب ومجتمعات الدولة العربية في شبه الجزيرة؛ إذن النهضة الحضارية التي قامت في بلاد الأندلس ليست من مجهودات العرب، وليست من بنات أفكارهم وإن كانوا هم حكام هذه البلاد في تلك الفترة، بل كانت بادرة النهضة الحضارية الغربية الحديثة والتي استمرت حتى يومنا هذا، إذ أن شعب الأندلس استمر مع كافة الشعوب الأوروبية في طريق التحضر والرقي وعلى ذات الخطوة، بينما تخلف العرب ورجعوا إلى بلادهم عاشوا جهلهم وتخلفهم مع بعضهم، فهم فقط غنموا مغانم الحروب واستمتعوا بالسبايا.

فالنهضة التي قامت في الأندلس تحت حكم العرب لم تكن نابعة من العقلية العربية الأدبية السياسية السادية، لأننا حينما نتساءل عن نوعية العلوم والأفكار والمعارف التي أدخلها العرب للأندلس عقب الفتح فلن نجد شيئا، لأن العرب لم يكن لديهم أي خلفية عن العلوم الطبيعية، ولا يملكون عقلية علمية بالأساس، فكيف يرعونها؟ غير أن العقلية العربية لم تبدع في باقي المناطق التي عاشت فيها، وإنما النهضة نابعة من العقلية الإسبانية الأصل، حتى وإن كان روادها مسلمون، فهم ليسو عرب، والإسلام لا علاقة له بالنهضة أو التخلف، الإسلام منهج عبادة وليس كتالوج لبناء الحضارات، بل إن العرب في هذه الفترة لم ترتق عقولهم حتى لاستيعاب معنى العلم والمعرفة الحضارية، حتى أنهم أحرقوا كتب ابن رشد وتقدم الغرب بعد أن قرأها، بينما تلقف الغرب الصاعد

بقايا علومه وأفكاره فتقدم بها.. وهو العالم والطبيب والفقيه والقاضي والفلكي والفيزيائي الأندلسي (ابن رشد)، عاش الفيلسوف ابن رشد في قرطبة بين ١١٢٦-١١٩٨م، واحد من أبرز وأكبر وأشهر فلاسفة الأندلس. وأصله ليس عربيا بالطبع.. وكانت أول قاعدة حولت الأسبان والأوربيين صوب النور، مقولته التي حسمت العلاقة مع الدين: (الله لا يمكن أن يعطينا عقولا، ثم يعطينا شرائع مخالفة لها).. وهذا ما قد يعطينا صورة مبدئية عن نوعية الفقه الديني الإسلامي الذي ساد عصره في الأندلس.. فكيف بابن رشد الذي يتمسح به المسلمون ينتقد المعرفة الفقهية الدينية بهذا الشكل، ثم نقول أن المعرفة الفقهية الدينية في الأندلس كانت سبب الحضارة التي ازدهرت هناك !

أما القاعدة الثانية، فهي مقولته التي حسمت التجارة بالأديان: (التجارة بالأديان هي التجارة الرائجة في المجتمعات التي ينتشر فيها الجهل، فإن أردت التحكم في جاهل، عليك أن تغلف كل باطل بغلافٍ ديني" . فأصدر رجال الدين فتاواهم بحرق جميع كتبه، خوفا من تدريسها، لما تحتويه من مفاسد وكفر وفجور وهرطقة على حد قولهم، وتبنى هذه الفتوى الخليفة المنصور فأصدر قراره، وبالفعل زحف الناس إلى بيته، وحرقوا كتبه جميعا حتى أصبحت رمادا .. حينها بكى أحد تلامذته بحرقة شديدة، فقال ابن رشد جملته الشهيرة: (يا بني.. لو كنت تبكي على الكتب المحترقة فاعلم أن للأفكار أجنحة، وهي تطير بها إلى أصحابها، لكن لو كنت تبكي على حال العرب والمسلمين فاعلم أنك لو حولت بحار العالم لدموع لن تكفيك)... هكذا كان حال العرب والمسلمين في الأندلس التي يزعمون أنهم شيدوا حضارة بها ! سقطت الأندلس يوم أحرقت كتب ابن رشد، في حين بدأت نهضة أوروبا يوم وصلتهم أفكاره ..

ففي الأندلس كانت حضارة العلم في أوج ازدهارها بينما الحكام العرب يتنازعون السلطة مع بعضهم، فأقدم أبو عبد الله محمد الصغير "الثاني عشر" آخر ملوك الأندلس على عزل أبيه من ملك الأندلس وطرده من البلاد لرفضه دفع الجزية للملك " فرناندو الثاني" ملك أرغوان، وشاء الله أن يقع في الأسر بعد خوضه معركة ضد " فرناندو" في لوسينا، ولم يفك أسره إلا بعد موافقته التنازل عن مملكة غرناطة لصالح ملك أرغوان. بعدها انشغل "عبد الله الصغير" في خوض حروب ضد أبيه المعزول، حتى جاء اليوم الذي طالبه الملك " فرناندو " بتسليم غرناطة، ولكن عبد الله رفض الطلب فتم إخضاع المدينة للحصار. وفي ١٩ رمضان ٨٩٧هـ، استسلمت غرناطة، وانتهت الولاية العربية على الأندلس، فألقى " عبد الله الصغير" نظرته الأخيرة على غرناطة وبكى، فردت عليه أمه عائشة الغرناطية (إبك اليوم بكاء النساء على ملك لم تحفظه حفظ الرجال). فهم كانوا عند خروجهم

يبكون على الملك لا على الحضارة التي شيدوها بجهودهم.. وعلى اعتبار أنهم شيدوا حضارة في الأندلس، فمع ذلك لم يكن جزاءهم جزاء سنمار، وطلب منهم الخروج بسلام آمنين، وأعطيت لهم مهلة كافية للخروج أيضا.

وأما في بغداد، فلم يكن الوضع أفضل حالا؛ والفيلسوف المضروب بالسوط هو أبسط دليل على ذلك: (الكِندي) أبو يوسف يعقوب إسحاق الكِندي واحد من العرب القلائل الذين نالوا مجدا واسعا، في فترة كان غالبية العلماء والمشاهير من المسلمين الفرس وبلاد العراق. ألف مئات الكتب والرسائل التي تطرقت إلى الموضوعات التطبيقية والفلسفية. وآمن أن النقل ليس مُقدَما على العقل، وأن العقل محور التصوّرات الإنسانية، والمقياس الذي يجب أن يُقاس به كل شيء حتى المقدّس، بما في ذلك النصّ القرآني، الذي كان يتعامل معه الأصوليّون عادة بظاهر الآيات. كانت طريقته العقلانية في تفسير الكثير من الآيات القرآنية والأحكام، سببا محوريا في كراهية الأصوليين له، إلى جانب كونه مؤسسّ مدرسة الرواقيين في الفلسفة الإسلامية، واعتباره أن النصّ الديني يخاطب العقلانيين بمعان باطنيّة عميقة، ويخاطب النقلانيين بمعان ظاهرية تتماشى مع فكرهم السطحي، مثل الوعد بالحور العين والفاكهة في الجنة.. إلا أن الحماية التي فرضها الخليفة المأمون عليه، أحاطته بهالة سياسية أبعدت عنه خصومه من الراديكاليين الأصوليين، وتركت له المجال في التأليف والتفكير والظهور كأحد أعلام المشاهير المسلمين. إلى أن جاء حكم الخليفة الأصولي المتوكّل، الذي مال إلى آراء الفقهاء الأصوليين، فأمر بمصادرة مكتبة الكندي الخاصة، وأمر بجلده على ظهره خمسين جلدة، أمام حشد كبير من الناس، نقل عنهم أنهم كانوا يتصايحون بتأييد عقابه بحجة أنه "زنديق".. أصيب الكِندي بعدها باكتئاب شديد، واعتزل الناس حتى مات، واستطاع أحد أصدقائه استعادة مكتبته التي وصلتنا اليوم.

فالجانب العلمي في حضارة العرب اقتصر على عدد بسيط جدا من العلماء – علماء الطبيعة – لا يمكن مقارنتهم بأي حال مع حفاظ كتب الفقه، وعددهم لا يتجاوز الواحد أو الاثنين في كل مجالٍ فقط، مثل الفيزياء والجبر والهندسة والطب. ولم يحصلوا قط على الاعتراف بهم كعلماء ولم يستحقوا هذا اللقب، بل كان لقب العلماء محصورا في رجال الدين، ثم اضطر العرب لمنح هؤلاء لقب "علماء" فقط عندما لم يجدوا شيئا للتباهي به والتفاخر في مواجهة الحضارة الغربية الحديثة، عادوا ليعترفوا بهم ويتفاخروا بكونهم علماء ! وضربوا أمثلة بابن النفيس وابن سينا والرازي والكندي وغيره ممن اتهموهم بالزندقة والإلحاد على مر العصور. غير أننا حينما نقيّم جهود هؤلاء العلماء لا

ينبغي أن ننسى أبدا ما نقلوه عن الحضارات الأخرى، فليس كل ما ورد بكتبهم ومخطوطاتهم من جهودهم الذاتية، بل إن أغلبها جاء نتيجة ازدهار حركة الترجمة العلمية والأدبية خلال عصر الخليفة المعتزلي المأمون، وأغلبها كان من بقايا الحضارة الفارسية والهندية، حتى أن معظم مؤلفات الرازي في الطب تكاد تكون قائمة على ما ترجمه هو وتلامذته عن الحضارة اليونانية القديمة، ولا يمكن المقارنة بين ما أضافه هو في مجال الطب وما وضعه أبوقراط اليوناني.

وقد جاء هؤلاء العلماء في مرحلة الترجمة العربية للعلوم والمعارف عن الحضارات الأخرى الفارسية التي هدمها العرب والهندية التي هدمها العرب.. لكننا كي نقول "حضارة علمية" فلا بد على الأقل أن تكون قد انتهت هي من مرحلة الترجمة والنقل عن الحضارات الأخرى وبدأت مرحلة الترجمة العكسية من العربية إلى الشعوب الأقل تحضرا، أو أن تبدأ هذه الشعوب في النقل عنها، إنما كانت العربية لا تزال في مرحلة الاقتباس والترجمة الأولية في عهد الخليفة المأمون، ولم تكن علومها قد نهلت كل ما يمكن الاستفادة منه من الحضارات الأخرى، ولم تكن قد أثمرت فعليا أي في مرحلة الجنين المبكر ثم أجهضت.. ويتضح الأمر أكثر إذا عقدنا المقارنة مع الحضارة الجبتية التي كانت الشعوب الطامحة في الحضارة ترسل أبناءها كي يتعلموا في إيجبت، فأغلب علماء الإغريق في الطب والهندسة والفلك نهلوا من علوم الحضارة الجبتية، وكثير منهم تعلم في مكتبة الإسكندرية مطلع الحضارة الإغريقية في الألف الأول قبل الميلاد، وجاء المؤرخ الإغريقي هيرودوت في زيارة لإيجبت وأخذ جولة طويلة، انبهر كثيرا بمنجزات الحضارة الجبتية، وتجول في كل مكان وتحدث مع البسطاء والفلاحين الجبتين وسمع أقوالهم وتعبيراتهم ودونها في مفكرته، كان ذلك قرابة القرن الخامس قبل الميلاد، وللحقيقة فإن هذا الرحالة لم يكن مؤرخا بقدر ما كان رحالة، انبهر بحضارة الجبتين الفراعنة (في عصر اضمحلالها) ودون ما يشبه استطلاعا أو تقريرا صحفيا يعادل موسوعة وصف إيجبت التي دونها علماء الحملة الفرنسية في القرن الـ١٨.

بينما دولة العرب لم يتعلم فيها أحد من الأجانب، ولم تكتمل أصلا عملية الترجمة الأولية التي بدأها المعتزلة للنقل من علوم الحضارة الرومانية، فقد اتخذوا الخطوة الأولى، لكن بعدما انقلب عليهم الخليفة وتحالف مع الفقهاء الأصوليين تحطمت أقلامهم وصمتت.. أما ما قيل عن استفادة الأوروبيين من علوم ابن رشد والرازي وابن سينا، فلا يعتبر ذلك إشعاعا خارجيا لحضارة العرب، بل فقط لملمة لبقايا حضارة العرب، لأن علوم العرب لم تنضج لتشع ضوءها في الخارج، إنما بعدما سقطت

وصعد نجم الأوروبيين بدؤوا في الحفر والتنقيب عن كل ما يمكنهم الاستفادة به من بقايا الحضارة العربية، فأظهرت قيمة لما لم يدرك العرب قيمته، وعظمت ابن رشد الذي أحرق العرب كتبه.

ولا يمكن اتهام المغول بإجهاض الحضارة العربية في مرحلة الجنين لأن الدولة العربية تفتت أصلا قبل وصول المغول، تفتت وانهارت فعليا في بغداد وفي الأندلس بالتزامن دون رابط إلا نسيج العقلية العربية الواحد.. ولذلك عندما بدأت مرحلة الترجمة العكسية من العربية بدأ الأوروبيون يبحثون وينقبون في مكتبات العرب ونهلوا ما وجدوه نافعا مثل ابن رشد وعادوا إلى المكتبات الرومانية العتيقة فوجدوا أصولا لمراجع علمية أدق من الترجمة العربية، ووجدوا مراجع لمنظومة قانونية مثلت لهم فنارا للحضارة الحديثة، ولو كانوا وجدوا كتب القانون الإسلامي نافعا لهم لكانوا أخذوا منه كما أخذوا من ابن رشد واعترفوا به وعظموه، لكن العرب أصلا لم تعرف دولتهم صناعة القانون، فكيف يكون الفقه عندهم مفيدا إذا لم يساهم في صناعة قانون لدولتهم؟

فطبيعة العقلية العربية من أساسها وجيناتها الوراثية لا تعرف النظام ولا العلم والعمل والبناء والإنتاج، إنما تعرف السطو واختطاف الفرص، حتى في بناء حضارتهم اخطفوا حضارات الشعوب الأخرى وتربعوا عليها حقبة من الزمن، ولكن لأنهم ليس لديهم طموح بعيد المدى في البناء والتعمير، وليس لديهم رؤية مستقبلية تقوم بسواعدهم وجهدهم وعلمهم انهدمت الحضارة بأيديهم قبل أن يمسها الغير، فتكالبوا وتصارعوا وتفتت دولتهم إلى دويلات ضعيفة، لأن سقف طموحاتهم كان هو سقف الخيمة، وإن تجاوزها إلى سقف مُخيّم الفسطاط.. وهي في كل حال لا تقارن بسقف طموحات الجبتين التي سجلوها على سقف الصالة الأولى في معبد دندرة، بالأقصر في دورتهم الحضارية الأولى.

غير أننا لو دققنا النظر في الحضارة العربية التي قامت في بغداد أيام كانت هي عاصمة الخلافة العربية، لم تكن هذه حضارة عربية في واقع الأمر، لأن العراق قبل أن يغزوها العرب كانت بها حضارة متقدمة صدمت العرب وأذهلتهم عندما دخلوها، كانت توقعاتهم أن يفتحوا بلدا تملؤها الخيام والخيول والغنم والنساء كما حياتهم في شبه الجزيرة، لكنهم اصطدموا بحضارة راقية جدا في العراق حتى وإن كان خاضعا لسيادة الفرس، فالشعب العراقي في هذا الوقت عرف معنى الدولة بالمفهوم السياسي المعاصر (نظام حكم مؤسسات خزانة عامة – ضرائب وجمارك ودبلوماسية ومؤسسة قضائية – ونشاط اقتصادي منظم: زراعة وصناعة وتجارة.) وهذه الأنشطة لا وجود لها في بلاد العرب، لدرجة أن الفقهاء (فقهاء الدين الإسلامي ورواة الحديث) بعد دخولهم العراق اصطدموا

بظروف الحضارة العراقية ولم يعودوا قادرين على وضع منظومة فقهية تساير الحياة الحضارية في العراق، ومن هنا ظهرت مدرسة فقهية جديدة أسموها مدرسة أهل الرأي، لأنهم ابتدعوا – في الغالب– آراء فقهية جديدة لم يكن لها حل في الموروث الفقهي ولا المرويات، وهذا ما يؤكد أن الحضارة العراقية كانت أسبق من العرب بمراحل عديدة، ثم إذا دخل العرب هذا البلد المتحضر استغرقوا فترة من الذهول ليستوعبوا حجم الحضارة، ثم انتقلت عاصمتهم من المدينة المنورة بالحجاز إلى دمشق بالشام، ثم انتقلت إلى بغداد بالعراق، ثم قالوا أنهم بنوا حضارة بالعراق، أي أن العرب هم من احتلوا الحضارة العراقية وتربعوا على الحكم فيها، وهذا لا يعني أن الجنس العربي شيد حضارة يمكن نسبها إلى قوميته أو إلى الدين الإسلامي لأن العرب دخلوها متحضرة جاهزة، كما هو الحال في الأندلس.

فالواقعية والموضوعية تقتضى منا الإنصاف حتى مع أنفسنا لكي نقف على أرضٍ صلبة لا أن نظل نحتفل بمنجزاتٍ وهمية وفي حقيقتها محض خطوة أو خطوتين فقط في طريق العلم، ومن غير المنطقي المقارنة بين مستوى الحضارة العلمية في الدولة العربية والدول المعاصرة لها في ذات الوقت، لأن العرب أخذوا فرصة الرقي الحضاري بعد غزوهم بلاد العالم ثم تخلوا عنها سريعا وتراجعوا للخلف. فالحضارة العربية لم تبدأ إلا بعد عهد النبي عليه السلام ولم تكن حضارة بشرية كاملة بأي حال، بل اقتصرت بعد الصحوة الدينية التي نشرها النبي عليه السلام في المجتمع العربي ما أدى إلى توحيد شبكة القبائل العربية، ثم بوفاته نحى العرب مسارا مختلفا تماما حسب عاداتهم وأعرافهم البيئية، فبدؤوا بتوسيع رقعة الدولة بدعوى نشر الدين في الشعوب المجاورة، واستمرت سيادة العرب فعليا ما يربوا على خمسة قرون متتالية إلى أن سقطت العاصمة بغداد. وكانت فترتها قصيرة جدا مقارنة بأعمار الحضارات الأخرى، واقتصرت على جانب الغزو فقط.

إذ أن العرب تركزت جهودهم في غزو الشعوب المجاورة لهم وتوسيع سلطانهم وتحصيل الجزية والخراج وغيرها من الإتاوات بمسميات دينية، ولم ينتبهوا ولم ينتبه حكامهم وإدارتهم لبناء حضارة فعلية في أرضهم وبلادهم يكون عمادها خطط صناعية تجارية علمية بالمعنى الدقيق للحضارة التي شهدناها في عصر الفراعنة والرومان والفرس والصين القديمة وغيرها من الحضارات السابقة عليها، بل كان الحكام العرب للدولة في غالبية حقبتها قائمة على ظلم الشعب وتوريث السلطة والصراع والاقتتال بين العائلات لاغتصاب الحكم، ولا يمكن بأي حالٍ المقارنة بين ما قدمه الجبتيون للبشرية أو ما قدمه الرومان للبشرية من كشوفٍ علمية ومكتشفاتٍ صناعية وحضارية وبين ما

قدمته الحضارة العربية للبشرية، فهم لم يقدموا للبشرية سوى الدين الإسلامي مع أنه ليس من اجتهادهم بل بعث الله فيهم رسول الإسلام لنقلهم من الظلام والفساد والوحشية إلى الرقي الأخلاقي، ومع ذلك فلم يستمروا على منهجه، بل انحرفوا وغزوا واحتلوا كما كانت عاداتهم في الجاهلية، ونبذوا العلم والمعرفة الإنسانية، إذ انحصر إرثهم الحضاري في عالم أو اثنين على أكثر تقدير بالإضافة إلى ترجمة علوم ومنجزات الحضارات السابقة عليهم. ومن ثم فإذا حاولنا قياس الخطوات التي اتخذتها كل حضارة بالترتيب سنجد أنه في الغالب كل حضارة قد قطعت شوطا حضاريا يعادل عشر درجات بينما الحضارة العربية قطعت شوطا قصيرا يعادل درجة واحدة بمعيار الحضارات السابقة عليها، مع استثناء الحضارة الجبتية التي قطعت شوطا يعادل خمسين درجة على الأقل.

والملاحظ أن انهيار الحضارة العربية كان على يد أبنائها العرب وليس على يد المغول بقيادة هولاكو؛ لأنه بالتزامن، وتحديدا في القرن الثاني عشر ميلادي، كانت الصراعات قد انتشرت في نفوس الجميع.. الصراع ذاتي مجتمعي، وعقلي جمعي.. سياسي وفكري وديني ومذهبي.. ولم تكن الحضارة العربية ذات حكم واحد مركزي سياسيا أو جغرافيا، بل اتخذت من البلاد المستعمرة مقرات لحكمها، وانقسمت إلى فرقتين من العرب حكمت سلالتهم في العراق وفي الأندلس، بينما بقي الشعب العربي الأصلي في شبه جزيرة الحجاز يعيش حياة البادية ولم ينعم بأي مظاهر الحضارة، فالعرب لم يمارسوا الحضارة إلا في بلاد غيرهم وعندما حكموا الشعوب المجاورة لهم وقامت نهضة في هذه البلاد، ليس بسواعد الحكام العرب الذين قضوا حياتهم في النزاعات والصراعات السياسية والعسكرية، بل بيد أبناء الشعوب التي حكموها، ولذلك اختلفت من شعب لآخر برغم وحدة جنس الحكام، وكان الحكام ينتقلون بمقراتهم إلى مراكز النشاط الحيوي لا أن ينشئوا هم عواصم ينتقل إلى النشاط، فما كان من نهضة في الأندلس لم نجده في اليمن بالتزامن، ولم نجده في ليبيا أو المغرب ولم نجده في مكة والمدينة والرياض التي كان يسكنها العرب، بينما الذين هاجروا إلى إيجبت والأندلس والعراق هم السلالات الحاكمة فقط الذين جيشوا الجيوش واستطاعوا الوصول لحكم هذه البلاد وتركوا بلادهم في القحط والفقر والجهل، أي الذين هاجروا هم الذين ارتقوا وتحضروا نسبيا فقط في جانب القوة السياسية، وحتى السياسة مارسوها في البلاد التي حكموها بطابع العنف الدموي، وهو الطابع الذي جلبوه معهم من بلادهم، أما جوانب المعرفة الإنسانية والعلوم العقلية فتجاهلوها تماما لأن عقليتهم ونفسيتهم غير قادرة على هضم هذا النوع من

المعرفة، ولم يخرج منهم عالم واحد لا في الدين ولا في الفيزياء ولا الطب لأنهم ليسو من شعوب الحضارات.

وفي ذات الوقت الذي تفتتت فيه الدولة العباسية إلى دويلات مستقلة عن العاصمة، في بلاد المغرب: ١ـ الدولة الرستمية.٢ـ دولة الأدارسة.٣ـ دولة الأغالبة. وفي بلاد الشرق: ١ـ الدولة الطاهرية.٢ـ الدولة الصفارية.٣ـ الدولة السامانية.٤ـ الدولة الغزنوية. وفي إيجبت والشام: ١ـ الدولة الطولونية.٢ـ الدولة الإخشيدية.٣ـ الدولة الحمدانية.٤ـ الدولة الفاطمية.٥ـ الدولة الأيوبية.٦ـ الدولة المملوكية.. وتقريبا تفتت دولة الفقه إلى مذاهب وفرق بعدد الدويلات السياسية بالتزامن.

وبالتزامن كانت الأندلس الأموية تتفتت بين الطوائف وتشتعل بينها نزاعات سياسية وعسكرية، بين الإخوة وأولاد العم وحتى بين الأب وابنه اشتعلت صراعات عسكرية، وهذه طبيعة العرب. وحقبة ملوك الطوائف هي فترة تاريخية في الأندلس بدأت بحدود عام ٤٢٢هـ لما أعلن الوزير أبو الحزم جهور سقوط الدولة الأموية في الأندلس، مما حدا بكل أمير من أمراء الأندلس ببناء دويلة منفصلة، وتأسيس أسرة حاكمة من أهله وذويه. وقسموا الدولة إلى ٢٢ دويلة منهم غرناطة وأشبيلية والمرية وبلنسية وطليطلة وسرقسطة والبرازين والبداجوز ودانية والبليار ومورور . ورثت تلك الدويلات ثراء الخلافة، إلا أن عدم استقرار الحكم فيها والتناحر المستمر بين بعضها البعض جعل منهم فريسة لمسيحيي الشمال، ووصل الأمر إلى أن ملوك الطوائف كانوا يدفعون الجزية للملك ألفونسو السادس، وكانوا يستعينون به على أخوانهم.

وكما يتضح كانت دولة العرب منقسمة نصفين كل نصف يبعد عن الثاني آلاف الكيلومترات، ويفصل بينهما البحر، ولم تستطع العائلة العباسية في بغداد السيطرة على الأندلس رغم محاولاتهم المستميتة في ذلك، ولو كان العباسيون تمكنوا من أشقائهم في الأندلس لكانت وقعت أكبر مذبحة في تاريخ البشرية، لكن الله ستر.. فعاشت الدولة العربية منقسمة هكذا مفتتة دويلات في الشرق ودويلات في الغرب، ولم يكن بينها رابط، بذات طابع التنافسية والصراع القبلي القرشي الأموي في مكة أيام الجاهلية، لأن هذا طبع، فكيف تكون هذه حضارة؟

إذ كان الجبتيون الفراعنة في أول خطوة حضارية، وفي أولى حقب التاريخ الجبتي، قام الملك مينا بتوحيد القطرين، ودمج التاجين، تاج الوجه القبلي والوجه البحري لتصبح إيجبت شعبا واحدا

مندمجا يحميه جيش واحد، ويحكمه ملك واحد في عاصمة واحدة وقانون واحد، ولهذا استمرت الحضارة الجبتية خمسة آلاف عام بعد هذا التوحيد. بينما تفتتت دولة العرب لأنها لم يكن لها عمود فقري، ولا ساق ثابتة بجذور متينة في أرضها، إنما هي تمددت أفقيا فجأة وتعاظمت ثم انهارت؛ لأن هناك مَثل يدرسه طلاب الهندسة المدنية، يقول:" المبنى الذي حِمله كبير إن لم يكن له خوازيق ينهار.." وهكذا انهارت الدولة العربية بعدما زادت أحمالها وترامت أطرافها تجاه الشرق والغرب ولم يكن لها عمود فقري نظام قانوني موحد ولا هيكل سياسي لأنها من نوعية النباتات المرنة الزاحفة أفقيا، وبطبيعة الحال هذه النوعية من النباتات ليست مُعمَّرة وإنما موسمية فقط.

٤ـ فكرة الحضارة في العقل العربي

فكرة الحضارة غير موجودة بالطبع في العقل العربي لأن النسيج الذهني العربي برمته نسيج أدبي وليس علمي، والحضارات تقوم على أعمدة علمية وليس أعمدة نظرية وقصائد شعرية.. وقد عرفنا فيما سبق أن الحضارة العربية التي قامت وازدهرت في بغداد والأندلس لم تكن عربية الأصل بل كانت من بقايا الحضارة الفارسية، ولم يشترك فيها رجل واحد من العرب لأن العقلية العربية سادية سيادية وأدبية الطابع وليست علمية بأي حال، ولهذا اشتغل العرب بالسياسة والأدب فقط دون العلم والفكر... وعرفنا أن الجنس العربي ليس نوعا بشريا حضاريا وإنما سلالة من الكائنات البشرية التي يغلب عليها طابع البداوة، ولهذا كانت دولتهم ذا طابع منفرد غريب عن غيرها من الدول والحضارات الأخرى. فقد قامت بحركة عسكرية عنيفة جدا نزفت الكثير من الدماء البريئة، وأيضا عاشت عمرا قصيرا جدا لم يتجاوز أربعة قرون من عمر الزمان، ومعروف أن القرون في عمر الحضارات لا تعني شيئا لأن عمر الحضارة يقاس بالألفية وليس بالقرن، فإذا كانت الحضارة العربية قد عاشت أربعة قرون فقط وماتت فهذا يعني أنها كانت طفلة أجهضت في شهرها الرابع ليس أكثر لأن أمها في الأصل عاقر.. وما زالت عاقرا..

حتى أن التجربة الحضارية القديمة للعرب قبل الميلاد كانت عاقرا أيضا، ففي القرن السادس قبل الميلاد قفز شيخ عربي اسمه "ابن كلدة " على العراق وأسس دولة هناك صارت هي الدولة الكلدانية، وكان تأسيس مجرد هيكل سياسي قائم على القدرة على السيطرة لا أكثر، ولهذا استمرت مائة عام فقط وسقطت، فهي لا تعتبر تجربة حضارية ولم تشهد أي حراك حضاري وعلمي أو فني ومعماري، إنما فقط هيكل سياسي من النوع العربي المعهود، وهو ذاته ما تكرر حينما هجم العرب على الشام والعراق بعد رحيل النبي وأسسوا دولة في هذه المنطقة امتدت أفقيا شرقا وغربا لكنها لم ترتق رأسيا بأي حال ولم تعمر فقد سقطت بعد ٤٠٠ سنة فقط من قيامها كالعادة، إذن هي ليست تجربة حضارية يمكن مقارنتها بالتجارب الحضارية في الصين والهند وإيجبت القديمة.

وهذا ما يدفعنا نحن الجبتين إلى توعية أنفسنا وإخواننا الشاميين والعراقيين والجزائريين وغيرهم من مغبة الوقوع تحت الغبار الثقافي والفكري العربي... فالعرب قد نفثوا ريحهم النتنة في أوطاننا، وما زلنا إلى اليوم نتنفس غبارا عربيا يجعلنا مسطولين طول الوقت، مغيبين عن الحقائق، ولا ندرك ببديهية أن العقلية العربية أدبية وليست علمية، وأنها الأكثر خطورة على الشعوب المدنية لأنها تهب من الصحراء

كما الرياح محملة بالغبار .. وللأسف الشديد فإن هذا الغبار العربي القرشي تلفع بستار الدين فأساء إلى الدين وغيّب عقولنا لدرجة أن بعضنا إلى اليوم ما زال ينادي بالقومية العروبية وكأنها شرف !

وأما من الناحية الثقافية، فقد هاجر العرب إلى هذه البلاد حاملين معهم ثقافتهم ولغتهم، وموردهم الثقافي انحصر فقط في ميراث النبوة أي الدين الإسلامي والشعر الجاهلي، وقد زاد احتقان العقل بشكلٍ تلقائي وذاتي، فأصبح الفقه مذاهب وفرق، وتثور بينها صراعات مسلحة لأتفه الأسباب.. سنية وشيعية وشافعية ومالكية وحنبلية وحنفية.. فقد تطبعت ثقافة العرب التي جلبوها من بلادهم بذات الطابع النفسي الذي هاجروا به، وكل ذلك الانشطار والتصدع الفكري جاء متزامنا مع التصدع والشقاق السياسي العسكري.. كل ذلك كان معالم التفتت والانهيار الذي أشرفت عليه حضارة العرب مبكرا قبل أن يدخل هولاكو عاصمتهم، أي أن انهيار الحضارة العربية كان محسوما مسبقا، ليس بقرار شخصي من الحاكم ولكن بقرار جمعي مال إليه العقل العربي على كافة المستويات (سياسيا وعسكريا وفكريا). وكان هذا السقوط للحضارة العربية مبكرا جدا مقارنة بالحضارات الأخرى، الفارسية عاشت ألف وسبعمائة عام فأكثر، وكانت فارسية الطابع والمنشأ والمقر. والحضارة الأوروبية القديمة عاشت ألفي عام وأنتجت الكثير من المعارف التي مثلت قاعدة للحضارة العصرية الحديثة، وقامت في مراكز متعددة داخل البلاد وكانت أوروبية الطابع والمنشأ والمقر. وكذلك الحضارة الصينية قاربت الألفي عام، وقد نشأت الحضارة الصينية في العديد من المراكز الإقليمية عبر قرى النهر الأصفر ونهر يانغتزي في العصر الحجري الحديث.

وأما الحضارة الجبتية عاشت ما يجاوز الأربعة آلاف عام.. هذه الحضارات قامت في الغالب على جهد أبنائها وبسواعدهم وعقولهم وفي عقر بلادهم واتخذت منها منارات للعمل والعلم والمعرفة في عصر زهوتها، بينما العرب نهض اسمهم فقط مع هيكل سياسي هش في بلاد غيرهم، فهم قفزوا على أكتاف غيرهم، لأننا كي نقول "حضارة عربية: فينبغي على الأقل أن تكون هذه الحضارة وثيقة الصلة بالقومية العربية، والقومية تتمثل في (أرض وشعب وتاريخ وجغرافيا وثقافة عرقية) بينما كانت النهضة العربية منفصلة فعليا عن الأرض العربية وعن الشعب العربي الذي عاش فقيرا جاهلا في شبه الجزيرة العربية.. بقيت مكة والمدينة في فقرها وجهلها عدا العائلات العربية التي هاجرت إلى دمشق وبغداد والأندلس ومارست السياسة هناك لأربعمائة عام ولم تمتد يدهم لكت العلم أو الفقه الديني. وبرغم أن جميع الحضارات مارست الغزو والتوسع الجغرافي الاستعماري لتكنيز الثروات، إلا أن أغلب أركان هذه الحضارات كان من جهد أبنائها وبسواعدهم، ولم يعتمد كليا على

النهب والسرقة فقط، فقد استغلت هذه الثروات في بناء كيانات اقتصادية ثقيلة، ومنارات تشع العلم والمعرفة في كل مكان، فكل حضارة احتلت غيرها من الشعوب صدرت له جانب من جوانب حضارتها ومعارفها وخبراتها، بينما العرب نهبوا وسلبوا وأنفقوا هذه الثروة فقط على القصور والضياع ونفقات الخدم وبناء المساجد فقط لزوم الغطاء الديني لسياساتهم المقيتة، ولم يقدموا للشعوب التي احتلوها أي جانب من جوانب المعرفة والخبرة الحضارية والثقافة..

فقط صدروا الدين الإسلامي، وحتى هذا المورد الثقافي لم يكن من نتاج أفكارهم بل ورثوه عن النبي.. لكنهم صدروه للشعوب بزفير قرشي النكهة.. فشكل غبارا ثقافيا خانقا نفرت منه الشعوب.. لدرجة أنهم استمروا في الأندلس ثمانمائة عام كاملة، وخلال المائة سنة الأولى اعتنق الإسلام أقل من ١٪ وهذه النسبة تشمل حتى الفاتحين العرب الداخلين.. بينما في إيجبت قضى الصحابة مائة عام وأجيالهم وأحفادهم يدعون للإسلام ولم يسلم من الجبتين سوى ٢٪ فقط من الشعب الجبتي، وهذه النسبة تشمل الفاتحين بالآلاف من الصحابة وأبنائهم وأحفادهم.. بينما دخل رجل فلسطيني إيجبت بنسخة من الإنجيل قبل ٥٠٠ سنة ونشر الدين المسيحي في إيجبت بالكامل خلال خمسين سنة فقط.. فقط لأنه لم ينشره بزفير قرشي النكهة، ولم يحدث عنه غبار معارك ولا صليل سيوف ولم تنزف دماء.. مع أن الإسلام أرقى وأشمل لكن العرب أخرجوه عن سياقه الروحي ومبادئه وشكلوه وفق أعراف مجتمعاتهم وطبيعته ونشأتهم، ففي النهاية صدروا ثقافتهم ولم يصدروا الإسلام.. ثم طمعوا في جوها الصافي المريح فسكنوها وتركوا بلادهم صحراء جرداء على حالها.. فأخروا دخولنا الإسلام أربعمائة عام كاملة.

بل إن العرب لم يتفقهوا حتى في دينهم ! فكيف يبنون حضارة؟، هم فقط احتلوا شعوبا متحضرة مثل فارس والعراق وأسبانيا وحكموها ليقولوا أن لديهم حضارة ! بل حتى أنهم برغم أن أرضهم هي مهبط الدين الإسلامي، إلا أنهم حتى لم يتفقهوا في دينهم الذي بعث على أرضهم، والذي غزو العالم كله لينشروه في أرجاء الدنيا.. لو كانوا صادقين، لكان حريا بهم أن يخرج منهم أكبر علماء الفقه ليصدروا علمهم إلى العالم، إنما هم صدروا السيوف وتخاذلوا عن العلم.

ولذلك فإن تسمية الحضارة الإسلامية خطأ لأنها تنسب إلي الدين فعل بشري، فالعرب قد أجرموا ونسبوا جرائمهم للدين وصدروه للعالم ملوثا بسيئاتهم.. فالحضارة هي جهد بشري له مزاياه وعيوبه، وأما الدين فهو منهج ثابت من عند الله، الحضارات تزدهر وتمرض بينما الدين مبادئه تبقى ثابتة.. ولا

يمكن تعليق تسمية الدولة بالدين بأي حال لأن سقوط الدولة يعني بذلك سقوط الدين الذي قامت عليه الدولة، بينما مفهوم الدولة هو مفهوم سياسي اجتماعي وليس ديني عقائدي حتى وإن ساهم الدين في قيام دولة، فيظل الدين هو سبب اتفاق مجموعة من البشر أو مجتمع علي إنشاء دولة، ولكن عند اعتبارها جهد بشري فإن سقوط الدولة يعني مجرد سقوط نظام سياسي لا أكثر، وقد يقوم مكانه نظام آخر بديل أو أنظمة متنوعة، وإلا كان سقوط الأديان في الأصل ظاهرة عادية، فالتوراة هي جزء من الإنجيل، دون أن يقوم الإنجيل على أنقاض دولة توراتية سقطت، والإنجيل جزء لا يتجزأ من الإسلام، لكن البشر يحرفون الأديان بغرس غرائزهم ونوازعهم العدوانية وميولهم النفسية المنحرفة وأعرافهم وتقاليدهم لتصبح دينا لهم. ولذلك من الضروري قطع الصلة بين التاريخ والدين إلا ما ثبت عن رسول الله وفي عصره فقط لأن عصره هو فقط حقبة التشريع.

وعندما ننظر بجرأة في عيون الحضارة العربية، سنجد أن حركة الترجمة العلمية لم تبدأ وتزدهر إلا في العصر العباسي وخاصة الخليفة المأمون الذي شجع العقلانية العلمية واحتضن المعتزلة وهم أول أجيال المسلمين الذين اتجهوا إلى ترجمة الفلسفة اليونانية لاعتماد مناهج التفكير والبحث العلمي، وفي ذات العصر ظهر سلسلة من العلماء "علماء الطبيعة " ينقلون عن العلوم اليونانية والفارسية والهندية، مثل أبو بكر الرازي والحسن الهيثم وابن سينا والبيروني، فقد اشتهر عصر الخليفة العباسي المأمون بظاهرة الترجمة، ثم بوصول القرن الثاني عشر تعطلت الحركة العلمية في كل أنحاء الدولة، وبدأ انهيار الأندلس تدريجيا خلال مائتي عام حتى انتهى في القرن الخامس عشر. غير أن ترجمة العلوم في حدا ذاتها ليست حضارة وإنما فقط مراحل تحضيرية، فعندما يقرر العقل الجمعي أن يخطو بحضارته للأمام فأول ما يبدأ به هو تمهيد الطريق، وهذا التمهيد يكون بتحصيل كافة المعرفة البشرية التي تم تدوينها حتى العصر، بحيث يبدأ الخطى من النقطة التي انتهى عليها من سبقوه لا من الصفر.

وبالنظر إلى أنه عند تقييم حجم الحضارة (باعتبارها كائن حي) فلا بد أن نقف على قدراتها كاملة، ليس فقط في موطنها ولكن قدرتها في التأثير على غيرها من الحضارات ثقافيا في عصر زهوتها وبريقها (الإشعاع الخارجي)، وحجم العلوم والمعرفة الإنسانية، وحجم الخدمات المعرفية التي قدمتها للبشرية بوجهٍ عام، ليس نموذجا أو مثالا واحدا وإنما عدد الاكتشافات والاختراعات وحجم الخطوات التي قطعتها مقارنة بالخطوات التي قطعتها غيرها من الحضارات. فالحضارة بطبيعة الحال عندما تصعد قمتها القصوى تخلق حالة من السلطة الثقافية على غيرها من الشعوب والحضارات

المعاصرة، أو كما يسميها الأستاذ عمر السكران في كتابه" سلطة الثقافة الغالبة" حيث يشرح مدى أثر الثقافات الغالبة على الشعوب المغلوبة وانبهار أبناء هذه الشعوب المغلوبة بالثقافة الغالبة السائدة، كما هو الحال في عصرنا نجد كافة شباب الوطن العربي يسعون لتعلم الثقافة واللغة الإنجليزية لأنها وصلت إلى مرحلة الهيمنة الثقافية على العالم وصارت تمارس فعليا " سلطة الثقافة الغالبة " وأصبح تعلم اللغة الإنجليزية دليلا ومؤشرا على رفعة الشخص ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا..

لكننا في المقابل لم نجد للحضارة العربية في عصر زهوتها المزعومة أي "سلطة ثقافية " على غيرها من الشعوب ولا هيمنة ثقافية ولا حتى أي احترام، بل العكس تماما. إذ أن الأستاذ عمر السكران في كتابه "سلطة الثقافة الغالبة " يقدم لنا دليل براءتنا مُشفَى وجاهزا تماما، فعندما يشهد شاهدٌ من أهلها فلا حاجة إلى دليلٍ بعد ذلك؛ لأن كل من يحاول الحديث عن الحضارة العربية بنوع من الموضوعية سيقابل سيولا عارمة من الاتهامات بالزندقة تارة وبعدم الانتماء للقومية العربية تارة، وبالتآمر عليها تارة، ثم بالتآمر على الإسلام تارات عديدة لا تنتهي؛ لأنهم يسمون حضارة العرب باسم الدين، وبالتالي كل من يتحدث عن حضارة العرب سيتهم بمهاجمة الدين لأنها لبست ثوب الدين.. لكن الله كريم جدا وعطاءه لا ينتهي؛ فقد ساقت الأقدار إلينا دليل البراءة على يد هذا الأستاذ الكريم في كتابه الجميل "سلطة الثقافة الغالبة" [٢١] حيث يمكننا مطالعة مقدمة الكتاب فقط من الصفحة السابعة إلى العاشرة. حيث يتناول فلاشة ضوئية على هذا الجانب من الحضارة العربية في عصر زهوة الحضارة العربية وفي قمتها القصوى ومع بداية رحلة الهبوط أي مطلع خريف الحضارة العربية، يقول:

في أواسط القرن الخامس من عمر الحضارة العربية كان شيخ الإسلام إسماعيل الهروي(ت٤٨١هـ) يتأمل كيف انبهر بعض المسلمين بالثقافة والفلسفة اليونانية، وقد عبّر هذا الإمام باستعارة بلاغية بديعة، حينما قال: " ينظر الناظر الفهم في جذرها؛ فيرى مخ الفلسفة يكسي لحاء السنة " [٢٢]..

٢١ـ إبراهيم عمر السكران – كتاب "سلطة الثقافة الغالبة " – الطبعة الأولى ٢٠١٤ دار الحضارة للنشر والتوزيع الرياض (ص ٧ بالمقدمة) الكاتب متخصص وحاصل على بكالوريوس شريعة. ماجستير سياسة شرعية من جامعة الإمام. ماجستير قانون تجاري دولي من جامعة إسكس-بريطانيا.

الكتاب منشور على موقع "طريق الإسلام" على الرابط التالي: https://ar.islamway.net/book/15916/

٢٢ـ إبراهيم عمر السكران ـ المصدر السابق ـ نقلا عن: الهروي –ذم الكلام، تحقيق عبد الله الأنصاري ، مكتبة الغرباء الأثرية (١٣٤/٥)

وبعد الهروي جاء أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) وألقى ملاحظة مشابهة، وهي أن الانبهار بالثقافة والفلسفة التي يهوّلها أصحابها قاد عددا من المنتسبين للعلم في زمانه لاعتقاد ذات الأفكار الفلسفية ليشاركهم جاه فخامتها . فإني قد رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب، وقد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس، وإطناب طوائف من متبعيهم في وصف عقولهم ودقة علومهم، وأنهم مع رزانة عقلهم منكرون للشرائع، فلما قرع ذلك تجملوا باعتقاد الكفر" [٢٣].

في هذه الفقرة القصيرة عن عالمين عظيمين من مشاعل الفكر والحضارة العربية، نقل ابن بار بهم وهو الأستاذ عمر السكران من أبناء شبه جزيرة العرب، نقل هذه الفقرات في كتابه المطبوع في العاصمة السعودية الرياض، في محولة منه لتمهيد طريق الإسلام للشباب ومساعدتهم في إعادة استنبات الحضارة العربية القديمة مرة أخرى، بينما هو يقدم الدليل – دون أن يدري بالطبع على أن حضارة أجداده العرب الأمويين والعباسيين في عز ازدهارها وبريقها في القرن الخامس من عمرها، كانت الشعوب المسلمة تحت الخلافة العربية تشعر بإطناب وانبهار شديد بالحضارة اليونانية ومنجزاتها العلمية والفلسفية، وعلماءها ورموزها مثل سقراط وأبقراط (الملقب بأبو الطب) الذي نبغ في بلاد اليونان قبل ألفي عامة كاملة من هذا التاريخ، فهم حتى لم يهضموا ما قدمته الحضارات الأوروبية القديمة اليونانية والرومانية قبلهم بألفي عام ! وينقل عن العلماء (الهروى والغزالي وابن تيمية) امتعاضهم من هروب عامة الناس منهم (والمنتسبين للعلم أي المثقفين؛ بما يشكل الرأي العام في عصرنا) فكان العلماء يشعرون بهروب الرأي العام منهم وانبهاره بمنجزات الحضارة اليونانية القديمة، وهذا ما دفعه لتأليف كتابه " سلطة الثقافة الغالبة " ليثبت بالدليل الدامغ أن الرأي العام في عصر الحضارة العربية وفي عز زهوتها وشموخها وعظمتها في العصر العباسي الثاني في القرن الخامس هجري، أن أبناء الشعوب المسلمة في هذه الحقبة كانوا يعيشون في حالة انبهار شديد بالحضارة الرومانية واليونانية القديمة ! ولم يكونوا هم من يمارسون هذه "الهيمنة الثقافية والسلطة الثقافية الغالبة " على غيرهم من الشعوب، بل كانوا هم الذين يشعرون بسلطة الثقافة اليونانية وتفوقها عليهم، وهذا ما يؤكد وجهة نظرنا في أن الحضارة العربية لم تكن حضارة وإنما فقط هوجة عربية لأنها لم تدرك مرحلة الإشباع الثقافي لأبنائها، وإنما ظلوا شغوفين بثقافة غيرهم المتطورة.

٢٣ ـ إبراهيم عمر السكران ـ المصدر السابق – نقلا عن الغزالي –تهافت الفلاسفة – تحقق أحمد شمس الدين – دار الكتب العلمية – الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ ص٤١

ويقول الابن البار الأستاذ عمر السكران: (وفي القرن السابع الهجري قدم الإمام ابن تيمية ملاحظات كثيرة حول ظاهرة الانبهار بالثقافة الفلسفية اليونانية، وتأويل نصوص العقيدة لتوافقها، نتيجة أنه قابل فعليا أمثال هذه الشخصيات وتعجب من انبهارها كقوله " لما كنت بالإسكندرية، اجتمع ني من رأيته يعظم المتفلسفة بالتهويل والتقليد[٢٤] ويقول الأستاذ عمر السكران أنه من أكثر ما ركز عليه ابن تيمية آلية شحن الألفاظ القرآنية بالمحتوى الثقافي الأجنبي لتمريره في الداخل الإسلامي... كقوله مثلا: يعبرون بالعبارات الإسلامية القرآنية عن الإلحادات الفلسفية اليونانية[٢٥] وقال في موضع آخر " ولا ريب أن القوم أخذوا العبارات الإسلامية القرآنية والسنية فجعلوا يضعون لها معاني توافق معتقداتهم [٢٦] ويرى ابن تيمية أن هذا لم يكن تصرفا بريئا، بل كان إستراتيجية مخاتلة ومراوغة كما يقول (ولكن يموهون بالتعبير على المعاني الفلسفية بالعبارات الإسلامية) [٢٧] ويشير ابن تيمية إلى أن هذا الأسلوب غير النزيه تسبب في تصدعات عقدية في الداخل المسلم، كما يقول: فيأخذ هؤلاء العبارات الإسلامية ويودعونها معاني هؤلاء، وتلك العبارات مقبولة عند المسلمين، فإذا سمعوها قبلوها، ثم إذا عرفوا المعاني التي قصدها هؤلاء ضل بها من لم يعرف حقيقة دين الإسلام".

وبغض النظر عن اعتراض ابن تيمية على عملية تضمين الأفكار والحكم والفلسفة اليونانية في الثقافة العربية لأن كل إنسان من حقه أن يعرب عن رأيه بحرية كاملة، وبغض النظر عن وصفه لذلك الفعل بأنه "تمويه متعمد ومراوغة" من هؤلاء المنتسبين للعلم أو المنبهرين بالثقافة اليونانية، برغم أنه ليس من المنطق وصف "الرأي العام" بالتمويه والمراوغة " لأنه لا معنى لوصف عامة الناس والمثقفين بأنهم يمارسون "تمويه متعمد ومراوغة ومؤامرة على الإسلام من خلال استخدام مفاهيم ومضامين يونانية في سياقات لغوية عربية مألوفة" !! وكأن الشعب يتآمر على دينه وثقافته !! فعامة الناس والمثقفين والقراء ليس بإمكانهم التواطؤ مع بعضهم والمراوغة والتمويه والتنسيق

---

٢٤ ـ إبراهيم عمر السكران ـ المصدر السابق (ص ٨ بالمقدمة)– نقلا عن ابن تيمية الرد على المنطقيين – تحقيق الكتبي، مؤسسة الريان، الطبعة الأولى(١٤٢٦هـ)،(ص٤٥).

٢٥ ـ إبراهيم عمر السكران ـ المصدر السابق (ص ٨ بالمقدمة)– نقلا عن ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٥٩٧/٧)

٢٦ ـ إبراهيم عمر السكران ـ المصدر السابق (ص ٩ بالمقدمة)– نقلا عن ابن تيمية، بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية " تحقيق: موسى سليمان الدويش ، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ (ص٢٣٥)

٢٧ ـ إبراهيم عمر السكران ـ المصدر السابق (ص ٩ بالمقدمة)– نقلا عن ابن تيمية ، جامع المسائل، تحقيق محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ (١٣٩/٦)

لتشكيل رأي عام مخالف للحقيقة "عمديا" أو أن يمكن وصفه بالتمويه والمراوغة، فالتمويه والمراوغة قد يقوم بها شخص أو مجموعة في إمكانية التنسيق للقيام لعمل ما سواء كانت مجموعة مدنية أو عسكرية، إنما وصف ثقافة عامة الناس وانبهارهم بالثقافة اليونانية المتقدمة بأنه تمويه ومراوغة ! ولما لا يُقال أن الفقهاء الأصوليين يرفضون الثقافة الغربية بوجهٍ عام ؟ فهذا هو الأقرب للمنطق العقلي لأن آراءهم توافقت على رفض الثقافة اليونانية.

ففي الواقع لم يستطع ابن تيمية قراءة الحالة النفسية العامة لشعبه أو المزاج النفسي العام والتوجه الثقافي العام واتهمهم بالمؤامرة على الثقافة الإسلامية، وبغض النظر عن وجهة نظر ابن تيمية وعدم قدرته على قراءة الرأي العام وتحليله ثقافيا واجتماعيا وسبر أعماقه نفسيا كما كان يفعل ابن خلدون. إنما الغاية هنا أن ندرك حجم هيمنة الثقافة اليونانية (القديمة) على الثقافة العربية في عز ازدهارها، بل إن الحضارة العربية في هذا الوقت في العصر العباسي الثاني كانت قد وصلت خريفها وبدأت تتساقط أوراقها أي انتهى موسم الحصاد الحضاري العربي، وكانت إلى هذا الوقت لم تهضم الثقافة اليونانية القديمة (التي من المفترض أنها أصبحت تاريخ العلم بالنسبة للعرب أي مادة تاريخية بحتة هضموها في مطلع حضارتهم وما بقي إلا العروج عليها باعتبارها تاريخ للعلم) إنما هم في الواقع وفي أواخر موسم الحصاد العربي كانوا منبهرين بالثقافة اليونانية القديمة التي سبقتهم بألفي عام كاملة ! أي أنهم أنهوا الموسم الحضاري العربي كاملا ولم يتمكنوا من هضم الثقافة اليونانية القديمة واستمر انبهارهم بها حتى مرحلة السقوط التام للدولة العربية ! وهذا ما يؤكد وجهة نظرنا في أنه لم تكن هناك أي حضارة عربية وإنما فقط هوجة عربية.

ثم ينتقل الكاتب بذات الخطوة إلى العصور الحديثة وعصر النهضة الأوروبية مطلع القرن التاسع عشر، أي قبل مائتي سنة تقريبا، في محاولة منه لربط الحبل وتوصيله بين (قمة الحضارة العربية ـ وعصر الاستعمار الأوروبي للعالم العربي) ويقارن بين الحالة النفسية العامة للشعوب ويثبت أنها لم تتغير، ودون أن يدرك أو يعي بأنه يقارن بين (عصر الاحتلال العربي لشعوب إيجبت والشام والعراق ـ وعصر الاحتلال الأوروبي لهذه الشعوب) ويخرج بنتائج متساوية من حيث الجو النفسي العام للشعوب والروح الانهزامية والهيمنة الثقافية الأوروبية على هذه الشعوب)... فيقول استيقظ المسلمون على (فارق الإمكانات) بين أوروبا والمجتمعات المسلمة، فظهرت حركات تبحث عن النهضة منذ رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني ثم بعدهم، لكن هذه الحركات سلكت الطريق الخطأ للأسف ! (علامة التعجب للسكران) فبدلا من أن تحيي معاني العزة والتحدي والثقة بالنفس الجمعية، وبهذا تنهض

الأمم، نشرت ما تعيشه في ذاتها من شعور داخلي عميق بالهزيمة النفسية لثقافة الغرب الغالب، فعادت وكررت نفس السلوك التاريخي السابق، وهو تأويل المعطيات الشرعية لتوافق الثقافة الغالبة، خصوصا على آلية حقن اللفظ التراثي بالمضمون الغربي تمهيدا لتبيئته [٢٨]. انتهى.

والغريب هنا أن نجد المفكر السعودي الكريم جدا يقدم الدليل بصورة مضاعفة، وليس هناك كرم أكثر من ذلك، فقد قارن بين عصر ازدهار الحضارة العربية في عز قوتها وعنفوانها وبين وضع الشعوب الناطقة بالعربية في القرن التاسع عشر(تحت الاحتلال الأوروبي)، يقارن الكاتب بين هذه الحقبة وبين حقبة العلماء السابقين (الهروي والغزالي وابن تيمية) أبناء الحضارة العربية في عهد الدولة العباسية في عنفوانها وقمة تطورها، ليثبت أن المزاج النفسي العام للشعب والرأي العام كان واحدا في الحالتين، وأن الشعوب الناطقة بالعربية في كلتا الحالين كانت تعيش حالة من الهزيمة النفسية والانبهار بالثقافة الأوروبية ولم تتغير الحالة ولم يتغير المزاج النفسي العام لهذه الشعوب من حيث شعورها بسطوة وهيمنة الثقافة الأوروبية أو ما يسميه الكاتب "سلطة الثقافة الغالبة" وهو يقصد ثقافة أوروبا القديمة والحديثة، ثم يقول الكاتب (بأن المسلمين بعدما استيقظوا في القرن الثامن عشر على فارق (الإمكانات) شعروا بذات النقيصة النفسية ((التي كانت في عهد أجداده الأمويين والعباسيين)) ونشرت ما تعيشه في ذاتها من شعور داخلي عميق بالهزيمة النفسية لثقافة الغرب الغالب، فعادت وكررت نفس السلوك التاريخي السابق)

إذن ذات السلوك التاريخي السابق (عصر ازدهار الحضارة العربية في عز قوتها وعنفوانها) هو بذاته الشعور الذي كان يعيشه أبناء القرن الثامن عشر من انبهار بالحضارة الأوروبية الحديثة، ولهذا تكررت أخطاءهم بتفاصيلها. ما يعني أن الجو النفسي العام والرأي العام في قمة الحضارة العربية هو هو بذاته الجو النفسي العام والرأي العام في القرن الثامن عشر(تحت الاستعمار الأوروبي)، والفارق أن الأول كان منبهرا بالحضارة اليونانية الرومانية القديمة جدا، بينما الثاني أصبح منبهرا بالحضارة الأوروبية الغربية الحديثة وهي أوسع نطاقا. وهذا ما يؤكد وجهة نظرنا في أنه لم تكن هناك حضارة عربية وإنما فقط هوجة عربية.

بل إن الغريب أن الكاتب يحاول توضيح الصورة المزرية أكثر في عهد أجداده العظماء (قمة ازدهار وعنفوان الدولة العباسية)، ويقول أن الرأي العام للشعوب الواقعة تحت سيادة دولة العرب في

---

٢٨ ـ إبراهيم عمر السكران ـ المصدر السابق (ص ١٠ بالمقدمة)

هذا الوقت كانت وكأنها تشعر بمذلة وخضوع اضطراري قهري بفعل سيطرة الثقافة اليونانية الغالبية عليهم، ويقول أن ذلك بسبب انبهار الشعوب بالثقافة اليونانية، فيورد في كتابه فقرة عن ابن خلدون يصف بها حال الشعب في عهد أجداده العظماء العباسيين، والتي قال فيها ابن خلدون: " أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده: والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب... ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله، حتى أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير ". انتهى

أورد السكران هذه الفقرة لوصف أحوال الشعب في عهد أجداده العظماء العباسيين، في محاولة منه لتفسير أزمة الهيمنة الثقافية الأوروبية على الشعوب عهد الدولة العباسية، أي أن هذه الشعوب كانت خاضعة لأجداده العباسيين سياسيا ومنبهرة بثقافة اليونانيين والرومان.. بينما لم يدرك السكران أنه بكلامه هذا يؤكد أن القومية العربية تعيش حالة من الفراغ طول عمرها ولم تصل لحظة واحدة لمرحلة الهيمنة الثقافية على غيرها ولا "سلطة الثقافة الغالبة" بما يعني تأكيده هو بلسانه وبشهادته الحية المعاصرة عن أجداده أنه لم يكن هناك حضارة عربية، ولو كانت هناك، فهي لم تستطع اجتياز خطوة واحدة من خطوات الحضارة البشرية حتى أنها لم تستطع هضم واجتياز التركة اليونانية، ولم تستطع تمتيع شعوبها بظاهرة الهيمنة الثقافية ولا سلطة الثقافة الغالبة...

والأغرب من ذلك أن السكران لم يدرك أبعاد نظرية ابن خلدون، فيقول السكران "لقد صعد ابن خلدون بمثل هذه الملاحظات حول تغالب الثقافات من مستوى التصرفات والمواقف الفردية إلى مستوى الروح المجتمعية العامة، فوصل إلى بهذا التنظير إلى مستواه التركيبي الأبعد " بما يعني أن السكران مقتنع أن الحالة التي وصفها ابن خلدون عن ثقافة الغالب والمغلون تنطبق على الشعوب المسلمة في عصر أجداه العباسيين وهذه كارثة مزرية... فهو يثبت بالدليل الدامغ أن أجداده لم يقيموا حضارة، وإنما كانت الناس منبهرة بثقافة اليونان في عز زهوتهم وعنفوان دولتهم...

ولم يدرك السكران أن ابن خلدون كان يتحدث عن أجداده العرب أنفسهم ويهجوهم بهذه الفقرة ! لأن ابن خلدون لم يتحدث أصلا عن فكرة الهيمنة الثقافية لحضارة أخرى على حضارة العرب ولا انبهار الشعوب العربية بالثقافة اليونانية وإنما تحدث عن (الخضوع والانقياد للغالب) فقد قصد

بحديثه "خضوع الشعوب غير العربية مثل الجبتين والشاميين والأمازيغ والعراقيين والفارسيين لسطوة وسيطرة العرب بالقوة والهمجية، فصار أبناء هذه الشعوب يتشبهون بالعرب بعد أن تغلبوا عليهم في حقبة الفتوحات وكسروا إرادتهم وسيطروا عليهم بالقمع، وصار أبناء هذه الشعوب نتيجة تأثرهم بمتلازمة ستوكهولم العربية يتبنون أفكار العرب ومبادئهم ويتحدثون لغتهم ويتبنون ثقافتهم بفعل الغلب والقهر وكسر الإرادة، وليس بفعل الانبهار الذي يتحدث عنه السكران، لأن كلام ابن خلدون كان واضحا جدا في حديثة عن الغالب والمغلوب والخضوع للغالب والانقياد له، وأن المغلوب يعتقد في الغالب الكمال، ومصطلح الغلبة في السياق الذي استخدمه ابن خلدون هو غلبة مادية بالقوة وليس هيمنة ثقافية، واستخدم ابن خلدون ألفاظ وتعبيرات واضحة عن قصده مثل عبارة " ويتشبه به في لباسه ومركبه وسلاحه، وشكل سلاحه بل وفي سائر أحواله ...إلخ. ثم استخدم ابن خلدون مثال أوضح وهو علاقة الجيرة، حيث قال" حتى أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير". أي أن أم المغلوب تتشبه بأم الغالب وهما متجاورتان في المسكن أو الشارع، وهذا بالطبع لا يفهمه عاقل أن ابن خلدون كان يصف أحوال انبهار المواطن العربي بالثقافة اليونانية القديمة وفلسفة أرسطوطاليس وعلوم أبقراط في الطب" !

إنما كان ابن خلدون يصف حال شعبه والشعب الجبتي الذي عاش فيه وبين أبنائه ويصف علاقة الجوار في الشارع الواحد، ويصف علاقة النساء في البيوت ببعضها، ويعقد معادلة واضحة وصريحة بين (الانهزام الذي ينقلب إلى انبهار بالغالب نتيجة اعتقاد المهزوم بكمال الغالب) وليس انبهار بثقافة أكثر تطورا). وهذا ما يجسد وضع الشعوب الجبتية والشامية والعراقية والفارسية تحت سطوة الدولة العربية، ما جعل أبناء هذه الشعوب يتبنون ثقافة العرب نتيجة (الغالب والمغلوب ومتلازمة ستوكهولم العربية)، إنما السكران لم يدرك ذلك واعتبر فقرة ابن خلدون وصف لأحوال الشعوب العربية في انبهارها بالثقافة اليونانية القديمة، فهل كان هناك غالب ومغلوب وسلاح وراكب ومركوب بين الشعوب العربية والحضارة اليونانية؟ وهل كانت هناك علاقات جوار للنساء بين العرب واليونان (القديمة) كي تتشبه أم المغلوب بأم الغالب؟!

فالعكس هو ما حدث من حيث القوة العسكرية والغلبة، كانت الدولة العربية سيطرت على جانب كبير من شعوب أوروبا وآسيا وأفريقيا، ومن المتوقع أن تخضع وتنقاد نساء أوروبا (الأندلس) للعرب الغالبين بالسلاح والمركوب، فكيف نتوهم أن الشعوب الناطقة بالعربية تشعر بالهزيمة النفسية تجاه شعوب أوروبا ؟ الهزيمة النفسية كانت في شعوب إيجبت والشام والعراق التي انكسرت

إرادتها تحت سطوة العرب، وهذا ما تحدث عنه ابن خلدون، وهذا ما لم يدركه حفيد العرب الأستاذ السكران في كتابه. غير أن الأستاذ السكران لديه مشكلة إدراكية؛ وهي أنه حينما يتحدث عن العلم والثقافة والمعرفة، فيجب عليه أن يحترم أجداده وألا ينطق باسم العرب؛ لأن العلم والمعرفة ليس من أبجدياتهم، إنما أبجدياتهم هي الإغارة والإغارة فقط، وإذا أردا التحدث عن العلم والمعرفة وسلطة الثقافة الغالبة والمغلوبة، فهذا يأتي فقط في نطاق الشعوب المدنية مثل الشام والعراق وفارس وإيجبت والصين والهند وأوربا، لأن هذه شعوب، بينما العرب قبائل، والله تعالى لم يخطئ حينما قال: وخلقناكم شعوبا وقبائل"

وخلاصة هذه الفقرات المقتبسة من كتاب الأستاذ السكران العربي الأصيل الكريم، نتأكد أن الحضارة العربية كانت عاقرا ولم تنجب ولم تصل إلى مرحلة الإشعاع المعرفي الخارجي، بل ظلت شعوبها منبهرة بتاريخ الحضارات السابقة عليها، ولم تكد تكتمل مرحلة الترجمة من الرومانية واليونانية والهندية والفارسية إلى العربية حتى أجهضت في قرنها الخامس، بينما الحضارات الأخرى استمرت عشرات القرون، والجبتية استمرت أكثر من أربعة آلاف عام، ووصلت لمرحلة الإشباع الثقافي لأبنائها والإشعاع المعرفي الخارجي أيضا.. فليس ممكنا تقييم حجم الحضارة (باعتبارها كائن حي) دون الوقوف على قدراتها كاملة، ليس فقط في موطنها ولكن قدرتها في التأثير على غيرها من الحضارات ثقافيا في عصر زهوتها وبريقها (الإشعاع الخارجي وليس فقط قدراتها في الاقتباس)، وحجم العلوم والمعرفة الإنسانية، وحجم الخدمات المعرفية التي قدمتها للبشرية بوجهٍ عام، والمزاج النفسي العام لأبنائها، وحجم الخطوات التي قطعتها مقارنة بالخطوات التي قطعتها غيرها من الحضارات.

في الواقع أن الحضارة الغربية الحديثة اتخذت من تركة الحضارة الرومانية نقطة للبداية (بالنسبة للعلوم الطبيعية وهي العمود الفقري للحضارات)، ولم تلتفت كثيرا إلى ميراث الحضارة العربية في العصور الوسطي سوى في قليل مما قدمه علماء مسلمين ناطقين بالعربية، وهم بأصلهم وعرقهم وجنسهم ليسو عرب، هم فقط عرب من حيث اللغة والديانة والخضوع لحكم العرب، غير أن معظم انجازاتهم توقفت عند حدود الترجمة عن الرومان مع قليل من الإضافة، بما يمكن احتسابه إضافة واحدة لعالِم واحد في كل مجال من مجالات العلم، وتجربة واحدة تم استحداثها في كل مجال، غير أن هذه التجربة في حد ذاتها ليست عربية خالصة، وإنما أغلبها من بقايا الحضارة الفارسية، وعلماءها مذكورون في التاريخ الفارسي الوطني باعتبارهم علماء فارسيين خلال حقبة الاحتلال العربي لبلادهم، وليس من الصحيح احتسابهم لصالح العرب لأن من قاموا بها ليسو عرب حتى

ولو كانوا مسلمين، فالحضارة تأخذ جنسيتها من شعبها وليس من دين المحتل لبلاده، لأن الدين ليس منهج حضارة وإنما منهج أخلاق يصلح لجميع الشعوب المتحضرة والمتخلفة على حد السواء، أما الحضارة فهي الجهد البشري الذي بذله شعب من الشعوب خلال حقبة من عمر التاريخ، وهو خاضع لمعيار التجربة وليس للدين دخل فيه. فالدين منزل من عند الله لجميع الشعوب، وليس لشعب أن يستقل ويجعل تاريخه تاريخ للدين.

فالحضارة الأوروبية الحديثة بدأت في القرن الثاني الميلادي واستمرت صعودا حتى قطعت شوطا طوله ٨٠٠ سنة وما زالت في طريق الصعود، بينما حضارة العرب ظهرت واختفت خلال ٤٠٠ سنة فعلية، ولم تجد الحضارة الأوربية ما يمكن أن تعتبره دعائم علمية حضارية تبدأ من عندها، فتجاهلت حضارة العرب واتجهت مباشرة للبحث والتنقيب في بقايا الحضارة اليونانية والرومانية القديمة جدا، ولهذا أخذت الحضارة الأوروبية الحديثة الطابع اليوناني القديم خاصة في مجالات التشريعات وصناعة القوانين والفلسفة والمنطق، وتجاهلت تركة الحضارة العربية والمرويات والأسانيد وتاريخ الغزوات وعدد السبايا وكل تراثها..

لأن الحضارة العربية أنهت موسم حصادها الحضاري ولم تنه بعد مرحلة الترجمة الأولية عن الحضارات الأخرى ولم تصل إلى مرحلة الترجمة العكسية أو الإشعاع المعرفي للخارج ولم تتمتع بسلطة الثقافة الغالبة كما أثبت ذلك ابنها السكران في كتابه "سلطة الثقافة الغالبة" أو الهيمنة الثقافية، بل إنها حتى لم تحقق الإشباع الثقافي لرعيتها، فظلوا في أواخر عمرها يحلمون بحليب الأم اليونانية وثديها الخصب، ونفروا من شجرة الشوك العربية، وهذا ما أزعج الفقهاء كثيرا جدا وأرق مضاجعهم، حتى السكرن انزعج من هذا الأمر وصار يوجه اللوم والعتاب لأبناء الشعوب الناطقة بالعربية والتي كانت تشتاق إلى الفكر والثقافة اليونانية القديمة في عهد أجداده العباسيين.

ولن نذهب بعيدا طالما كان مورد الماء قريبا.. فما قدمه العالم الجليل أحمد زويل في مطلع القرن الحالي والذي حصل بموجبه على جائزة نوبل في الكيمياء.. تلك الفكرة العبقرية التي مكنت البشر من الاطلاع على واحد من أكثر الأسرار عمقا وقدرة على التخفي، فما بدأه ديمقريطس كفكرة فلسفية قبل ألفين وأربعمائة سنة بتصوير أن المادة تتكون من ذرات، أصبح هو نقطة الانطلاق لكل البحث العلمي في نطاقي الفيزياء والكيمياء طوال القرن العشرين، لقد تعرفنا على الذرة، وجسيماتها، وحالاتها الكمية، تعرفنا على تموضع الذرات في الجزيئات، وعلى أنواع التفاعلات

الكيميائية، ذلك من خلا الكاميرا العجيبة التي ابتكرها لرؤية الذرات. فالرؤية الفلسفية التي وضعها ديمقريطس قبل ألفي عام لم تجد لها موطنا في حضارة العرب لأن الحضارة العربية كانت تكره الفلسفة والمنطق، وكان أغلبية رموزها ومثقفيها يهاجمون علماء الطبيعة، ولنقل يكفي أن المهتمين بها واجهوا جميعا تهمة الزندقة والكفر !..

ولذلك لم يمكننا القول بطمأنينة أن العلوم الطبيعية لم تجد التربة الخصبة في الدولة العربية كما وجدتها العلوم الفقهية والأدب والشعر، ولم تحظ برعاية السلاطين والخلفاء كما حظيت العباءات الفقهية التي تمجد السلطان وتقدس الخليفة. بل إننا يمكننا القول أن العلوم الطبيعية في دولة العرب كانت أشبه بشجيراتٍ نمت في الصحراء عشوائيا دون مطر ودون غذاء ودون تربة خصبة ملائمة، ولهذا كان علماء الطبيعة نادرون جدا وعددهم لا يعادل ١٠٪ من أعداد الفقهاء والمذاهب والمشايخ. ذلك لأن البيئة العربية ونسيجها في الأصل صحراوي، وبطبيعة الصحراء تحوي نباتات زاحفة ذات نسيج مرن وهو الملائم للمعرفة السائلة، لكنها لا تخلوا من بعض الشجيرات متباعدة تقف على سيقان ودعامات رأسية.



وحتى أننا لا نجد في تاريخ الحضارة العربية كافة أنواع العلوم المعارف، بل فقط نجد الأدب والشعر والفقه بغزارة، ونجد كتب تاريخ أحداث العنف السياسي والعسكري بغزارة، بينما نجد ندرة في مجال العلوم الطبيعية؛ الكيمياء والفيزياء والأحياء، ولا نكاد نجد فكرا معتبرا في مجال

الفكر السياسي والاجتماعي سوى ابن خلدون الذي تبرأ من العرب وشن حملة ضارية عليهم، وذكر في أكثر من موضع أن جيناتهم الوراثية لا تؤهلهم لبناء حضارة إنسانية.. حتى أن الأوروبيين عندما عادوا للأصول الرومانية وجدوا مراجع أصلية أفضل صياغة من تلك التي ترجمها المسلمون.

وهناك مؤشر قد يفسر لنا ذلك، هذا المؤشر يظهر في مدى اهتمام العرب بالمعرفة الدينية إلى جوار العلوم الطبيعية، فأغلب علماء الفقه نبذوا العلوم الطبيعية، وأغلب علماء الطبيعة تم تكفيرهم والحكم عليهم بالزندقة، وغير ذلك عند مقارنة عدد علماء الدين بعدد علماء الطبيعة لن نجد هناك أي توازن في العلوم بين النوعين. برغم أن الدين في الأصل ليس وحده كل جوانب المعرفة في الحياة، بل إن الدين في الأصل هو أحد عناصر الحياة الثقافية، وتحديدا فرع من قسم العلوم الإنسانية، وهي فروع متعددة، منها معرفة سياسية ومعرفة اجتماعية ومعرفة قانونية ومعرفة تاريخية وجغرافية ومعرفة أدبية شعرية ونثرية ومعرفة فنية. وأما القسم الثاني فهو العلوم الطبيعية، وتنقسم إلى (هندسة وطب وكيمياء وفيزياء وأحياء وتكنولوجيا تربط هذه الفروع ببعضها)، هذه هي أنواع المعارف التي تقوم عليها الحضارة وأي حضارة، ولا يمكن أن تقوم حضارة مع سقوط فرع معين من هذه الفروع، فالدين هو عنصر من عناصر قسم العلوم الإنسانية، وهذه العنصر الثقافي لا يمكن أن يغني عن أي فرع آخر، فلو تصورنا أن الحضارة هي آلة تعمل أوتوماتيكيا، فيكون الدين هو أحد العناصر السائلة في هذه الآلة والتي تساعدها في ضبط حركتها مثل الزيوت والشحوم التي تحافظ على مرونة الحركة وانسيابيتها، لكن أن تصبح المكنة كلها شحوم وزيوت وتخلوا تماما من تروس الحركة ! فهذه كانت حضارة العرب!

حيث نجد أن الحضارة العربية قامت في نشاطها الرئيس على هذا الفرع دون غيره من فروع المعرفة وأقسام العلوم الإنسانية والطبيعية، ولهذا حملت اسمها وصفتها منه، وما زالت تسمى "الحضارة الإسلامية"، برغم أن الدين لا ينشئ حضارة وإنما العلم (الهندسة والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا)، وكانت للفقهاء الغلبة والهيمنة وقد عاشوا تحت الوصاية السياسية لأن الدولة أصلا قامت تحت غطاء الدين وباسمه، ولذلك كان الفقهاء أصحاب الحظوة بينما باقي أنواع المعرفة والعلوم كانوا في الذيل ولا قيمة لهم، أو يمكن اعتبارهم صف المعارضة المتمردين على دولة العرب سياسيا وفقهيا، ولم يكونوا تيارا علميا فكريا موازيا للآخر، وهو ما يعني أن حضارة العرب كانت تسير على جناح واحد والآخر مكسور ومتهم بالزندقة.

ولم تكن هناك مؤسسات علمية أو مختبرات تتولاها الدولة رسميا أو تقدم لها تسهيلات كما كان الوضع مع مؤسسات التعليم الديني وإنشاء الكتاتيب والمساجد والزوايا، لدرجة أن غالبية الشعوب العربية اعتبرت أن العلم هو الدين فقط، وأن العلوم الطبيعية (فيزياء – كيمياء – أحياء) هي محض فضلات معرفية لا ترقى إلى درجة أن تسمى علم، بل مجرد حرفة من الصنائع، ولا يحصل المتخصصين فيها على مسمى عالِم، بل إن درجة العالمية كانت مخصصة فقط لرجال الدين. حتى وإن جاء العرب بعد مرور ألف عام ليحتفلوا بمنجزات أبي بكر الرازي أو الحسن الهيثم وجابر حيان وابن رشد، فهؤلاء العلماء لم يعرف العرب قيمتهم وقتها ولم يستفيدوا من علومهم ولم يعترفوا بهم إلا بعدما اعترفت بهم الحضارة الغربية الحديثة، وأشاعوا أسماءهم ومنجزاتهم في المحافل العلمية، ومن هنا احتفل بهم العرب واعتبروهم مصدر فخر لهم!. وجاء علماء الطبيعة بجهودهم الفردية دون رعاية من الدولة أو اعتراف من المجتمع سوى فقط فترة الخليفة المأمون الذي شجع حركة الترجمة من الحضارات الأخرى، وخصص لها قسما بالمكتبة العامة. إنما في الغالب كان علماء الطبيعة منبوذين مثل شعراء الفسق والهوى، وغالبا ما يتهمون بالزندقة، ويتم سجنهم أو جلدهم أو احتقارهم مثل ابن سينا.. في الوقت الذي كانت ملكة البرتغال تمول حملات المستكشفين الجغرافيين في المحيط وتمول العلماء والباحثين.

ناهيك عن الحملة التي قادها الإمام أبو حامد الغزالي ضد العلم والعلوم الطبيعية وإصراره على إنكار السببية.. إنه كان (المسلم المثالي)، الذي أعطى الضربة القاضية للتفكير العلمي في العالم الإسلامي – الإمام الغزالي (١٠٥٨ـ١١١١) ولا يزال هذا الرجل يشغل مركزا مرموقا بين "علماء" المسلمين، حيث استنكر بصراحة قوانين الطبيعة والتفكير العلمي. قال أن أي قوانين مشابهه تضع السلاسل على يد الله !. كان يجزم إنه لو كان هناك قطعة من القطن تم حرقها، فإنها لا تحترق لأسباب فيزيائية بل لأن الله أراد لها أن تحترق، مع أن إرادة الله تتجسد في قوانين الطبيعة والطبيعة من صنع الله لا من إبداعات البشر، وليست شيطانا عدوا لعبادة الله. وهو ما يعني اعتناق الغزالي سفسطة صوفية لا تؤمن بعلوم الطبيعة ولا يأخذ بالأسباب ولا يعترف بها.

وكما يقول د. مهاتير محمد "وأيا كان سبب هذا التشدد على دراسة العلوم الشرعية حصرا، الحقيقة هي أن اشتغال العلماء المسلمين بدراسة ميادين المعرفة الأخرى تراجعت في وقت قريب عنها في القرن الخامس عشر، وبمرور الوقت، أصبح المسلمون شديدي الجهل بهذه الموضوعات.. كانت هذه هي عاقبة التفسيرات الخاطئة للآيات القرآنية، مثل الخطأ في تفسير " اقـــرأ" والعجيب أن بعضا لم

يحمل الآية على معنى القراءة ". فقد حرم ابن تيمية دراسة الكيمياء، وهو من أوسع فقهاء الدين انتشارا وصيتا بين الشعوب العربية برغم فتاواه الدموية المتطرفة، حيث يقول" أن الكيمياء أشد تحريما من الربا "

وبالمناسبة، فإن قول الله تعالى " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " فهذا لا يعني أن يتخصص الإنسان في ممارسة شعائر العبادة، كالصلاة والصوم والحج وتلاوة القرآن، لأن الله خلق الإنسان وسيّره في هذه الدنيا متعدد النشاطات، فهو يمارس شعائر العبادة التي توقظ ضميره، ويمارس الرياضة ليحافظ على صحته البدنية، ويمارس النوم ليستريح بدنه وذهنه قسطا، ويمارس العمل ليستطيع العيش والإنفاق والأكل والسكن، ويمارس الطب ليخفف آلامه وأوجاعه، ويمارس الهواية لينعم بحياته ولا يكتئب، ويمارس الفكر والعلم ليرتقي بحياته ويكتشف الكون من حوله، ويمارس الحب والجنس كي ينجب ويستمر الجنس البشري. إذن مجالات النشاط الحيوي متعددة وجميعها على ذات الدرجة من الأهمية، وليس هناك فرع من النشاط الحيوي يقل أهمية عن آخر، وبالتالي فقول الله تعالى " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " لا يعني أن يفرغ الإنسان حياته من كافة تخصصات وفروع النشاط الحيوي للتركيز على نوع واحد فقط من الأنشطة الإنسانية التي هي على ذات الدرجة من الضرورة والأهمية، بل معنى قول الله خلقت الجن والإنس للعبادة أي ليقوموا بكل فعل في حياتهم على الوجه الصحيح، فالعبادة هي الفعل والتصرف على الوجه الصحيح المشروع أيا كان نوع الفعل، فيكفي أن يكون مشروعا ليكون عبادة، وليس حصر النشاط الحيوي في تخصص شعائر العبادة. فالإنسان طالما عاش حياته وعملَ ونام وأكل وشرب ولعب وفكر وصلى على الوجه الصحيح وفق السيناريو الذي رسمه الله لحياة هذا الكائن يكون بذلك قد عبد الله حق عبادته.. إذن كل فعل يتم أداءه على الوجه الصحيح فهو عبادة، أيا كان نوع هذا الفعل سواء كان لعب أو فكر أو نوم أو صلاة أو عمل.

أما وهناك نوع من البشر يحاولون حصر كلمة العبادة في أداء الشعائر والطقوس الدينية فقط، فهذا يخالف غاية الله من خلق هذا الكون وخلق كل هذا التنوع من الكائنات الحية وغير الحية الفلك والفضاء والأجرام.. فهذه المخلوقات تعبد الله بالسير الصحيح على الفلك الذي رسمه الله لها، والكائنات الحية تعبد الله بممارسة حياتها على الوجه الصحيح الذي خلقها الله به بفطرتها مثل التزاوج الصحيح وغير ذلك. والإنسان يعبد الله بالعمل الصالح، والعمل الصالح هنا لا يشترط تخصصه في بند الشعائر، لأن الله خلق الإنسان ليعمر الكون ويعيش رحلة حياة حضارية كاملة عبر تتابع

العصور والأزمان في تنوع ثقافي فكري، ولذلك قال: وخلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إذن التعارف هنا غاية من غايات الله في خلق البشر بهذا التنوع، فلماذا لم يخلقهم متماثلين طالما خلقهم من أجل شعائر العبادة فقط؟.. لكن هناك نوع من البشر كسولين جدا عن العمل والبناء والإنتاج، فيحاولون تبرير كسلهم ورغبتهم عن الحياة بالقول بأن العبادة هي فقط ممارسة الشعائر الدينية وأن الغاية من الحياة هي أداء الطقوس الدينية فقط، مع أنها محض جانب من جوانب الحياة ونشاط من الأنشطة الضرورية المتعددة في الحياة. حتى وإن كان الله قد أنزل كتالوج للعبادة مثل القرآن دون أن ينزل كتالوجا للطب والكيمياء والفيزياء، لأن الله ذاته هو من خلق الطبيعة وأمر الإنسان بإعمال عقله فيها كما أنزل القرآن سواءً بسواء، فالطبيعة هي قانون إلهي كما القرآن تماما، فالطبيعة ليست صنيعة الشيطان.

بينما هناك فئة من الناس – في كافة الأديان – تخلق لنفسها حالة من السكون والزهد والرغبة عن الحياة والعمل والإنتاج وتركن إلى الدعة بمبررات التعبد مثل ظاهرة الرهبانية التي ابتدعها أجدادنا المسيحيون في إيجبت وانتشرت إلى العالم أجمع، ولو كانوا مارسوا السياسة والفكر والعلم بقدر ما مارسوا الرهبنة في هذه الحقبة المظلمة، لما كانوا وقعوا تحت احتلال العرب ولا غيرهم، وفي المقابل نجد ظواهر رهبانية إسلامية أخرى مثل طقوس الصوفية والخلوة التي ظهرت بكثافة في إيجبت خلال العصر الأيوبي، حيث كان يلجأ مشايخ إلى جحور جبلية حفروها في جسر جبل المقطم ويجلسوا داخلها للتعبد ! وظواهر أخرى هي في جوهرها نوع من المبالغة في الشعائر مثل تحويل صلاة القيام من فردية كما أداها النبي والصحابة إلى صلاة جماعية تؤدي بشكل يومي منتظم في كل مساجد الجمهورية وطوال أيام شهر رمضان وكأنها شعيرة لا يستقيم الصيام بدونها، بينما هي نوع من الرهبنة ابتدعوها وما كتبها عليهم. أي أننا نلاحظ مبالغة في أداء الشعائر دينية يسير متوازيا مع انحدار في المستوى العالم للفكر والعلم والقيم والأخلاق والمبادئ وخاصة مبدأ الضمير وإتقان العمل ومعدلات الإنتاج، فلا شك أن مرحلة المماليك والأيوبيين في إيجبت كانت هي أحط مستوى حضاري وصل إليه الشعب الجبتي، حيث قفز العبيد (المماليك) على السلطة لما تنازل الجبتيون عن ممارسة السياسة في بلدهم، وهو ذات العصر الذي برزت فيه ظاهرة التصوف الإسلامي وانتشرت فيه الخرافات والكرامات والأساطير الدينية... أي أن انتشار الفساد الأخلاقي والانحطاط الحضاري يسير متوازيا مع المبالغة في تأدية شعائر العبادة، وكلما أعيد ضبط الأولى انضبطت الثانية بالتوازي.

يقول الأستاذ حسن فرحان المالكي عن ابن تيمية وتحريمه للكيمياء" ابن تيمية لم يقتصر تطرفه على التحريض على الدماء بل وصل للكيمياء فحرمها وشن عليها حملة، لأن مؤسسها جابر بن حيان! وسبب بغضه لجابر حيان أنه من تلاميذ الإمام جعفر الصادق؛ لكن ابن تيمية ذكي؛ فلا يصرح بأهدافه البعيدة!.. أفتى ابن تيمية في تحريم الكيمياء فتوى في مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٦٨) لا نستطيع كتابتها لطولها، ولكثرة ثرثرته، ولكن نستعرض (فلاشات) من أقواله، حيث يقول: " أهل الكيمياء من أعظم الناس غشا! هم أهل ذلة وصغار! ـ الكيمياء محرمة باطلة! " واستدل على بطلانها بقوله: (لم يكن في أهل الكيمياء أحد من الأنبياء ولا من علماء الدين ولا الصحابة ولا التابعين)! وأن جابر بن حيان: (مجهول لا يعرف! وليس له ذكر بين أهل العلم والدين)!، ثم يقول: (الكيمياء لم يعملها رجل في الأمة له لسان صدق ولا عالم متبع ولا شيخ ولا ملك عادل ولا وزير ناصح، إنما يفعلها شيخ ضال مبطل)! بهذا الأسلوب يهول ابن تيمية على العامة وفكره في التاريخ والعقائد كفكره في الكيمياء تماما! إلا أن الناس تجاوزوا هذا دون ذاك.. وبرغم أن الأزهر بعد طول الضغط عليه قام بمنع تدريس كتبه ومصادرتها من الأسواق لما تنشره من فكرٍ إرهابي متطرف، إلا أن شعبيته لا زالت مسيطرة على فصيلٍ عريض من العامة والدهماء السلفية في إيجبت والعالم العربي.

كان المسلمون تحت حكم العرب في مجال العلوم منقسمون بين فريقين؛ الفريق الأول يرى أن العلم هو الدين، وما سواه هو محض أدوات عمل مادية وحرف وصنائع يمكن استعمالها أو الاستغناء عنها، مثل العلوم الطبيعية والطب والكيمياء والفيزياء، اعتبروا هذا النوع من العلوم هو محض فضلات معرفية أو صنائع ومهن حرفية لا ترقى إلى درجة أن تسمى علما، وبعضهم نبذ المشتغلين بهذا النوع من المعرفة واتهمهم بالزندقة والخروج من الدين، ومن أمثلة العلماء الذين تم نبذهم: ابن حيان والخوارزمي والكندي وعباس فرناس واليعقوبي وابن الهيثم وابن باجة وابن بطوطة وابن النديم والمسعودي. وابن رشد والفارابي وأبوحيان التوحيدي. وعلى المستوى الديني، كان ابن سينا أكثر الشخصيات بغضا لدى الأصوليين الذين اتهموه بالكفر، فقيل عنه: إمام الملحدين الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر (إغاثة اللهفان ٢/ ٢٧٤، ابن القيم.

أراد الفريق الأول، القول إن الدراسة التي تلقى استحسان العلماء هي دراسة الدين فقط وأن كل الدراسات أو ميادين المعرفة الأخرى لا تكسب صاحبها أي فضل، والأشخاص الذين أعطوا هذه التفسيرات كانوا أشخاصا تعمقوا في دراسة الدين، ولابد من أنهم مالوا بالبداهة إلى اعتبار هذا الفرع من المعرفة هو العلم الأوحد؛ لأنهم أصيبوا بنرجسية العرب. وكان هذا هو الفريق الغالب على عصر

الحضارة العربية. أما الفريق الذي اهتم بالعلوم الطبيعية وأجاد الترجمة ودرس الفلسفة والفيزياء والحساب.. هذا الفريق ما كاد أن يزدهر في عصر الخليفة المعتزلي المأمون، استمرت زهوته فترة قصيرة وانطفأت شعلته سريعا.

فالحضارة العربية لم تخطو سوى خطوة واحدة في العلم بكافة مجالاته، حيث بدأت بالترجمة وظهر عدد من العلماء القليلين جدا مقارنة بعمر الحضارات ومقارنة بعدد علماء الدين، بما يعادل بروز عالم واحد نابغة في كل مجال من مجالات العلوم الطبيعية، شغل نصف عمره بالترجمة ونصفه الآخر بالبحث والإضافة، ثم توقفت الحركة العلمية.. غير أنهم جميعا بالتقريب تم استبعادهم من الدين الإسلامي أو تكفيرهم (ابن سينا وأبو بكر الرازي في الطب وابن رشد.. الإدريسي في الجغرافيا وابن الهيثم في الفيزياء والخوارزمي في الجبر.. إلخ) حتى أن ابن خلدون عالم الاجتماع الشهير في مقدمته لعلم الاجتماع والعمران اعترف صراحة بهمجية العرب وعدم حسهم الإنساني بمعنى الحضارة والرقي الإنساني وميولهم الغريزية في هدم الحضارات لا بنائها، ولعلمه بعدم اعتراف العرب بالعلوم سوى ما كان دينيا فقط، فلجأ إلى تطعيم نصوصه وكتاباته بنصوص قرآنية قيل ليست ضرورية في موضعها ولكنه تعمد ذكرها هروبا من الاتهام بالهرطقة والزندقة، وهي أكثر تهمة راجت في عصر الدولة العربية وغذى لهيبها الفيلسوف الصوفي محمد الغزالي حينما رفض الاعتراف بالسببية من الأساس، حتى أن أحدا من العرب أو علماء المسلمين لم ينتبه لما قاله ابن خلدون في علم الاجتماع والعمران والاقتصاد برغم أنه فاق في عبقريته ما قاله علماء الفقه على مدار التاريخ، وابن خلدون كان أمازيغي العرق أو كما قال أنه من أصل يمني لكنه مغربي النشأة، عصامي ونابغة شاذة وموهبة فريدة لم يتتلمذ على يد علماء رعتهم الدولة العربية ولم يتعلم أكاديميا وإنما انكب على المكتبة ينهل منها ويعمل عقله، غرق في كتب العلم والفقه والتاريخ حتى فهم معنى الحياة، ولم يكن له تلاميذ لطلب علمه لأنه ليس من علماء الدين.

هؤلاء العلماء انفردوا وانعزلوا عن المجتمع في صوامعهم ولم يكن لهم طلاب ولا مدارس ولا مريدين ينقلون العلوم عنهم ويطورونها، فقط الرازي لكونه طبيبا خدم في البيمارستان المنصوري ولأن الطب تحديدا كان من الضرورة المعيشية لكل إنسان، مثل الأكل والشرب، وليس كالفيزياء والهندسة والميكانيكا. وعلى العكس تماما نجد العلوم الشرعية هي الأساس، فكانت ساحات التدريس تقتصر فقط على دراسة القرآن وعلوم الفقه التي انتشرت وتوسعت أفقيا في كل أرجاء الدولة، ولم تخطو خطوة واحدة تطورا رأسيا، فالدولة لم تكن تتبنى سوى الكتاتيب وزوايا المشايخ

لتحفيظ القرآن إلى جانب مستشفى حكومي، وهذه كانت المهام الرئيسية لكل حاكم. ولم يبدأ الأزهر في تدريس علوم الرياضة والحساب والهندسة إلا بالإكراه في العصر الحديث، فكان يرفض الاعتراف بها أصلا. ولم يسمح للبنات بدخول فصوله الدراسية إلا بالإكراه في العصر الحديث أيضا.

بينما كانت الحضارة الجبتية واليونانية والبابلية والهندية قبلها تعج بألوان التطور والتقدم العلمي في كافة المجالات، وارتقوا إنسانيا وحضاريا من حيث الرقي الإنساني وحقوق الطفل وحقوق المرأة، بينما الحضارة العربية كانت تدرس لهم أن صوت المرأة عورة وأنها ناقصة عقل ودين وغدارة وتكفر العشير...إلخ. لم تنعم بأي شيء من الإنسانية على الإطلاق، بل إن الفقهاء على المذاهب الأربعة شرعوا وشرعنوا فكرة القتل الهجومي لتحصيل الجزية والغنائم وخطف النساء والأطفال وابتدعوا أسواق النخاسة كما كان عهد الجاهلية سواءً بسواء وقالوا أن هذا جهاد من أجل الله.!!

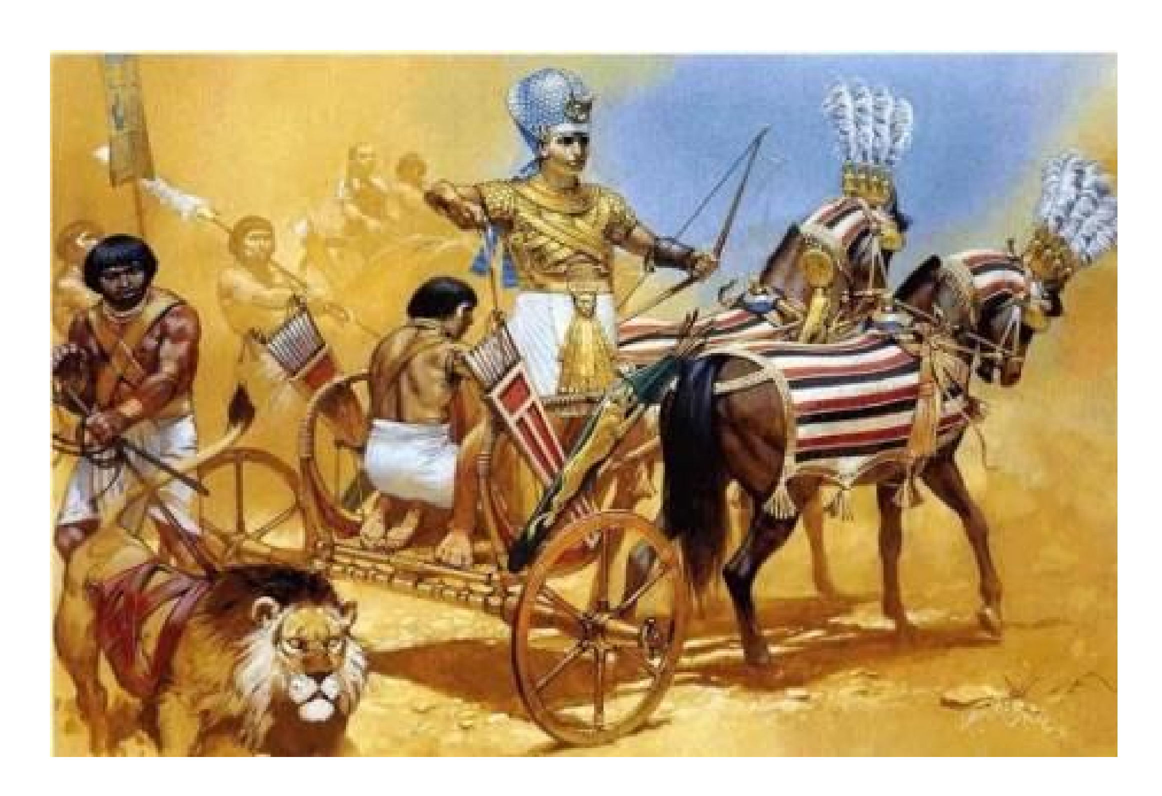
٥ـ تقييم الحضارة العربية

إن حجم القوة العسكرية والسياسية التي وصلت إليه الدولة العربية لا يتناسب تماما مع عدد العلماء والفقهاء والمفكرين والفنانين من الجنس العربي الذي شكل عصب القوة العسكرية، ولا يتناسب مع العدد الضئيل من العلماء الأعاجم الذين رعتهم هذه الدولة، ولا مع القدر الضئيل من المعرفة الإنسانية الذي قدمته للبشرية، ولا مع الفترة الزمنية القزمة التي عاشتها هذه الدولة، وعموما لا توجد علاقة طردية مستقيمة بين التحضر والقوة العسكرية خلال التاريخ، ذلك أن غزاة كثيرون بداية من الأجداد الهكسوس ومرورا بالأحفاد العرب وانتهاء بالمغول كانوا قبائل بدوية ليس لها نصيب من الفكر والعلم أو التنظيم، لكنهم نجحوا في هدم حضارات عظيمة كما نجح العرب، وسيطروا على مساحاتٍ واسعة من العالم دون أن يذكر لهم التاريخ أي أثرٍ علمي أو حضاري.

ففي المجمل إذا رأينا أطراف الدولة العربية امتدت عسكريا إلى ما يقارب نصف الكرة الأرضية ! بداية من أوروبا الغربية؛ أسبانيا والبرتغال ونصف فرنسا وكل دول شمال أفريقيا (المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر وكل دول الجزيرة العربية؛ اليمن والسعودية ودول الخليج الثمانية ودول الشام؛ فلسطين وسوريا والأردن ولبنان وكذلك العراق كلها وبلاد الأناضول والبلقان وتركيا، وعلى الجانب الآخر إيران وتركستان وباكستان ودول الأوزبك وأجزاء شاسعة من روسيا والهند كلها ! كل هذه المساحة الجغرافية الرهيبة كان يلزمها على الأقل كي تحصل على مسمى دولة وحضارة يلزمها أن تتبني – على أقل تقدير- مليون عالم في الفيزياء والكيمياء والهند، ومليون عالم في الاجتماع والتاريخ والأدب والأديان .. إنما لم نجد سوى ابن رشد والرازي وابن الهيثم وابن سينا؛ أي مجرد عينة طلعت رباني دون رعاية في بيئة مقفرة. وفي المقابل نجد ملايين المقاتلين المسلحين الذين استرزقوا باسم الدين، فلم يكن عدد العلماء يمثل ١٪ من عدد المجاهدين في سبيل السبايا والإتاوات.

وجميع الشعوب التي مارست الغزو والسيطرة على حضارات أخرى تركت آثارها الثقافية خلفها. حتى أجدادهم الهكسوس تركوا ثقافة عسكرية في إيجبت القديمة، قدم الهكسوس لإيجبت بعض من التكنولوجيا الحربية التي كانت تستعملها الشعوب السامية من عربات تجرها الخيول والأقواس المركبة والفؤوس الخارقة والسيوف المنحنية، وعرف الجبتيون الخيول من الهكسوس لأن إيجبت لم يكن بها هذا الفصيل من الحيوانات، ومن ثم استخدم الجبتيون هذه الثقافة العسكرية في تدعيم إمبراطورية عظيمة توسعت حدود لأول مرة من الأناضول شمالا إلى القرن الأفريقي جنوبا

ومن الصحراء الليبية غربا إلى الفرات شرقا. حيث كان الجيش الجبتي في الأساس يعتمد على سلاح المشاة فقط، ثم تحول إلى الفرسان المجهزة والعربات الحربية التي تجرها الخيول. واستفاد الجبتيون من الهكسوس الكثير من الفنون العسكرية، لكننا لم نقدس الهكسوس مقابل هذه الاستفادة ولم نعتبرهم فتحا هكسوسيا لإيجبت، كما قدسنا العرب مقابل استفادتنا منهم بالدين، برغم أن الثقافة العسكرية لا تقل شأنا، لأن النبي محمد عليه السلام ما كان يستطيع توصيل رسالته إلينا إذا لم يتسلح عسكريا للدفاع عن هذا الدين من عدوان العرب أنفسهم.. فالمقارنة تضيق جدا بين العرب والهكسوس لأن كلاهما احتل الوطن الجبتي وترك لنا بعضا من ثقافته ورحل، الهكسوس تركوا لنا ثقافة عسكرية، والعرب تركوا لنا الثقافة الدينية.. أما اليونانيين فقد تركوا لنا العمارة والفنون والخط اليوناني ومدينة الإسكندرية، ومع ذلك لم نعتبره فتحا إغريقيا.



ومثال آخر الحضارة المغولية قامت على أنقاض الحضارة العربية، لكنها كانت أكثر قسوة وجفاء علميا وعقليا، كانت أكثر همجية من العرب. ونستطيع أن نقول أن المغول قد ورثوا ديار الإسلام من أقصى الشرق إلى حدود المنطقة العربية وحدود وسط أوروبا، وهي منطقة شاسعة مترامية الأطراف، لذلك وضع 'جنكيزخان' نظاما خاصا في تقسيم هذه الإمبراطورية الواسعة، كان أشبه بالنظام الذي وضعه أعظم خلفاء العرب المسلمين في بغداد عاصمة الدولة العربية، حيث رتب هارون الرشيد أبناءه الثلاثة على ولاية العرش من بعده؛ الأمين والمأمون والمؤتمن (من زوجته العربية الهاشمية

الأصل)، ووزع سلطاتهم، لكنهم تنازعوا على الملك وقتلوا بعضهم بعضا في النهاية، أما جنكيز خان فقد قسم دولته المغولية بين أبنائه من زوجته الأولى على النسق التالي:

الابن الأكبر جوجي: بلاد روسيا والقوقاز وبلغاريا وما يفتحه من غرب المعمورة.

الابن الثاني جغطاي: بلاد الأويجور وتركستان الغربية وبلاد ما وراء النهر.

الابن الثالث تولوي: خراسان وفارس وبلاد العرب وآسيا الصغرى.

الابن الرابع أوغطاي: بلاد المغول 'منغوليا الآن' والصين وتركستان الشرقية وما يفتحه من شرق المعمورة.

وكان من المقرر أن يكون 'جوجي' الابن الأكبر لـ 'جنكيزخان' هو الخليفة بعد موت أبيه، ولكن 'جنكيزخان' شعر بطموحات 'جوجي' واستعجاله لنيل المنصب بعد أبيه فدس عليه من قتله وعين بدلا منه أخاه 'أوغطاي' في منصب ولي العهد ليكون خليفة بعده. وهكذا قامت ورحلت إمبراطورية المغول دون أن تترك لها أثرا في التاريخ، أما العرب فقد أمنوا تاريخهم وربطوه بالدين ليظل مخلدا في عقول الأجيال، يذكر كلما ذكر الدين، ويمدح كلما مدح الدين، وما ميز العرب عن المغول أنهم سمحوا للشعوب التي احتلوها بلملمة ميراث النبوة من بين أرجلهم.

غير أنه كان هناك صراع مقيت بين العائلات العربية الحاكمة، وصراع مقيت بين العلوم الطبيعية والعلوم الشرعية، ولم يحدث تآلف بينهما على مدار تاريخ الدولة بكامله. ثم انتقل هذا الصراع إلى داخل العلوم الشرعية ذاتها فبدأ الانشطار وظهرت المذهبية والقطبية والتنافر والتنابذ، فالعقل الفقهي تفتت بالتزامن مع تفتت الدولة العربية سياسيا دون رابط بينهما إلا نسيج العقل العربي، وبالنظر إلى أن العقل السياسي هو عقل عربي وتفتت جماعيا بالتزامن، وبرغم أن العقل الفقهي كان أعجميا إلا أنه تفتت بالتزامن أيضا، ذلك لأن الفقهاء الأعاجم كانوا يفكرون بعقلية عربية، فقد استحوذت عليهم متلازمة ستوكهولم العربية وزاد نفوذها أكثر من الوازع الديني الذاتي، فاتبعوا سلوك وفكر العرب أكثر من اتباعهم لمبادئ القرآن أو قل طغى عليهم سلوك العرب وتأثروا بهم أكثر من استيعابهم لحدود وأبعاد النص القرآني، وبالتالي، مجرد أن تفتت العقل العربي السياسي تفتت العقل الفقهي بالتبعية، ولذلك عندما تفتت دولة العرب تفتت دولة الفقه بالتزامن. ولذلك إذا أردنا أن نفهم الإسلام فلا بد لنا من العودة إلى عصر النبي محمد عليه السلام فقط ونتخلص من العقلية العربية ومؤثراتها الثقافية، لنتعلم كيف تأدب بآداب الإسلام وكيف تحضر وكيف تسامح مع النفس ومع الغير حتى الكافرين والملحدين أيضا.

فمجتمع لم ينعم بالسلام الاجتماعي لا يمكن أن تنهض فيه حضارة من أي نوع، ومجتمع لا ينعم بالسلام والاستقرار السياسي لا يمكن أن تنهض فيه حضارة من أي نوع، ومجتمع ليس لديه تنظيم قانوني دقيق لا يمكن أن ينهض اجتماعيا واقتصاديا بأي حال، ولعلنا نذكر حضارة الرومان قديما والتي كانت تمارس حكمها بالديمقراطية المباشرة، وكل مواطن عاقل بالغ حر له الحق في المشاركة مباشرة دون نائب في اتخاذ القرار السياسي، برغم كونهم كُفار، لكنهم تعاملوا مع بعضهم بالفطرة الإنسانية، فلم يقتلوا بعضهم من أجل السلطة كما فعل الخلفاء، وكذا في تاريخ الجبتين الفراعنة، لم نقرأ أن عالما واحدا تم عقابه على أفكاره، برغم أن الجبتين دونوا تاريخهم لخمسة آلاف عام متواصلة، بينما العرب في حضارتهم لم يدونوا تاريخهم ولا حتى تاريخ نبيهم حتى جاء حفيد لأحد العبيد في بلادهم ودونه لهم، أما في عصر الدولة العربية فلم نجد سوى السطو المسلح على السلطة وتوريث الخلافة بالمذابح في كافة مراحل التاريخ وكافة بقاع الدولة العربية، ومع ذلك قالوا أنها دولة إسلامية! وفي الحقيقة كان العرب مجتمعا بريا باستحكام.

فعندما ننظر لحضارة العرب خلال مرحلة الدولة العربية، فلا مسوغ للمقارنة بينها بالشعوب المعاصرة لها، بل بالشعوب والحضارات السابقة عليها؛ كان العرب هم أكثر شعوب الأرض تخلفا وهمجية، وغزوا شعوب العالم الأكثر منهم تحضرا ورقيا فهدموا حضاراتها (العراق وفارس والهند)، وبالتالي فما قدمته الحضارة العربية من علوم للبشرية هو محض بقايا الحضارات التي هدمتها، ولذلك كان جميع هؤلاء العلماء من أصول غير عربية ونبذهم الفقهاء وإن احتضنتهم دولة العرب لوقتٍ قصير. لكن من سنن الله في الكون أن الحضارات تعلوا وتهبط صيحاتها كموج البحر، فكل شعبٍ من الشعوب له نصيب من الزمن يعيش فيه دور الرياسة على العالم ويختبر تجربة الرقي والتفوق على جيرانه، وبالتالي فالمقارنة لا تكون بين المعاصرين بقدر ما تكون مع الحضارات النظيرة كي نعرف حجم ومقدار الخطوة الحضارية التي اجتازتها كل حضارة في عصر ريادتها، فلا مجال للقول بفخر أن بغداد عاصمة الدولة العربية العباسية كانت متحضرة ومتقدمة بها قصور ومساجد في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش وسط الغابات في جهل وتخلف وانتشار للشعوذة، لأن الرومان سبقوا حضارة بغداد بألفي عام، وبابل والفراعنة سبقوا العرب بخمسة آلاف عام، فمن الأجدر مقارنة الحضارة العربية بمن سبقها من الحضارات، لا بمن تعثر وقت سطوتها. فالحضارة بوجه عام لها مقومات أساسية لا يمكن أن تنهض بدونها، وقد تملكت الحضارة الجبتية قديما مقومات الرقي وتبعتها الحضارة الرومانية ثم جاءت الحضارة العربية أضعف الحضارات على المسار التاريخي، وجاءت في الغلاب على

جانح واحد هو الثقافة النظرية الأدبية، سواء كانت علوم الفقه أو الشعر والنثر، لأن العقلية العربية ليست علمية بالأساس وإنما تكوينها النفسي مختلف، وسرعان ما انقضى وهجها فيما لا يجاوز خمسة قرونٍ من الزمان عادت القهقرى، حيث بدأت الحضارة الغربية مع مطلع القرن الثاني عشر ميلاديا في سطوع نجمها.

والملفت للنظر أن الحضارة الغربية المعاصرة تتجاهل حقبة الحضارة العربية، وتعتبرها محض هوجة عربية تبعت بعثة النبي محمد خلال حقبة العصور الوسطى، في الواقع لا يعترف الغرب اليوم بأنه كانت هناك حضارة عربية تخللت العصور الوسطى، ويعتبر نيوتن وجاليليو وكوبرنيكوس امتدادا لجهود أرسطو والحضارة الأوروبية القديمة.. ويعتبر النظام القانوني اللاتيني امتداد للقانون الروماني القديم دون أي أثر لدور القانون العربي على اعتبار أن العرب لم يكن لديهم ثقافة قانونية ولا فكر ولا تنظيم قانوني.. ويقول العرب أن ذلك عنصرية من الغرب تجاه الإسلام والحضارة العربية، فالغرب يتجاهل منجزات الحضارة العربية خلال حقبة العصور الوسطى..

لكن الواقع أن حقبة الحضارة العربية في العصور الوسطى لم تقدم ما يلفت النظر كما قدمت سائر الحضارات الأخرى، وإلا فلماذا لم يتجاهل الغرب حضارة الجبتيين الفراعنة؟ لماذا أنشأ الغرب قسما خاصا في الجامعات لدراسة التاريخ الفرعوني وابتكروا له اسما إيجبتيا خالصا هو " الجبتولوجيا Egyptology " أو علم الجبتيات ليختص بدراسة منجزات الحضارة الجبتية القديمة؟ بالطبع لأن هناك فرق شاسع بين من بنا بيته خيمة من أربعة أوتاد أو حتى ستة، ومن بنا الهرم ليسكنه.. فكلاهما مسكن، ولكل شعب أعرافه وتقاليده، حتى وإن أخذ الهرم شكل الخيمة في النهاية، لكن النظرية الهندسية في بناء الخيمة تختلف بالطبع عن النظرية الهندسية في بناء الهرم.. فلو كانت الحضارة العربية قدمت خدمات جليلة للبشرية ومنجزات علمية حقيقية لكان الغرب قد كرس جهوده لدراستها، لكن الغرب المتحضر لا يلتفت كثيرا للحضارات ذات الطابع الأدبي النظري وإنما فقط يركز على العلوم التطبيقية، ولذلك احتفى كثيرا بالحضارة الجبتية الفرعونية وافتتح لها قسما خاصا لتدريسها في الجامعات والمعاهد.. وهكذا أصبح تاريخ الجبتيين علما تطلبه الشعوب.. بينما أصبح تاريخ العرب عقبة أمام انتشار الدين في الشعوب ! ذلك ببساطة لأن المستشرقين يشوهون الإسلام بقراءتهم في التاريخ العربي لأن العرب ربطوا تاريخهم بالدين.. برغم أنهم هم أنفسهم هؤلاء المستشرقين فتحوا أقساما في جامعاتهم لدراسة علم الجبتيات وتعريف العالم به !

بل إننا عندما نركز دائرة الضوء على علم الجبتيات وحده، سنجده أخذ منعطفا بيانيا عجيبا يجسد دور الحضارة العربية وقيمتها وشأنها بين الحضارات السابقة عليها واللاحقة لها.. ليس بمقارنة حضارة الفراعنة مع حضارة العرب، ولكن بمقارنة ما اكتشفته الحضارات الأوربية عن الفراعنة مع ما اكتشفته الحضارة العربية عن الفراعنة..

ففي البدء كما يقول الدكتور وسيم السيسى، عالم الجبتيات؛" إن أبو التاريخ الحقيقي هو «مانيتون» وهو مؤرخ جبتي من مدينة سمنود، محافظة الغربية، كان كاهنا في عهد الملك بطليموس الثاني٢٨٠ ق. م الذي كلفه بكتابة تاريخ إيجبت القديمة، حيث سمح له بفتح جميع المكتبات أمامه حتى يستطيع كتابة التاريخ، وأخذ مانيتون هذه المهمة على عاتقه واعتمد في كتاباته على الوثائق التي خلفتها الحضارة الجبتية التي كانت تضمها خزائن الوثائق بالمعابد، بالإضافة إلى كل ما وجده في متناول يديه من وثائق الإدارات الحكومية وغيرها. وأن مانيتون هو من قام بتقسيم تاريخ الدولة الجبتية إلى ثلاثة مراحل عمرية متتابعة؛ قديمة ووسطى وحديثة، بالإضافة لتقسيم حكم الدولة إلى أسرات حكمت بالتتابع، ولكل أسرة عدة ملوك، وهذا لكونه على علم باللغة الجبتية القديمة بإتقان".. هكذا صنع الجبتيون حضارتهم، وهكذا وضعوا تاريخ هذه الحضارة، فمانيتون هو أول مؤرخ في التاريخ نجد لديه رؤية سياسية شمولية ونظرية علمية في كتابة التاريخ وتقسيم مراحله العمرية.. وكان ذلك في عهد الإمبراطورية اليونانية، كانت اللغة والكتابة الفرعونية لا تزال مستخدمة ولا تزال علومها ومعارفها مدونة ومفهومة، واستغل الإغريق ذلك في بناء حضارتهم، فقد قامت حضارتهم على ما تركته الحضارة الجبتية من علوم ومعارف، حتى أن كثير من علمائها درسوا العلوم والطب والفلك والفيزياء في المكتبات الجبتية ثم عادوا إلى بلادهم ونشروا علومهم..

وإلى هنا توقف التاريخ الجبتي القديم خلال حقبة الاحتلال الروماني، وضاعت رموز الكتابة الجبتية القديمة، فأصبح هذه التاريخ لغزا.. وبدأت من جديد محاولات عديدة لكشف هذا اللغز، وتتابعت الحضارات المختلفة التي احتلت إيجبت من الرومان ثم العرب ثم الفرنسيين والإنجليز في القرن الثامن والتاسع عشر، وتباينت أدوارهم في كشف هذا اللغز. وبذل الباحثون جهود كثيرة في هذا الميدان، كانت محاولات لفك شفرات الكتابة الجبتية القديمة بعد أن تغيرت أبجدياتها بمرور الزمن وطواها النسيان، عاد الباحثين في محاولات مستمرة لاستعادتها مرة أخرى، ففي القرن الثالث ميلاديا كتب كليمنت السكندرى: (للجبتيين خطوطا ثلاثة الهيروغليفية، الهيراطيقية، الديموطيقية،

وأن الخط الهيروغليفى على نوعين استخدم الأول بمعناه الحقيقي أما الآخر فكان رمزيا). وفي القرن الرابع ميلاديا، وضع الجبتي حور أبوللو مؤلفا ذكر فيه معاني ١٨٩ كلمة هيروغليفية (إلى هنا وانتهى دور الحضارة الرومانية في فك اللغز)

وفي القرن ٧م، حيث بدأت حضارة العرب صعودها، أطلق العرب على كتابات قدماء الجبتيين (قلم الطير) وفي القرن ٨م صنف جابر بن حيان كتابين في رموز اللغة الجبتية القديمة. وفي القرن ٩م، صنف أيوب بن مسلمة كتاب في تفسير الخط الجبتي. وفي القرن ٩م، صنف ذو النون الجبتي كتاب (حل الرموز وبرء الأرقام في كشف أصول اللغات والأرقام). وفي القرن ٩م، أبو بكر أحمد بن علي المعروف بابن وحشية النبطي ألف كتابين في تفسير اللغات القديمة (شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام)، و(شمس الشموس وقمر الأقمار في كشف رموز الهرامسة). (إلى هنا وانتهت حضارة العرب).

وإذا عدنا حيث بدايتها، سنجد أن حضارة العرب لم تقدم جديدا في فك لغز الحضارة الجبتية، بل إن المحاولتين التين بذلتا من يوناني وجبتي في العهد الروماني قبل ظهور دولة العرب كانتا الأكثر فائدة؛ فقد كتب "كليمنت السكندرى" (للجبتيين خطوطا ثلاثة الهيروغليفية، الهيراطيقية، الديموطيقية، وأن الخط الهيروغليفى على نوعين استخدم الأول بمعناه الحقيقي أما الآخر فكان رمزيا (وهذا ما يعني أنه توصل إلى فروق جوهرية بين الخطوط الجبتية القديمة، وطالما استطاع التفرقة بين الخطوط وتصنيفها، إذن يرجح أنه تمكن من قراءتها) وبعد قرن وضع الجبتي حور أبوللو مؤلفا ذكر فيه معاني ١٨٩ كلمة هيروغليفية.. بينما خلال عصر الحضارة العربية كاملاً لم نجد أي جديد في اكتشاف الكتابة الجبتية القديمة، رغم وجود بعض محاولات خلال القرون الثلاثة الأولى فقط وهي عصر الازدهار الفعلي لدولة العرب، لكنها مع ذلك ظلت مجرد محاولات لم تصل لمستوى المحاولات السابقة عليها في عهد الرومان، بل إن المحاولات العربية لا يُستبعد أن تكون مجرد تأليف وترجمة لنصوص موجودة وليست محاولات بحثية، ولهذا ظهرت كتب ومؤلفات دون أن تصل لنتائج فعلية فهي على الأرجح كانت عمليات تأليف وليس بحث علمي، وهذا ما يبرز قصور الفكر العلمي في حضارة العرب مقارنة بنظيره الأدبي.. فحضارة العرب تكاد تكون جميعها حضارة سائلة.

ثم مع صعود نجم الحضارة الغربية الحديثة، في القرن ١٨ م تعرف عالم الفيزياء الانجليزي توماس يونج على الأسماء الملكية المنقوشة بداخل خراطيش حجر رشيد، ونجح في ترجمة اسم بطليموس.

وفي القرن ١٨م أيضا قام الراهب الجبتي يوحنا الشفتشى بتعليم شامبليون أصول اللغة القبطية ليتمكن من فك رموز اللغة الجبتية القديمة، وقد توفي في ريعان شبابه ولم يكمل رحلة بحثه التي أكملها زملاءه وتمكنوا من فك شفرات كافة الخطوط الجبتية القديمة.. ثم أكمل الإنجليز كشف كنوز ومقابر الحضارة الجبتية في القرن العشرين من خلال البعثات العلمية...

ونظرا لأن عملية فك الشفرة اللغوية ليست بحاجة إلى تكنولوجيا القرن العشرين ولا كمبيوتر ولا مسح إشعاعي، وإنما هي نظرية فكرية وطريقة بحث نظرية يتمكن الباحث من خلالها إلى الربط بين معاني الكلمات والرموز. والطريقة التي اتبعها شامبليون في القرن الثامن عشر هي ذاتها الطريقة البحثية التي اتبعها سلفه الجبتي وسلفه السكندري في عهد الرومان دون أي دور للتكنولوجيا والأدوات.. وهذا ما يعني أن الحضارة العربية كانت عبارة عن ـ فاصل إعلامي أثار صخبا وغبارا كثيفا– بين الحضارات القديمة والحديثة، وأنها كانت مصابة بعمى الألوان، فلم تر الحضارة الجبتية القديمة، ولم يتحدث علماء بغداد والأندلس عن الحضارة الجبتية القديمة ولم يبحثوا فيها بجدية الباحث الهمام كما فعل من سبقوهم.. واقتصرت إنجازات الخلفاء العرب في إيجبت على نهب الكنوز الفرعونية، بل إن خليفة العرب المأمون كان أعظم إنجازاته حينما زار إيجبت عام ٢١٦ هـ هو أن قام بنقر الهرم! فحينما اقترب من الهرم الأكبر اعتقد الجبتيون أنه يحاول أن يلتقط أبعاده الهندسية ونظرية البناء كي يأمر مهندسيه ببناء هرم أعظم له كعادة ملوك إيجبت.

لكن المفاجأة أن أقصى طموحات الخليفة المأمون كانت أن يأمر عماله وخدمه بأن ينقروا الهرم، ووقف على ميزانية النقر بنفسه حيث اشتغل العمال في تكسير ثغرة في جدار الهرم لفتح جحرٍ ثعباني يصل إلى مقصورة الدفن الملكية، وبالفعل استمرت أعمال النقر عدة أيام كما يقول المؤرخ اليعقوبي حتى تمكن العمال من الوصول إلى الصالة الجنائزية، ومنها إلى غرفة الدفن الملكية واكتشفوا المومياء الملكية، وكانت جافة متخشبة وشعرها ناعم وخفيف لامع ومخضب بالحناء وحولها من الأواني والقوارير والمجوهرات والتماثيل الذهبية والخشبية والحجرية وكثير من التمائم الذهبية... كان الخليفة المأمون أول من دخل من خُرم الهرم وتدحرج في الجُحر الثعباني زاحفا مثل الفأر الجبلي على بطنه إلى أن وصل إلى غرفة الدفن الملكية.. فصُعق واشرأبت شنباته من هول المشهد وعظمة الجبتيين.. ولم يسعه إلا لملمة المجوهرات والتحف والآثار وأخذها غنيمة.. لأن العرب بطبيعتهم لا يعرفون إلا الغنيمة والسبي، وكانت جميع فتوحاتهم من أجل الغنيمة والسبي، حتى فتح الهرم كان

من أجل الغنيمة وسبي المومياء... فكانت أعظم إنجازات العرب في إيجبت هي هذا الكشف التاريخي العظيم الذي لم يسبق العرب إليه أحدٌ من قبل.

ونظرا لأن عملية فك الشفرة اللغوية ليست بحاجة إلى تكنولوجيا القرن العشرين ولا كمبيوتر ولا مسح إشعاعي، وإنما هي نظرية فكرية وطريقة بحث نظرية يتمكن الباحث من خلالها إلى الربط بين معاني الكلمات والرموز، والطريقة التي اتبعها شامبليون في القرن الثامن عشر هي ذاتها الطريقة البحثية التي اتبعها سلفه الجبتي وسلفه السكندري في عهد الرومان دون أي دور للتكنولوجيا والأدوات.. وهذا ما يعني أن الحضارة العربية كانت عبارة عن ـ فاصل إعلامي أثار صخبا وغبارا كثيفا – بين الحضارات القديمة والحديثة، وأنها كانت مصابة بعمى الألوان، فلم تر الحضارة الجبتية القديمة، ولم يتحدث علماء بغداد والأندلس عن الحضارة الجبتية القديمة ولم يبحثوا فيها بجدية الباحث الهمام كما فعل من سبقوهم.. وهذا في الواقع ـ ودون تحيز ـ يعتبرا مؤشرا حقيقيا على حجم ومقام الحضارة العربية بين الحضارات السابقة عليها واللاحقة لها. فلم يعرف العرب عن حضارة الفراعنة سوى الكنوز الفرعونية التي نهبها عمرو العاص وخلفه من سلالة قريش الذين حكموا إيجبت، والتي كان يعثر عليها اللصوص بالحفر والتنقيب العشوائي. فلم يفكروا في كشف أسرار الحضارة الفرعونية كما فكر من قبلهم، إنما طرحوا عليها غبارهم الصحراوي ورحلوا وما زال الغبار يحجب الرؤية الجبتية... برغم أن تاريخها أصبح عِلما تطلبه الشعوب.

والحضارة العربية عند مقارنتها بالحضارات البشرية الأخرى، سنجد أنها بالفعل لم تكن حضارة، ولم تقف على أعمدة حضارية فعلية، بل إنها لم تعتمد الكتابة بصورة رسمية إلا في منتصف عمرها بعدما تكثفت جهود العلماء "الأعاجم" من أبناء الشعوب التي وقعت تحت سلطان العرب، وسعوا جاهدين على توثيق المادة العلمية، ومن هنا بدأت مرحلة تنقيط وتشكيل حروف وكلمات اللغة العربية على يد أجانب عن العربية، فقد استمر التراث الثقافي (العربي) شفويا حتى مرحلة متأخرة من العصر العباسي إلى أن جاء أبي الأسود الدؤلي وبدأ إعمال إزميله في اللغة لينحت لها تشكيلاتٍ جديدة ويضع النقاط على الحرف كي تصبح لغة دقيقة إلى حدٍ ما كباقي لغات العالم، ثم بدأ تدوين القرآن بهذه الجهود، وبدأ جمع الحديث على يد البخاري بعد مائتين وخمسين عاما من ظهور الدولة العربية برحيل النبي عليه السلام، وهذا ما يعني أن الثقافة العربية استمرت شفوية إلى منتصف عمرها، وبعدما انتهت مرحلة شبابها بدأت تدوين ذكرياتها.. برغم أن الكتابة هي مرحلة متطورة من مراحل تطور الحضارات الإنسانية، كما يقول الأستاذ محمد حامد، وهي تلي مرحلة

الحديث الشفوي الذي يتوسل باللغة المحكية، لأن الحديث الشفوي غالبا يتم بعفوية ودون تأمل ودون تفكير، ولا يقتضي من التدقيق ما تقتضيه الكتابة والتدوين.. وبالطبع وضع الحضارة العربية لا يقارن بالتدرج العادي الذي اتخذته الحضارات الأخرى، فقد استمرت حضارة العرب مائتي عام بثقافة شفوية، ومائتي عام أخرى مع التدوين.. وهذه المائتي عام الأولى أو الثانية ما كانت إلا مرحلة حمل مبكرة جدا من عمر الحضارة الجبتية التي بدأت التدوين على حجر بالرمو قبل خمسة آلاف عام، كانت المائتي عام الأولى منها مجرد سطر واحد على هذا الحجر، والمائتي عام الثانية مجرد سطر يليه على ذات الحجر قبل أن تنتقل الكتابة الجبتية إلى صناعة البردي، بينما الحضارة العربية اكتفت بهذين السطرين وتوقفت وتجمدت الحياة في عروقها.

بقيت زاوية رصدٍ أخرى ربما يدركها من لا يدرك الحق، ألا وهي الآثار المتبقية لكل حضارة، فالصينيين القدامى شيدوا حضارة تركت آثارها الثقافية والمعمارية والفنية في بلادهم ولا زالت، وليس آخرها سور الصين العظيم، وكذلك الحضارة الهندية تركت آثارها تدل على عظمتها، وكذا الحضارات الأوروبية القديمة اليونانية والرومانية تركت آثارها المعمارية والفنية والعلمية خلفها. وأما الحضارة الجبتية فقد تركت الكثير والكثير من الآثار التي صار مجرد مشاهدتها يمثل أكبر مصادر الدخل القومي للجبتيين في عصرنا، فقد قامت الدولة الجبتية بسواعد أبنائها، وتركزت عواصمها على مدار سبعة آلاف عام في مركز الخريطة الجبتية، ولم تخرج عنها، توسعت خارجيا وفرضت سيادتها تجاه الشمال والجنوب والشرق والغرب في مراحل الازدهار الحضاري، ثم عندما دخلت مرحلة الاضمحلال انكمشت ولملمت أطرافها في حدود الدولة الجبتية التي يسكنها الجبتيون الآن ويتحدثون لغة واحدة ومن نسيجٍ اجتماعي واحد، وظلت الآثار الباقية في كل مكان دليل على وجودة الحضارة الجبتية، واستقلت بالكثير من عجائب الدنيا، ومن ألغازها العلمية أيضا.

أما الدولة العربية فلم يبق لها أي أثر، بل ذابت دويلات واستقل كل شعب بدولته، فاليوم العراق دولة مستقلة وإيران دولة مستقلة وسوريا والأردن وإيجبت مستقلة، وشبه الجزيرة صحراء كما هي على حالها، أي لا نجد خريطة عصرية يمكن وصفها بأنها كانت موطن الدولة العربية، بينما إيجبت لها خريطة هي ذاتها الخريطة الفرعونية، ويمكننا اليوم إعادة استنباتها على ذات الخريطة القائمة ومن ذات مواردها، لأنها لم تفتقد إلى توسعات (خارجية) عن حدودها... أما خريطة العرب فقد ذابت تماما ومن غير المتصور قيام دولة للعرب اليوم على هذه الخريطة التي ذابت. لأنها لم تقم بسواعد

أبنائها، ولم تستقر عواصمها في بلادهم شبه الجزيرة العربية، ولم يكن لها عمود فقري، ولهذا ذابت سريعا مع الزمن ولم يبق أي أثر يدل على أنه كانت هناك دولة عربية قامت يوما ما سوى في الكتب..

فعندما نبحث في أرض العرب عن أي أثر يدل على قيام حضارة يوما ما فلن نجد سوى آثار قوم عاد وثمود ومدائن صالح وغيرها من القرى التي تركت آثار دمارها الإلهي عبرة للأجيال التالية من سلالة العرب.. أي أن آثار الحضارة والقومية العربية أصبحت مثل الأساطير لا نجد لها أثرا إلا في الكتب، وحتى الكتب ليست مخطوطات آثارية تركتها الحضارة العربية لنقول أنه كانت هناك حضارة، إنما المخطوطات تم تدوينها في عصور لاحقة، وفي بلاد غير بلاد العرب، أي بعدما ذابت حضارة العرب، فأصبحت مثل العرب البائدة، لأن كل حضارة تترك أثرا بحجم قدمها أو كما قال العرب " البعرة تدل على البعير".. ولا يفوتنا أن نذكر أن هناك في السعودية ما زالت توجد بقايا سور سوق عكاظ منذ أيام الجاهلية، وهو من أهم الآثار التي ترعاها وزارة الآثار السعودية. ذلك لأن النسيج العربي في الأصل نسيج إسفنجي، وقامت حضارته من جنسه، قامت على النهب من الشعوب المجاورة لها. وكما يقول جدنا الجبتي الحكيم "آمون أم أوبي" وهو يحذر من أخذ الإنسان ما لا يحق له، بل يرسم لنا صورة تجبر الشخص على الابتعاد عن أخذ ما لا يحق له:

فيقول: إذا جاءك أحدٌ بثروة عن طريق اللصوص فإنها لا تبقى معك ليلة واحدة، وعند طلوع الصباح لن تكون في بيتك، وسترى فقط المكان الذي كانت فيه، وأما هي فلن تكون موجودة، لقد فتحت الأرض فاها وابتلعتها، إن العالم السفلي قد غمرها، إنها صنعت لنفسها حفرة ضخمة وانطمرت فيها "[(٢٩)].

ومبدئيا فكل نباتٍ طيب، ففي الأصل هو طيب لأنه ثمره طيب، ومفيد لأنه ببساطة يمكن استنباته من جديد، بمعنى أننا لو جئنا ببذرة فاكهة وغرسناها في وادي النيل، فمن الطبيعي أن تنبت شجرة طيبة، وتطرح ثمارا من ذات الفصيلة أي تحمل سمات ومواصفات الشجرة الأم التي طرحت البذرة، إنما لو كانت البذرة عاقر، فمن الطبيعي أنها لن تنبت مرة أخرى، ولن تثمر، ولم تم غرسها في غر تربتها الملائمة، فلن تنبت مرة أخرى.. هكذا أسطورة الدولة العربية، فهي من نوع النباتات العاقر غير

---

(٢٩) ـ مقال للدكتور حسين دقيل بعنوان: من أخلاق المصريين القدماء (ج١٣) الرفق والأمانة . منشور على موقع ساسة بوست بتاريخ ١٦ أغسطس، ٢٠١٨ على الرابط التالي:

https://www.sasapost.com/opinion/from-the-morals-of-the-ancient-egyptians-c-13-mercy-and-honesty/

الشرعية، بمعنى أن السعوديين أحفاد العباسيين والأمويين لا يمكنهم اليوم إعادة استنبات هذه الدولة وهذه الحضارة من جديد، لأن خريطتها لم تكن شرعية ولم تدم بأي حال وذابت كما النسيج الإسفنجي، فقد أصبحت الشعوب مستقلة عنهم، فلا الشعب العراقي يقبل أن تعود أرضه تحت رعاية أبناء سعود وبني أمية وبني العباس، ولا لبنان ولا الشام ولا الجبتين يقبلوا اليوم أو غدا بأن تعود إيجبت تحت حكم سلالة قريش، ولا الأسبان والبرتغال يقبلوا أن تعود بلادهم تحت حكم بني أمية وسلالة قريش مرة أخرى، ولا الإيرانيون يقبلوا اليوم أن تعود بلادهم تحت حكم سلالة قريش.. وهذا ما يعني استحالة استنبات هذه الدولة من جديد لأنها لم تكن شرعية من الناحية السياسية والاقتصادية.

بل كانت الدولة العربية أشبه بواقعة الزنا أو الاغتصاب، ومعروف أن الزنا هو علاقة اتصال جنسي بين ذكرٍ وأنثى، ومن الوارد أن تنجب طفلا بالفعل، لكنه غير شرعي، ومعنى ذلك أن هذه العلاقة لن تستمر، إنما تبقى مرة واحدة خلسة ولا تتكرر بشكلٍ طبيعي مثل الزواج الشرعي.. وأبسط مثال هو الإمبراطورية الإنجليزية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر امتدت أطرافها إلى الشرق والغرب حتى قيل عنها أنه الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، احتلت بلاد كثيرة من شعوب العالم في الشرق والغرب وفي نصفي الكرة الشمالي والجنوبي، ما يعني إذا كان نصف بلادها في النهار يكون النصف الآخر في الليل من شدة اتساعها، ونهبت من الهند ومن شمال إفريقيا وكثير من البلاد، فهل بإمكانها أن تعود اليوم أو أصبح مشروعا لها العودة إلى سابق عهدها ؟ بالطبع لا لأن ذلك في الأصل كان غير مشروع، ولا يمكن إعادة استنبات حضارة إنجليزية على هذه المساحة من جديد..

وهكذا قامت دولة العرب خلسة من عمر الزمان اغتصبوا خلالها أراضي العديد من الشعوب المجاورة لهم، ثم عادوا إلى صحرائهم مرة أخرى.. وكل ما في الأمر أننا نستحي أن ننطق بأن عمر الخطاب بنا دولة من المال الحرام، بنا دولة بأرواح الأبرياء.. فعندما نتساءل عن المشاريع الاقتصادية أو الصروح العلمية التي أنشأها عمر الخطاب في المدينة، فلن نجد سوى أسواق ومعارض النخاسة وقطعان العبيد وأكوام السبايا والأطفال الذين تم توزيعهم هدايا على الصحابة... و"بيت المال حصيلة كل هذا"، وهناك نقطة يجب الالتفات إليها، وهي أن مشروع تأسيس دولة أو إحداث نهضة حضارية مثله مثل أي مشروع أخر يحتاج منك جهد وعمل وسهر لكي يثمر ويستوي على سوقه، كما بدأ محمد علي في نهضة إيجبت ببناء القناطر الخيرية ومد خطوط للسكك الحديدية وإرسال بعثات تعليمية لأوروبا وإنشاء مصانع للحديد والقطن والزيت ...إلخ. وبعد ذلك أسس مدرسة عسكرية في أسوان. فلا

تتخيل أبدا أن بمقدورك أن تنشئ مشروع بتكلفة "صفر مجهود"، فهذا لا يحدث إلا مع عصابات المافيا، نعم من حقك أن تحاول جاهدا استغلال كل الإمكانات المشروعة حولك، لكن ليس من المنطق ولا من الجغرافيا أن تقلل جهدك في العمل والبناء والإنتاج إلى درجة الصفر مجهود.

بينما الجبتين اليوم وغدا وبعد غدٍ يمكنهم في أي مرحلة من عمر الزمان إعادة استنبات الحضارة الجبتية القديمة بذات نطاقها الإقليمي وبذات عواصمها وحدودها وأرضها وشعبها ونسيجها الاجتماعي، أو على الأقل يمكنهم التخطيط بواقعية كاملة لإعادة استنبات الدولة من الآن إذا أراد أن ينهض الشعب في أي وقت أو أراد أي جيل من أجياله القادمة؛ لأنها كانت دولة شرعية ومن حقها أن تستمر على ذات الفراش مدى الحياة، وتستمر دورتها الحيوية دون ملامة من أحد، لأن العمود الفقري للحضارة القديمة نبت من طمي النيل وفي أرضه، وما زالت أرضه كائنة، وما زال شعبها كريما.. وليس كما السعوديون خرجوا من بلادهم على ظهور البغال وهجموا على الشعوب المجاورة حكموها ومصوا دماءها فترة ثم عادوا مرة أخرى إلى أرضهم.. إذن الكيان الشرعي يمكن إعادة استنباته عندما يقرر الشعب أن ينهض، أما الكيان غير الشرعي فلا يمكن إعادة استنباته. إذن الكيان الشرعي يمكن إعادة استنباته بشرعية وبسهولة عندما يقرر الشعب أن ينهض، أما الكيان غير الشرعي فلا يمكن إعادة استنباته.

فالغرب ليس متحيزا ضد العرب ولا ضد الإسلام، لكنه أكثر واقعية من العرب تجاه أنفسهم، وأكثر إنسانية من العرب تجاه البشر، فالعرب يعظمون من وتاريخهم ويفخرون به بشكلٍ مبالغ فيه لأن هذه طبيعتهم وتكوينهم النفسي، ويحاولون طول الوقت أن يوجدوا لهم مقعدا في التاريخ يتربع جنبا إلى جنب مع الحضارات الأخرى، بينما في الواقع الغرب يُقيّم حضارتهم بمنطقية وواقعية، ولا ينبذها كمبدأ عام، لأننا نجد اسم الحسن ابن الهيثم منقوشا بماء الذهب على سقف مكتبة الكونغرس الأمريكي، ونجد اسم النبي محمد منقوشا بالرخام على واجهة المحكمة الدستورية العليا في أمريكا، ونجد اسم الخوارزمي ذائع الصيت في أوروبا، وكذلك الفيلسوف العظيم ابن رشد وابن الهيثم وابن سينا وغيرهم.. يعرفهم الغرب أكثر مما عرفهم العرب، بل إن العرب لم يعترفوا بقيمتهم إلا بعدما احتفل بهم الغرب، وفي الواقع لم يكن النبي محمد نتاج الحضارة العربية، وإنما نبي ورسول من عند الله، ولم يكن ابن رشد نتاج الحضارة العربية لأنهم وقتها نبذوه وأحرقوا كتبه.. ولم يكن ابن خلدون نتاج الحضارة العربية لأنهم لم يفهموا كتاباته وهو من أسس نظريته في العقلية العربية.. وفي المجمل كانت الحصيلة العلمية خلال الحقبة العربية في العصور الوسطى أقل بكثير مما

قدمته سائر الحضارات البشرية، لأن العرب بجنسهم وعرقهم لم يكن العلم من أبجدياتهم على أي حال، ولم يكن الرقي الإنساني من أدبياتهم. فقط كان الشعر والغزل والهجاء والفروسية، وهذه جميعها من الأصناف المعرفية التي لا تقدم شيئا مفيدا للبشرية، ولذلك فإننا رغم اعترافنا بعبقرية المتنبي وامرئ القيس الشعرية إلا أننا لا نجد لهم أثر في الثقافة الغربية كما وجدنا أسماء العلماء لامعة هناك.

والغريب أن جامعة الأزهر منذ نشأتها من ألف عام، وهي المؤسسة التعليمية الوحيدة في إيجبت على مدار هذا الألف عام، نبذت كل أنواع المعارف والعلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، (في ذات الوقت الذي تم فيه إعدام اللغة الفرعونية واعتماد اللغة العربية في إيجبت) فقط اهتم الأزهر بتدريس علوم الدين باعتبارها ما يستحق أن يسمى علم، أما جوانب المعرفة الأخرى فلا وجود لها في الحياة، ما عدا قسم التاريخ والأدب العربي ! ورفضت تدريس العلم للبنات واقتصرت على الذكور فقط. وهذا ما يؤكد أنها تدرس ثقافة العرب بملامحهم النفسية وليس الدين الإسلامي؛ فما زالت جامعة الأزهر إلى اليوم تهتم جدا بتدريس هذا التاريخ العربي القميء باعتباره " تاريخ الإسلام " أو تحت مسمى " تاريخ الدولة الإسلامية"، وتفرغ له قسما خاصا بكلية اللغة العربية بكل فروع جامعة الأزهر التي تتجاوز ٢٤٠٠ فرع حول العالم! ويتفرغ له أطقم كاملة من الأساتذة والباحثين.. وكل يوم تعقد المؤتمرات واللجان العلمية لمناقشة رسائل علمية، ماجستير ودكتوراه وأبحاث أخرى لترقية هيئة التدريس! قسم كامل بكل أعضاءه وطلابه وميزانية كاملة بكل كلية بكل فرع من فروع جامعة الأزهر مخصص لتدريس هذا الوهم باعتباره " عِلم " ! يستحق التفرغ من أجله وتخريج أجيال من العلماء والباحثين عن فرصة عمل! وهو في الواقع غبار ثقافي يمثل عوامل هدم فكري في المجتمع كما فيروس سي النشط. لأنه يعيد العقل إلى الوراء جذبا روحيا ويمنعه من التقدم سوى بحدود التصورات والفلسفة والذكريات من بقايا ونفايات الصحراء والعرب والأمويين والعباسيين والتي تشحن عقول الشباب بها كل يوم !

من خلال هذا المسقط الرأسي الذي أسقطناه على الحضارات البشرية يتبين لنا أن العرب، وهم سكان شبه الجزيرة العربية، لم يكونوا أصحاب حضارة يوما ما، ولا يعرفون معنى الحضارة ولا الصناعة ولا العمران والهندسة أو العلم، هم فقط هاجوا من الصحراء على المدن وشيدوا قلعة من الرمال الصحراوية تعالت ثم تهاوت قبل أن تمسها الرياح، لكنها أحدثت صخبا وضجيجا في كل الدنيا بانتهاجها القتل عقيدة وواجب ديني مقدس.. إنما هم فقط احترفوا صناعتين أخريين وجدوا فيهما

السلوى وما يغنيهم عن كبد الحياة، وكانت حرفتهم الأولى ومن قبل الإسلام هي الإغارة، لكن كانت الإغارة تتم بين القبائل وبعضها، يهجمون على بعضهم فجأة ليخطفوا الأطفال والنساء وينهبوا الأموال، لكن بعد نزول الإسلام تطورت صنعتهم وزادوا عليها صناعة أخرى، تطورت صنعتهم فطالت الشعوب والمجتمعات المجاورة لهم، فأغاروا على العراق وفارس والشام وإيجبت وشمال إفريقيا وغرسوا سيوفهم في كل الشعوب المجاورة حولهم.

أما الحرفة الأخرى التي راجت في بلادهم، فكانت الفتيا والحكاية والرواية والتلاعب بإمكانات اللغة كعادتهم؛ أي الكذب على رسول الله، فكل من يريد أن يفتي ينسب كلامه لرسول الله كي يحصل على صك القدسية، وتأتي الشعوب الساذجة لتتلقى هذه الحكايات بقدسية دينية دون تمرير على العقل، فأذكر أن أحد التجار العرب كان يتحدث إلى صديقه فقال له عن قوم إنهم مثل البقر، فغضب صديقه من وصف الناس بأنهم بقر دون ذنب، فقام التاجر وصعد على سنام الجمل ونادى القوم.. يا قوم.. يا قوم.. هلموا إليَ، فلما جمع الناس أمامه قال لهم: عن فلان ابن فلان ابن فلان، عن النبي عليه السلام أنه قال: من لحس أرنبة أنفه بلسانه دخل الجنة". . فوجد الناس قد أسرعوا بلعق أنوفهم بأطراف السنتهم، فنظر إلى صديقه وقال، ألم أقل لك أنهم بقر؟ وهل يلعق أرنبة أنفه بلسانه سوى البقر؟

فقد برع العرب في الحكاية والرواية عن الرسول، ابتكروا واخترعوا الكثير من الأحاديث ونسبوها لرسول الله، فليس من دين شكلت بعضا من نصوصه مادة ووسيلة ومرجعية للتكفير والإرهاب والتوحش، كما شكلت نصوص التراث الإسلامي، وليس من دين شكلت بعض الأعراف والتقاليد التاريخية مرجعية للعبادة كما شكلت نصوص التراث الإسلامي، ولكن هذا لا يعني أن المقصود هم المسلمون، ولا الإسلام، ولكن تاريخ وتراث العرب الذي اندمج في الدين الإسلامي. وليس فقط التطرف والإرهاب الذي صدره العرب لشعوب العالم، بل هناك نوع من الخبل الإدراكي لا نظير له، ربما لأن العرب بطبيعتهم شعب حكاء وثقافته شفوية وعقليته أدبية بدوية وليست علمية منطقية، واختلط الأمر بين الدين والسياسة خاصة عندما تغلبت الثورة المضادة على الإسلام بقيادة معاوية أبي سفيان، واتخذ سندانا متينا لدعم عرشه.. كان صديقه الودود وخليله الوفي هو أبو هريرة الذي عجز المؤرخون عن تحديد أصله ونسبه، فقط اشتهر بلقب أبي هريرة مع أنه كان يكرهه ويقول للناس: كان النبي يلقبني " أبا هر" وأنتم تعلمون الفرق بين الذكر والأنثى.. لكن عامة الناس نبذوه واستمروا في تلقيبه " أبا هريرة" ربما نكاية فيه، وبصيغة التصغير مع الأنثى لا الذكر رغما عنه.. وكانوا يتهمونه بالكذب على رسول الله، وضربه عمر الخطاب بالكرباج

لكذبه واتهمه بسرقة المال العام وصادر أمواله.. لكن معاوية استطاع استخدامه في ثورته المضادة على الإسلام بجدارة وأجزل له العطاء حتى أنه اغتنى بعد أن كان خادما لامرأة تعطيه أجره يوما بيوم، صار سيدا غنيا من مال معاوية. وتزايدت حصيلته الحكائية من الروايات والأحاديث التي نقلها عن صديقه اليهودي المفضل كعب الأحبار، وصديقه المبجل عبد الله سبأ، ما جعله يترك إرثا غنيا للأمة الإسلامية، تواتر الرواة والمحدثين على نقله شفويا جيلا بعد جيل حتى جاء البخاري وبدأ عملية التدوين بعد مائتي عام من رحيل الرسول.

أخرج لنا البخاري مجلده الجامع لسنن النبي وأخباره في الكتاب المعروف بـ" صحيح البخاري"، وقد كان البخاري رحمه الله تلميذ أحمد بن حنبل الذي هو تلميذ الشافعي تلميذ الإمام مالك الذي كان معلمه نافع، ونافع هذا تلميذ الأعرج والأعرج تلميذ أبو هريرة.. ولهذا فاقت مرويات البخاري عن أبي هريرة خمسة آلاف دون غيره من كبار الصحابة.. فقد احتل أبو هريرة منزلة علية في الثقافة الإسلامية لدرجة أنه كان في حماية معاوية يروج لمروياته بأنه كان منقطعا وملازما لرسول الله يتلقى منه الحديث في حجر جلبابه أولا بأول، بينما الصحابة الكبار اتهمهم بأنهم لم يهتموا بأمور الدين بل انصرف المهاجرين إلى تجارتهم وانصرف الأنصار إلى زراعتهم وحقولهم وانفضوا عن رسول الله بينما بقي هو ملازما مرافقا له ! طوال عامين كاملين !

حتى أن أبا هريرة رضي الله عنه؛ روى عنه أحمد في "مسنده" (٢٦٠٣٤) من طريق أبي حسَّانَ، قالَ: " دخلَ رَجلانِ مِنْ بَنِي عامرٍ على عائِشة، فأخبَراها أنَّ أبا هريْرة يُحدِّث عنِ النَّبيِّ عليه السلام أنه قال: (الطيرَة فِي الدارِ، والمرأةِ، والفرَسِ)، فغضِبَت فطارت شِقة مِنْها فِي السَّماء، وشِقة فِي الأرضِ، وقالت: والذِي أنزلَ الفُرقانَ على مُحمَّدٍ ما قالها رسُولُ اللهِ عليه السلام قطُّ، إنما قال: (كانَ أهلُ الجاهِلِيَّة يتطيَّرُونَ مِنْ ذلِكَ)... وبرغم اعتراض السيدة عائشة على نص رواية أبي هريرة التي أختزل معناها ومنطوقها فيما يجسد ويعيد إحياء عادات وأعراف المجتمع العربي، إلا أن موقف عائشة حصره التاريخ في خانة المعارضة فقط، وصارت رواية أبي هريرة هي الرواية الرسمية، وصدقه العرب لأن هذا ما يتجاوب مع عقليتهم ونشأتهم.. هكذا عادت العقلية العربية تدريجيا لإحياء عادات المجتمع العربي القديمة والتي هجرها الإسلام، مالت العقلية العربية بالفطرة إلى منشأها وأصلها فصدق الفقهاء ما يخالف ويناقض الإسلام بالكلية، دون أن تكون عقولهم قادرة على التمييز بين الطيب والخبيث، فقد جعلوا رواية السابقين عليهم حجة مطلقة في مواجهة القرآن، ولم يتخذوا من سنة النبي أسوة عامة في مبادئه الكلية.

وبمرور الوقت اعترض الإمام مسلم على طريقة أستاذه البخاري في رواية الأحاديث وأخرج مسنده المستقل عن البخاري، وهكذا تواترت الروايات دون عرضها على كتاب الله، حتى وإن تناقضت معه، صار كثير من الفقهاء يعمدون إلى تعطيل آيات القرآن تمجيدا لمرويات العرب لأن العرب استطاعوا تسويق أعرافهم وتقاليدهم بدمجها في الدين من خلال هذا الباب.. باب المرويات، لأنهم لم يستطيعوا العبث بكتاب الله.. فانتقلنا بمرور الزمن من كتاب الله إلى ثقافة العرب الحكائية، لنزداد خبلا على خبل.. ففي تفسير القرطبي للآية رقم ٥٠ من سورة الكهف عن إبليس وذريته بقوله تعالى: (..أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو)

فقال الشعبي: سألني رجل فقال هل لإبليس زوجة؟ فقلت: إن ذلك عرس لم أشهده، ثم ذكرت قوله" أفتتخذونه وذريته أولياء" فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم.

وقال مجاهد: إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات، فهذا أصل ذريته.

وقيل: إن الله تعالى خلق له في فخذه اليمنى ذكرا وفي اليسرى فرجا، فهو ينكح هذا بهذا، فيخرج له كل يوم عشر بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطانا وشيطانة، فهو يخرج وهو يطير، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم في بني آدم فتنة،

وقال قوم: ليس له أولاد ولا ذرية، وذريته أعوانه من الشياطين.. والذي ثبت في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين ....قال قال رسول الله عليه السلام:" لا تكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرخ". وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه، والله اعلم.

قال ابن عطية: وقول" وذريته" ظاهر اللفظ يقتضي الموسوسين من الشياطين، الذين يأتون بالمنكر ويحملون على الباطل.

وذكر الطبري وغيره أن مجاهدا قال: ذرية إبليس الشياطين، وكان يعدهم: النبور صاحب الأسواق، يضع رايته في كل سوق بين السماء والأرض، يجعل تلك الراية على حانوت أول من يفتح وآخر من يغلق...الخ.

- فأهل العلم ببلاد العرب يقولون لك بأن الشيطان أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات.... وقيل يخرج من كل بيضة سبعون شيطانا وشيطانة.

• ومنهم من قالوا بأن شغل أهل الجنة هو افتضاض الأبكار تحت ظلال الأشجار على شواطئ الأنهار مع سماع الأوتار في ضيافة العزيز الجبار.. كل ذلك تطبعه المطابع بمئات الألوف من النسخ سنويا بجميع أرجاء العالم الإسلامي ليتقعر الخبل ويزداد ويتم تتويج أصحابه بأنهم أهل العلم... هكذا شوهوا الإسلام وهم أبعد ما يكون عن العلم والعقل.. ومن هنا أدخلوا الإسلام كهف الظلم وأغلقوا عليه الأبواب..حينما حصروا الدين فيما ورثوه من ثقافة العرب وبقايا حضارتهم الفاشلة...

فلو نظرنا إلى الحضارة العربية سنجدها في حقيقتها لم تكن حضارة وإنما هوجة حضارية، فكيف تؤسس دولة على عوائد الجيش من السطو والنهب والسلب وخطف النساء ! بداية من عهد الخلافة التي قيل أنها راشدة، ثم مرورا بخلافة الأمويين والعباسيين، فطريق البناء والصعود المفاجئ الذي ظهرت به دولة العرب واستقرارها في دمشق ثم بغداد ثم الأندلس وتفرعها أفقيا ثم انكماشها دون أي ارتقاء رأسي.. ما كان إلا أشبه بمجموعاتٍ من العصابات الصحراوية حاولت تتحد مع بعضها لتقوم بهجمة قوية، فتباعدت طموحاتهم بعدما كانت الغارات والهجمات على القوافل التجارية والأدبية وقوافل الحج والعبادات، تطورت الفلسفة وصارت الهجمات تشن باتجاه أقصى الحدود حتى وصلت الشعوب المجاورة لشبه الجزيرة. فأصل النشاط العربي ذاته الإغارة.. ولهذا شدد الله عليهم حرمة القتل في الأشهر الحرم وضاعف فيها العقاب حتى يوفر الأمن والأمان للقبائل والقوافل، ولهذا فرض الأشهر الحرم..

ولو نظرنا للحضارة العربية خلال ٥٠٠ سنة من تاريخ قيامها في عهد الخلافة وحتى سقوطها، سنجدها نموذج مُكبر من هذه الإغارات الدورية الموسمية، أي إغارة حضارية كُبرى بحجم ٥٠٠ إغارة موسمية، وكل ما في الأمر أن الإغارة العربية كانت أقوى وأشد من قرينتها الإغارة المغولية، فطبيعة الإغارة أنها تتخذ محطات مختلفة في الطريق لتعيد حساباتها كل فترة وتراقب الطرق والحركة ومراكز القوى ولا تستقر في مكان واحد.. وهكذا كانت حضارة العرب لها محطات مختلفة ما بين المدينة ومكة ثم الكوفة بالعراق ثم دمشق بالشام ثم بغداد بالعراق ومحطة أخرى منعزلة في قرطبة بالأندلس، ثم تنازع حكام الأندلس وشكلوا عصابات مستقلة، وصارت لكل عصابة محطة مستقلة تنازعوا فيما بينهم.. ثم في النهاية ما نهبه بني العباس في ٤٠٠ سنة أخذه هولاكو في ليلة.. ولم يبقى من حضارة العرب سوى المرويات والحكايات وألف ليلة وليلة، لأن واقع الدولة أصبح سراب ولم يعد لها أثرٌ حقيقي يمكن استنباته من جديد...

ولا مقارنة بين مرويات العرب الخرافية وبرديات الفراعنة؛ ليس فقط لأن الأولى شفوية والثانية مدونة، بل لأن الأولى أدبية والثانية علمية منظمة؛ فيقول الدكتور مصطفى وزيرى مدير عام آثار الأقصر، أن الجبتين القدماء كانوا عظماء بمعنى الكلمة في كافة أمور حياتهم فهم عرفوا علوم الفلك والطب والزراعة والصناعة والهندسة وبرعوا في كافة المجالات، ودونوا تلك المجالات وأمورها المختلفة على برديات فرعونية رصدت تلك العبقريات الفرعونية، حيث أنهم عرفوا تكوين الجسم الآدمي لما أجروه من تحنيط الموتى بغرض الحفاظ على جثمان أصحابها، واشتهر الطبيب الجبتي القديم في البلاد المجاورة، لكونهم متقدمين في الطب وشمل الجراحات البسيطة، وإصلاح كسور العظام وتركيب العديد من الأدوية، ومن تلك البرديات الشهيرة بردية إدوين سميث وبردية إيبرس وبردية كاهون ولندن وبرلين وغيرها من برديات العلاج بالطب، وكذلك برديات أخرى تم فقدان أجزاء كبيرة منها أثناء العثور عليها كبرديات تشستربينى، وليدن، والرامسيوم، وهرست، بردية بروكلين للعلاج من سم الثعابين.

وبردية برلين الطبية التي تحتوى على شرح مطول عن القلب والأوعية وأغلب العقاقير نباتية وحيوانية. ومثال آخر بردية "إدوين سميث" أعظم برديات الجراحة الفرعونية، فهي تعتبر أكثر البرديات الطبية أهمية فهي بردية جراحية بحته وتعرض معلومات عن التصرف الطبي الجراحي مع ٤٨ حالة جميعها إصابات حوادث، وتعرض أسلوب التعامل والعلاج مع كل إصابة في أربع فقرات منفصلة، تبدأ بعنوان مختصر ثم طريقة الفحص الطبي ثم التشخيص وتنتهي بالعلاج. ومن الحالات التي سجلتها تلك البردية الشهيرة التعامل مع مصابين بجرح في الفخذ، ومكتوب في البردية "إذا قمت بفحص مريض يعانى من جرح في فخذه، ووجدت تورما واحمرارا حول الجرح، يجب عليك أن تضمده بلحم طازج في اليوم الأول، ويكرر العلاج حتى يقل التورم، وبعد ذلك يعالج بالشحم والعسل بضمادة موضعية يوميا حتى يتم الشفاء"... هكذا دون أجدادنا مروياتهم على بردياتهم ولم يتركوها شفوية مثل العرب تنتقل بالعنعنة، وليس معنى أن تنهل الحضارة الجبتية من العرب أن تنحني للقومية العربية.. فبإمكانها أن تستورد ما تشاء من شبه الجزيرة لا أن يُفرض عليها حتى وإن كان صحيحا عن فلا ابن فلان... ولا يمكن أن تستمر حالة خضوعية الحضارة الجبتية للقومية والتراث العربي بأي حال.



في النهاية ندرك لماذا جمع العرب كل هذه المرويات وكل هذا التاريخ ودونوه باسمهم، ومنحوه قداسة الدين.. فجميع العلماء لم يكونوا من أصول عربية، سواء كانوا علماء الفقه والدين أو علماء الطبيعة والفلسفة أو حتى علماء اللغة العربية لغة العرب أنفسهم، جميع هؤلاء العلماء من أصول غير عربية، ولم يكن من بين العرب من تفوق في العلم كما تفوق خالد الوليد في المعارك الحربية والذبح والقتل.. ولم يكن عدد الحكام والسياسيين والمتصارعين على الحكم في الدولة العربية يساوي عدد المشتغلين بالفقه أو العلم.. فالعرب ليس لديهم وظيفة في الحياة سوى الحرب والحكايات الشفوية، ولهذا قدسوا الحرب وجعلوها ركنا من أركان الدين، وقدسوا الروايات الشفوية وجعلوها نصف الدين .. ولو نظرنا إلى تاريخ شبه الجزيرة العربية فلن نجد لهم أي تاريخ يدل على أنهم كانوا موجودين على سطح الأرض، فتاريخهم والعدم سواء، ولذلك كان من الضروري لهم أن يصنعوا لهم تاريخ يتفاخرون به مثل كافة شعوب العالم، فأعطوا تاريخهم غطاء دينيا حتى يظل بمنأى عن النقد وفي ذات الوقت يحصل على قداسة الدين طالما ظل مرتبطا به.





الإضاءة الثالثة

مسقط رأسي على حضارة العرب من منظور قانوني

جميع الحضارات التي قامت عبر مراحل التاريخ وضعت لها نظاما قانونيا وإداريا للدولة كي تقوم.. فالحضارة المصرية القديمة وضعت مدونة بوخوريس، والحضارة البابلية وضعت تشريع حمورابي، والحضارة الرومانية وضعت قانون الألواح الاثني عشر، والعثمانية وضعت قانون المجلة العدلية وهو نظام قانوني دقيق اشتق مبادئه من الإسلام.. فهل وضعت حضارة العرب نظاما قانونيا مماثلا ؟

كنا في مراحل الدراسة الجامعية وما بعد التخرج نتناول دراسات قانونية مقارنة بين القانون الروماني القديم والقانون اللاتيني والقانون الفرنسي والقانون الفرعوني القديم والقانون البابلي وفقه الشريعة الإسلامية... وكان لكل قسم من هؤلاء أستاذ متخصص فيه دون غيره، كان يدخل المحاضرة من أولها لآخرها يتحدث في ذات التخصص ويستحي أن يخرج عنه إلا قليلا، وإذا خرج يكون خروجه للعروج على (مبدأ فقهي) عظيم عرفه فقهاء الشريعة الإسلامية في كتاب أو كتيب هنا أو هناك أو في حلقة من حلقات الذكر، وفي كافة الأحول كان الرومان سباقون في صياغة النصوص القانونية وإرساء القواعد الفقهية، وكان الأساتذة يتعاملون مع فقهاء الرومان بجرأة الناقد الجريء مع أساطين الفكر القانوني الذين لا يجب أن يخطئوا أبدا.. بينما يتعاملون بنوع من التعاطف مع فقهاء الشريعة الإسلامية، وكأنهم نبغوا في مجال ليس مجالهم فيستحقون المجاملة، يجلونهم كثيرا جدا لمجرد أنهم اتبعوا قاعدة فقهية ما، لكنني كنت أتساءل؛ ألم تكن لهم حضارة عظيمة مثل الرومان؟ وقد سيطرت دولتهم على مساحة أوسع من الدولة الرومانية ؟ والمفروض أنهم أضافوا إلى ما أنتجه الرومان مئات المرات، لأن الرومان سابقين عليهم بألفي عام في عمر التاريخ، لكن الغريب أنهم لم يدركوا قواعد قانونية أدركها الرومان قبلهم بألفي عام كاملة ! ثم من أين جاءوا بهذه القاعدة أو تلك؟ ألم يأتوا بها من القرآن ذاته الذي كانوا ملتزمين به ! ثم أنهم أقروا قواعد كثيرة جدا غير موافقة للقرآن ! ومع ذلك يتجاوز الأساتذة هذه النقاط، ودائما ما ينتهون إلى الانتصار لفقهاء الشريعة ولو بالمجاملة.. لم تكن هناك موضوعية في دراسة العقلية القانونية في دولة العرب..

كنت مُصرا على مقارنة كل هذه الأنظمة ببعضها كي أعرف المجتمع الذي كان يتمتع بعقلية قانونية أكثر من الآخر، لأنني كانت لدي قناعة أن المجتمعات هي أنسجة اجتماعية تفكر بطريقة متجانسة (بين أفراد المجتمع الواحد) ومختلفة نسبيا عن المجتمعات الأخرى، وكنت أعيب على الأستاذ عدم توسيع المقارنة في القانون الفرعوني القديم باعتبار انتمائي لهذه القومية الجبتية، ولاعتبار أسبقيتها في وضع الأنظمة القانونية.. ودائما ما كنت أبحث عن العقلية القانونية الأكثر احترافا في فنون الصياغة القانونية ومدى الملاءمة بين الجُرم والعقوبة التي تحقق عنصر (الردع)، فوجهت سؤالا للأستاذ لكنه تحاشى عن الإجابة. فدخلت له غرفة الاستراحة وسألته عن نظام الاستئناف في (الدولة الإسلامية) ونظام المجلس التشريعي الذي يعتمد نصوص القانون.

وكانت المفاجأة ! أنه لا يوجد نظام قانون أصلا في الدولة الإسلامية وإنما مجرد فقه وآراء اجتهادية متناثرة في قصاصات ورق ومخطوطات هنا وهناك في الكتاتيب والمساجد والمكتبات،

وعلى الباحث أن يقرأ آلاف الكتب كي يلم بمسألة واحدة ثم يختار الحكم الذي يرتاح له قلبه، وهكذا كان القانون والقضاء في دولة الإسلام ! أما عن نظام المجلس التشريعي الذي يعتمد القانون فلم يعرف العرب ! وأما عن نظام استئناف الأحكام إذا أصدر القاضي حكما خاطئ، فلم يكن لديهم استئناف ! كيف ذلك وقد طبقه أجدادنا الجبتيون منذ أربعة آلاف عام ! وطبقه الرومان منذ ألفي عام؟ وأما عن قانون المرافعات والإجراءات القضائية فلم يعرفوه إلا بعد سقوط الدولة العباسية ! وأما عن النظام السياسي فكانت الإجابة (البقاء للأقوى)!

١ـ نظام الحكم عند العرب

بمجرد رحيل النبي عليه السلام، تنافس الصحابة الكبار على السلطة، ولم نعرف حتى الآن ما هو النظام أو المبدأ الذي سار عليه الحكم في دولة العرب مدة ٤٠٠ سنة حتى سقطت.. فقد تحديث الفقهاء عن الخلافة ومبدأها القائم زعما على الشورى، بينما في حقيقتها كانت حكما شخصيا محصنا باسم الدين تحت ستار نظرية الخلافة، واستخدم الفقهاء عبارة " أهل الحل والعقد" للدلالة على المجلس النيابي في اتخاذ القرارات السياسية، ولم يحدد الفقهاء ماذا يقصدون بهذا المصطلح، ولم يضرب أحدهم حتى مثالا يوضح به من هم " أهل الحل والعقد" أو كيف تم اختيارهم في الماضي أو كيف يتم اختيارهم في الحاضر أو المستقبل !

بل إن غياب مجرد المثال هنا يدلل بقوة على أن الحركة الفقهية كانت تابعة كلية للحركة السياسية العربية، وليست مشتقة ونابعة من مبادئ الإسلام، إنما الفقهاء جعلوا نهج العرب سياسيا هو دين للشعوب، ولذلك تفقهوا مع الاتجاه السياسي، وإذا كان الاتجاه السياسي تبنى نظام الخلافة أصبحت الخلافة دينا للشعوب وعلى الباحثين إهدار عمرهم وتحضير رسائل دكتوراه عديدة في هذه الجزئية من الفقه الديني. وإذا صمت النظام السياسي عن التحدث صمت الفقهاء، بدليل أن السياسيين العرب والخلفاء لم يؤسسوا مجلس نيابي ولا مجلس تشريعي، ولذلك نجد أن الفقهاء أطلقوا اصطلاح " أهل الحل والعقد"، ولم يضربوا مثال أو كيفية أو آلية لاختيار وتعيين هؤلاء أهل الحل والعقد.. ذلك فقط لأن النظام السياسي صمت عن التحدث في هذا الشأن، وكان أهل الحل والعقد يظهرون بالصدفة حسب موازين القوى السياسية ومواقع السيطرة والعصبية القبلية والصراع بين الأمراء وغير ذلك من شؤون العرب، وبالتالي فأهل الحل والعقد هم من يملكون السيطرة الفعلية وليس من يملكون الإجازة الشرعية للسيطرة، ولهذا اعترف الفقهاء بأهل الحل والعقد ولم يضعوا شروط الحصول على هذه الإجازة، لأنها واقعية حسب الظروف والصدفة ومواقع القوى والنفوذ والصراع ومَن قتل مَن ومَن ذبح مَن ومَن بقى أو فلت مِن الذبح ..إلخ، هذه شؤون واقعية ولم يستطع الفقهاء أن يضعوا لها ضوابط فصمتوا حتى تتكلم السياسة العربية ليتكلم الفقه.

ومنذ البداية وحتى الآن لم نستطع تحديد القواعد والمبادئ التي على أساسها اختيار العرب أبي بكر خليفة لهم، ولا القواعد والمبادئ التي على أساسها تم اختيار عمر خليفة لهم، ولا علي ابن أبي طالب خليفة ولا عثمان عفان... فهي مسائل واقعية اختلفت من واحد لآخر، وقد تسارعت معدلات الفساد

ومواقع القوى والنفوذ في عهد عثمان عفان حتى مقتله ثم عليَ حتى مقتله ثم تصلبت شرايين الدولة على نظام الحكم الوراثي الدكتاتوري وبداية عصرٍ جديد من الفساد السياسي والصراعات المسلحة للسيطرة على الحكم بالقوة، وهو ما يمثل طبيعة المجتمع العربي دون أي صلة بالإسلام، فنظام الخلافة ما هو إلا نظام سياسي حكم به العرب أنفسهم، ولو افترضنا أن العرب توحدوا مجموعة من القبائل قبل الإسلام لكانوا حكموا أنفسهم بطريقة أشبه بالخلافة تماما، فالإسلام كدين لا وجود له في نظرية الخلافة ولا أنظمة الحكم إطلاقا. وسواء كانت نظرية الحكم لديهم بالخلافة أو بالملكية أو النظام الجمهورية أو الإمبراطوري، حتى وإن توافق مع الدين فهذا شأنهم وتاريخهم وليس تشريعا في الدين، وليس مجرد نجاح العرب في حكم بلادهم بنظرية الخلافة الراشدة أو المعوجة أن يكون هذا النجاح سببا لإقحام نظرية الخلافة في الدين أو أن تنتقل مسلماتها ومبادئها للدين حتى وإن كانت ناجحة، لأنه في النهاية نظام الحكم هو شأن مجتمعي ولكل مجتمع سماته وملامحه ومقوماته التي تمثله. فالعرب كانت بيوتهم في الخيام، بينما الجبتيين بيوتهم من الطوب الآجر وقصورهم من الرخام ومقابرهم ومعابدهم من الجرانيت، والعرب مهنتهم الرعي، الجبتيين مهنتهم الزراعة والصناعة والعلم والإنتاج والمعمار، فهل كل موروث ثقافي عند العرب يصبح دينا للشعوب الأعجمية ! حتى وإن كان نظام الخلافة ابتكره أبي بكر وعمر فهم جزء من نسيج المجتمع العربي وليسو جزء من الإسلام.

غير أن النظام الجمهوري الذي ابتكره الرومان قبل ألفي عام لهو أقرب إلى الإسلام من نظام الخلافة الذي ابتكره العرب، وأكثر انسجاما واتساقا مع مبادئه، لأن النظام الإمبراطوري يقوم على أساس حق كل (مواطن بالغ عاقل حر وشريف) في الإدلاء بصوته بانتخاب حر ومباشر دون وسيط لاختيار الحاكم، وذلك بالاستناد إلى تساوي كل هؤلاء في ملكية الوطن ومعرفة مصالح الجماعة الوطنية (مع حتمية قطع الصلة بين الحاكم المتوفى والحاكم الجديد). والمجلس النيابي هو الذي يختار الحاكم وليس بتوصية من الميت..

أما نظام الخلافة فهو ابتكار عربي لم يتجاوز سقف العقلية العربية من حيث مستوى العلم والحضارة التي كانت موجودة في بلاد العرب وقت ظهور هذا النظام، بل إنه في الواقع، فالخلافة بدأت باعتبارها ميراث واستحقاق، وليس نظام حكم، لأنهم بحثوا عن أحقية الخلف أي من له الحق في انتقال التركة (من –إلى) وليس من له القدرة على حمل المسؤولية؛ أي القدرة على الإدارة. حتى أنه تمت صياغته من اشتقاق لغوي لا علاقة له بالحكم ولا الوقت الحاضر ولا مساواة بين الناس ولا تمثيل فيه لإرادة شعبية جمعية، ولا مساواة فيه لمواطنين، ولا أي آلية لمباشرة حقوق مواطنة ولا كيفية لإدارة

مجتمع ولا أي التزامات حاضرة ولا أي آلية للاعتراض على قرار الحاكم إذا أخطأ.. إنما فقط اشتقاق الخلف، وهي في القانون والواقع ترتكز على آلية انتقال الحق من ماضٍ إلى حاضر بسبب محدد، هذا السبب نشأ في الماضي قبل الوفاة وقبل أن تصبح عملية الانتقال حالة، ونشأ السبب بعيدا عن الموضوع كمن يرث محل لبيع التحف وهو يعمل أستاذا مثلا وليس له علاقة بالزبائن، أو يرث شركة هو ليس رجل أعمال، وإنما لصلة شخصية بين الراحل والخلف.

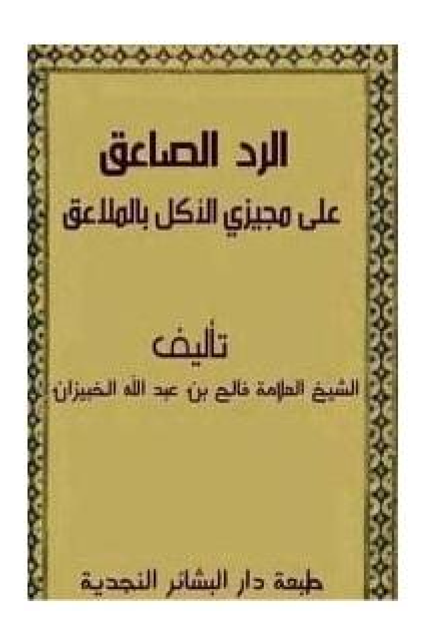
ولذلك جاء اختيار أبي بكر وعمر على أساس صلتهما بالنبي وهجرتهما معه وتضحيتهما إلى جانبه،(كأنهم يبحثون عن مستحقي التركة ودرجات القرابة) ولم ينشأ سبب استحقاق الرئاسة من الواقع ولم يتقرر من الواقع، وعلى أساس القدرة على الإدارة، لأنه من حيث القدرة على الإدارة كان عمر أكفأ بكثير من أبي بكر، لكن أبي بكر كان قلبه أقرب للنبي (ص) على ما قيل، إنما تقرر نظام الحكم على أساس صلة الخلف بالراحل وليس صلته بالشعب الذي سيحكمه.. (حتى صياغة اسم النظام تشرح معناه دون حاجة لتوضيح)، فهي في القانون تبحث الأسباب التي نشأت جميعها صحيحة وتامة قبل وفاة المخلوف، وقد حتمت للخلف استلام الحقيبة دون أي تدخل من أي عناصر واقعية أو تالية على وفاة المخلوف.

بينما نظام الحكم الرشيد يقوم على انقطاع الصلة بين الحاكم السابق واللاحق، حتى أن القرآن قرر " وأمركم شورى بينكم" أي حتم انقطاع الصلة تماما بما سلف وقطع أي صلة بين الحاكم وسلفه، وحصرها في الحاضرين ومصالحهم، إنما هم اعتبروا الحاكم امتداد لسلفه وهذا يعاكس نظرية القرآن، لكنهم عجزوا عن فهم نظرية القرآن وتعاملوا بإمكاناتهم العقلية المتواضعة. وكأن المؤشر ينظر إلى الخف ويعتبر الماضي هو البوصلة..

حتى أن الفقه سار في ذات الاتجاه وجعل السلف هو مؤشر البوصلة فعجز أن يقدم جديد. وهذه طبيعة العقلية العربية الأدبية أنها تعيش على اجترار الحياة والمعارف بذات تفاصيلها من الماضي دون سبر الحاضر والمستقبل، وكل جديد هو مجرد إعادة اجترار لما سبق هضمه. فجاء اشتقاق مصطلح الخلافة من جنس العقلية العربية وليس من جنس النظرية القرآنية، فقد صاغوا مفهوما للإنابة عن النبي وليس للإنابة عن الشعب.. للحلول محل النبي وليس الحلول محل الشعب في منصب الإدارة. ذلك لأن العقلية العربية من النوع الذي يتحسس طريقه بالنظر في المرآة الخلفية فقط، فهناك شعوب تتحسس الطريق بالنظر إلى الأمام في معالم الطريق ذاته ودراسة ظروفه حسب مقتضى حال، أما العرب فعقليتهم مثل السائق الذي إذا أردا أن يتحرك ويضبط سيارته على الطريق ويتخذ سرعته، فينظر في المرآة

الخلفية فقط باعتبارها البوصلة، وهكذا في كل جوانب الحياة، حتى أننا نجد الشيخ العلامة فالح ابن عبد الله الخبيزان قد ألف رسالة بحثية ليُثبت فيها عدم شرعية الأكل بالملاعق لأنها بدعة من بدع العصر الحديث وضلالة وكل ضلالة في النار، وينصح الطلاب باقتناء كتابه القيّم، النافع لهم في الدنيا قبل الآخرة، بينما الطلاب الأمريكيين يقتلون وقتهم في البحث في آليات الأمن الإلكتروني لتأمين سفن الفضاء دون أن يسألوا عن مشروعية بدعة السفر إلى الفضاء ! بينما العرب ما زالوا يفكرون في مشروعية الأكل بالملاعق من عدمه ! ذلك لأنهم لم يرو ملعقة الملك الجبتي الشاب توت عنخ آمون، ولم يعرفوا أن توت عنخ آمون كان يأكل بالملعقة قبل أن يولد رسول الله.




الرد الصاعق
على مجيزي الأكل بالملاعق
تأليف
الشيخ العلامة فالح بن عبد الله الخبيزان
طبعة دار البشائر النجدية

بل إننا نبحث في تاريخ الحضارة العربة بكامله، فلا يمكن أن نجد حاكم عربي تولى الحكم دون رابطة وصلة موصول بينه وبين الحاكم السابق عليه، فالحاكم عندهم يستمد شرعيته إما ((من الحاكم السابق عليه))، سواء كان بعلاقة الصحبة مثل أبي بكر أو بالوصية مثل عمر أو بالوصية مثل عثمان أو بالوصية مثل علي ابن أبي طالب أو بالميراث مثل بني أمية، وإما أن يغتصب شرعيته من الحاكم السابق عليه ((بسيطرته هو الفعلية بالعنف والقوة وذبح الحاكم السابق عليه والبطش بالشعب)) مثل بني أمية وبني العباس. إنما لا يمكن أن يستمد شرعيته من الشعب أبدا أو حتى برضا الشعب واختياره.. لأنهم لم يصلوا إلى هذه الدرجة من الرقي والإنسانية في أي مرحلة من مراحل التاريخ ومهما ارتقوا فمن الوارد فقط أن يدركوا الدرجة الأولى لسلم المدنية لأنهم في الأصل من مجتمعات القبائل وليسو من شعوب الحضارات، وهذه المجتمعات القبلية من فطرتها العيش أفقيا وليس التطور رأسيا.

بينما نجد النبي محمد عليه السلام هو الوحيد الذي لم يستمد أي شرعية من سلفه، ولا رابط ولا صلة موصول بينه وبين سلفه، فالنبي عندما بدأ دعوته تحرك للأمام مباشرة دون النظر في المرآة الخلفية (حتى قبل البعثة لم تكن أخلاقه مستمدة من تراثه الاجتماعي العربي)، بينما القومية العربية بالكامل سواء كان الصحابة أو التابعين أو الفقهاء لا يتحركون إلا بالنظر في المرآة الخلفية فقط، سواء كان في شؤون الحكم أو في شؤون الدين. وبرغم أن النبي أقر كثير من المبادئ التي كانت موجودة في الشرائع السابقة عليه لموافقتها للرسالة إلا أنه لم يأخذ من الماضي على وجه الإلزام وإنما على وجه الانتفاع، فقط أخذ منه ما يتوافق مع حاضره، فلا إلزام من الماضي للحاضر بأي حال، إنما الحاضر هو ما يقرر الاستعانة بما هو ماضٍ أو لا، وفي المجمل قامت الرسالة المحمدية على مبدأ القطيعة من مع الماضي، ففكرة تجدد الحياة في حد ذاتها تقوم على القطيعة مع الماضي، وإذا لم تحدث قطيعة مع الماضي نفهم تلقائيا أنه لا تجدد، وهذه طبيعة الحياة بالنسبة للقومية العربية حتى في أساليب المعيشة اليومية ليس فيها أي تجدد وإنما روتين ثابت يتكرر يوميا على مدار آلاف السنين حياة تحت الخيمة ولم تتطور إلى بيتٍ خشبي حتى، بينما الفراعنة رفعوا سقف الخيمة في العصر الحجري حتى صار هرما عظيما في العصور الوسطى.

أما الخلافة فتقوم في أساسها على إلزامية من الماضي نابعة من صلة الحاكم بمن سبقه كما الوارث الذي يتلقى التركة (شركة مثلا) دون أن تكون له صلة بالعمال والمديرين ..إلخ. إنما صلته فقط تحدد بالمالك الذي توفي، ونشأ له استحقاق ثابت بسبب قبل الوفاة، وكان المتوفى هو مصدر هذا الحق وليس العمال والمديرين مصدر الحق.. ولذلك رد العلويين بأن النبي ترك وصية لعلي ابن أبي طالب، ذلك لإدراكهم أن النظام هو بحث مسألة الاستحقاق بسببٍ ماضٍ وليس لسبب حال، ثم جاء أبي بكر ونقل الخلافة لعمر بالتوصية، ثم جاء عمر الخطاب ونقل الخلافة بالوصاية إلى سبعة فقط يختارون واحدا من ستة (وكأنه هو بمفرده قام بتعيين مجلس الشعب وأمرهم باختيار أحدهم رئيسا). ثم تنازع الستة حول من يتبع الشيخين (أي كان سبب الخلاف حول أسباب من الماضي وليست متعلقة بالحاضر ومآلاته وظروفه، فرفض علي ذلك وخدعهم عثمان وتوعد بتبعية الشيخين عمر وأبي بكر ثم حنث بوعده) وبعد ذلك تنازع معاوية مع العلويين ورد معاوية عليهم بأنه: (لا وصية لوارث) باعتبار علي وزوجته من ورثة النبي، ثم استقرت الخلافة على الوراثة، فهي لم تبدأ من منبع الشورى وإنما من منبع الوصية ونمت وتطورت تدريجيا حتى وصلت إلى الميراث خلال ٤٠ سنة فقط.

والخلافة التي قيل عنها أنها راشدة، حتى هذه لا تصلح لإعادة الاستنساخ لأننا إلى اليوم لم نتمكن من الإمساك بملامح يمكن وصفها بأنها نظام سياسي، فهي محض تعيين حَكَمٍ بين القبائل لمتصارعة، حتى وإن ارتضى بعض القبائل فهذا لا يعني أنهم اتبعوا نظام سياسي محدد وواضح المعالم يمكن استنساخه في إمبراطورية مثل إيجبت لبناء حضارة، فالطريقة التي تم بها الارتضاء على حاكمية أبي بكر ليست مفهومة حتى الآن، وليس لها أساسٌ سياسي يمكن إعادة استنساخه، وكذلك الطريقة التي تم بها اختيار عمر ليست شرعية لأن الحاكم الراحل أبي بكر ليس له الحق في توصية لغيره لأن الوصية تكون فقط من أملاكه العينية والسائلة التي يملك حرية التصرف فيها شخصيا دون حاجة لاستطلاع أبنائه أو مجلس نيابي أو هيئة نيابية، إنما الحُكم ليس ملكا لشخص عمر، هو ملكٌ للأشخاص الأحياء فقط، وكذلك الطريقة التي تم بها الارتضاء على علي وعثمان ما كان لها أية ملامح سياسية ولم ترسي أية مبادئ سياسية عدلية يمكن إعادة استنساخها في أي وقت.. حتى إذا ما وصلنا لوراثة الحكم في عهد بني أمية والعباس لا نجد أي أثر لأي إنسانية حتى في تداول الحكم بين الإخوة وأولاد العم..

فمحور نظام الخلافة هو كون (المتحكم فيه هو الراحل وليس القادم) وكما قلنا مسبقا لا يعني أن نظام الخلافة ابتكره العرب يصبح هو أفضل نظام حكم ويصبح هو قمة الحضارة، ويصبح هو مرآة الإسلام؛ لأن العرب ليسو أفضل شعوب الأرض بل أسوأها وأكثرها فسادا وتخلفا وشركا ونفاقا وقد اختصهم الله بجرعة العلاج في البقعة الموبوءة من الكوكب الأرضي. ولمجرد أن هذا المجتمع أخذ جرعة العلاج فهذا لا يجعله أفضل صحة وحيوية من غيره من الشعوب التي لم تتلق العلاج، لأن العلاج للمجتمع المريض عقائديا أما غير المريض فهو تحصين له، وبالتالي لا يتحول المجتمع المريض بمجرد تلقي العلاج إلى أكثر مجتمعات الأرضة صحة وعفوية ورشاقة وحضارة! .. فالمطهر يضعه الطبيب على الجرح أو النسيج التالف المتهتك ليطيب ويعود كما باقي أنسجة الجسم حوله .. لا أن يصبح هو أنضر أنسجة الجسم !

أما مصطلح أمير (المؤمنين) فقد كان الأصدق تعبيرا عن وراثة النبوة وكأن الحاكم انحصر دوره في لعب دور النبوة بعد رحيل النبي (وهذا بالفعل ما مارسه كل حاكم عربي وكل الحكام العرب على الشعوب الأخرى مارسوا عليهم دور النبوة) برغم أن مصطلح أمير المؤمنين هذا يكون اسما على مسمى فقط داخل أسوار المسجد لأن من بداخل المسجد هم مؤمنون يمارسون شؤون إيمانهم، أما خارجه فهم مؤمنون وغير مؤمنين يمارسون شؤون (العمل والبناء والإنتاج والزراعة والصناعة والتجارة والنجارة

والحدادة والصيد والرعي ...إلخ. ولأن الحاكم في الواقع له وظائف أخرى غير الشؤون الدينية (منها إدارة الحالة السياسية والاقتصادية والمصالح الاجتماعية والمشروعات القومية والعمل والبناء والإنتاج والعمارة...إلخ، والشؤون الأمنية وإدارة شؤون اليهود والمسيحيين واللادينيين وجميع طوائف المجتمع) فالله تعالى لم يختصر الحياة ولا دور الحاكم في إدارة الشؤون الدينية، إنما اختصر دور النبوة فقط في إدارة الشؤون الدينية للمجتمع، ولم يرسل نبيا لتعليم قومه الصناعة ولم يرسل نبيا لتعليم قومه استصلاح الأراضي والزراعة ولم يرسل نبيا لتعليم قومه أصول الفلاحة والملاحة وركوب البحر، ولم يرسل نبيا لتعليم قومه الغزل والنسيج كي يكسوا أبدانهم، إنما اختص النبوة في الشؤون الدينية وترك باقي شؤون المجتمع حسب الحاجة لأن الحاجة أم الاختراع، ولهذا كان اشتقاق العرب لاصطلاح الحكم من منطلق وراثة النبوة وليس إدارة مجتمع، لأنهم لا يملكون مقومات مجتمع حضاري يقوم على العمل والبناء والإنتاج، وكل ما ملكوه هو تركة النبوة، فكان تحركهم ولعبهم في حدود ما ورثوه عن النبي لا ما قاموا هم ببنائه..

وكما سبق وأوضحنا في قول الله تعالى " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " لا يعني أن تخصص الإنسان في ممارسة شعائر العبادة، كالصلاة والصوم والحج وتلاوة القرآن، لأن الله خلق الإنسان وسيّره في هذه الدنيا متعدد النشاطات؛ الزراعة والصناعة والصيد والتجارة والعلم والمعرفة فيزياء وكيمياء وبيولوجيا..إلخ. وانحصر دور الدين فقط في تقويم سلوك الإنسان أثناء أداء نشاطاته هذه... كي يضمن حياة آمنة فائزة في الدنيا والآخرة.. إنما أن نتصور أن دور الإنسان في الحياة انحصر فقط في شعائر العبادة التي هي أصلا موجودة لتقويم سلوكه وضميره أثناء العمل والحياة وإعمار الكون ! .. إن صياغة الدين بهذه الفلسفة العجيبة لهو نابع فقط من الكاريزما العربية التي تهوى الرياسة.. الرياسة والرقابة على الآخرين دون انخراطٍ معهم في عمل، بل والعيش عالة على أكتافهم كما نرى في سلوك الكفيل العربي.

ففي الواقع لم تعرف الدولة العربية أي (نظام) سواء كان نظام حكمٍ أو نظام قانوني أو إداري أو تشريعي أو سياسي أو أية مجالس نيابية أو تشريعية، كما عرف المصريون المجلس التشريعي المكون من ستة فقهاء قانون، وعرف الرومان كذلك المجلس التشريعي المسمى بـ"السناتوز"، كان الأمر عند العرب ديكتاتوريا محضا باسم الخلافة الأموية والعباسية، وعبارة أهل الحل والعقد، هذه العبارة الغامضة قصد بها الفقهاء كل من بيده الأمر حتى وإن كان سفاحا اغتصب السلطة، لأن دولة العرب قامت أصلا على اغتصاب السلطة، فصار ممارسة السلطة فعليا هو مصدر الشرعية، ولا مصدر للسلطة

غير ممارستها بالفعل سواء كان ذلك بغصبها أو غيره، المهم أن يستطيع الشخص إكراه عامة الناس على تنفيذ أوامره، فيكون بذلك هو أهل الحل والعقد.

ولذلك لم يضع العلماء ضوابط سياسية لاختيار الخليفة، بمعنى أنهم اشترطوا فيها المبادئ العامة وهي (العدل والحكمة والرشاد... إلخ وتلك التي إذا سألت عنها يجيبك أجهل أهل الأرض كمبادئ عامة دون ارتباط بدين أصلا أو هي ليست حصرا على الدين الإسلامي.. لكنهم لم يضعوا آلية تنصيب واختيار هذا الحاكم العدل الرشيد الورع التقي النقي البهي، هي كانت أمانيهم فقط، ولم يضعوا ضوابط للوصول إليها، ولذلك لم يصلوا إلى حاكم بالشروط العدلية الرشيدة التي تمنوها.. ذلك لأن السياسة العربية لم تمارس أي ضوابط للوصول إلى الحكم، بل إن الطريقة التي اتبعها أبي بكر للوصول إلى الحكم لهي أول طريق الاعوجاج في حياة العرب.. وبما أن مصدر الفقه كان هو سياسة العرب، وقد صمتت السياسة عن تحديد آلية الوصول للحكم فصمت الفقه بأدب ولم يرفع عينه على الحاجب.

فيقول السيوطي: عبد الملك مروان الحكم أبي العاص.. ولد سنة ست وعشرين، بويع بعهد من أبيه في خلافة ابن الزبير فلم تصح خلافته وبقي متغلبا على مصر والشام ثم غلب على العراق وما والاها إلى أن قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين فصحت خلافته من يومئذ واستوثق له الأمر. ففي هذا العام هدم الحجاج الكعبة وأعادها على ما هي عليه الآن ودس على ابن عمر من طعنه بحربة مسمومة فمرض منها ومات، وفي سنة أربع وسبعين سار الحجاج إلى المدينة وأخذ يتعنت على أهلها ويستخف ببقايا من فيها من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وختم في أعناقهم وأيديهم يذلهم بذلك كأنس وجابر عبد الله وسهل سعد الساعدي فإنا لله وإنا إليه راجعون..إلخ. (كتاب السيوطي ـ تاريخ الخلفاء)

ولذلك لا نجد أي أثر لنظرية سياسية ولا نظرية قضائية أو قانونية في تاريخ الدولة العربية، لأن السيف هو الحاكم، والحاكم هو السلطة، والقضاء لمن يملك السلطة. وحتى لا يظن القارئ أني متحامل على العرب، أو أنني أنفي وجود قانون للعرب بصفتي رجل قانون، فسوف نقتبس من كلام الأستاذ أحمد أمين ما يمكن للقارئ غير المتخصص أن يفهم بجلاء أن دولة العرب فعلا لم يكن بها قانون ولا نظام وإنما كانت عبارة عن غابة فوضوية. والأستاذ أمين هنا يصف بهدوء الحالة التشريعية والنظام (القانوني) و(القضائي) معا في دولة العرب خلال عهد الدولة الأموية والعباسية. والأستاذ أمين هنا نظرا لأنه أديب وصحفي أي غير متخصص في القانون فهو لا يرى غضاضة من هذا الوضع التشريعي، لكننا معا سنقرأ من كلامه ونفهم ماذا كان الوضع في الواقع.

يقول عن المدارس الفقهي: وهذه المدارس على اختلافها رقت التشريع رقيا بيّنا بما بحثت واستنبطت. حتى الأحاديث الموضوعة نفسها كان لها في فضل في التشريع، فإنها لم توضع اعتباطا ولا كانت مجرد قول يقال، إنما كانت في الغالب نتيجة تفكير فقهي وبحث واجتهاد، ثم وُضع هذا الرأي وهذا الاجتهاد في قالب حديث. ولما جاءت الدولة الأموية نقلت مركز الخلافة إلى دمشق الشام، وفي عهدها ظهر أثر الامتزاج الذي كان بين العرب الفاتحين والأمم المفتوحة على النحو الذي أبناه من قبل وساعد هذا على الامتزاج أن المسلمين بحق في عصرهم الأول كانوا متسامحين مع غيرهم أجمل تسامح، وسيرة عمر بن الخطاب أصدق شاهد على ذلك، وإنما جاءت القسوة وسوء المعاملة بعد هذا العهد . فكان من أثر ذلك أن وُضع تحت أعين المسلمين أنواع من المدنيات المختلفة وأنواع الديانات المختلفة وأنواع من الأنظمة المختلفة، كل هذه جعلت المسلمين وغير المسلمين يتساءلون: ما حكم الإسلام فيها؟ ما رأي الإسلام في هذه الجزئيات الكثيرة التي أنتجتها هذه المدنيات؟ ما الذي يرضاه الإسلام وما الذي لا يرضاه؟ وأيها يتفق مع قواعده الكلية وأيها لا يتفق؟

فكان موقف الفقهاء أمام هذه المشاكل من أصعب المواقف وأشدها عناءً، وكانوا هم من جانبهم أكثر الناس نشاطاً وتحملا للعبء في هذا العهد. عهد الدولة الأموية، لا نرى خلفاءهم يهتمون بشيء من شئون التشريع إلا قليلا منهم كعمر بن عبد العزيز، فالتشريع لم يرق تحت حمايتهم ورعايتهم، كالذي في كان عهد الدولة العباسية، إنما رقي في المدارس وفي حلقات الدروس المستقلة عن خلفائهم. ولم يبذل الأمويون محاولة في صبغ تشريعهم صبغة رسمية، <u>فلا نرى في الدولة الأموية مثل أبي يوسف في الدولة العباسية يحميه الخلفاء ويؤدنه في التشريع ويثقون الصلة بينه وبينهم، وبينه وبين قضاة الأمصار، ولا نرى من المشرعين من اتصل بالأمويين إلا قليلا كالزهري</u>. <u>وفي هذا العهد لم تكن المذاهب الأربعة قد تكونت</u>، <u>إنما كان هناك أئمة كثيرون مجتهدون</u>، كالأوزاعي، اندثرت مذاهبهم، بدأوا في آخر عهد الدولة الأموية يظهر إمامان من الأئمة الأربعة: الإمام أبو في حنيفة العراق، والإمام أنس بن مالك في المدينة . فالإمام أبو حنيفة ولد سنة ٨٠هـ في ولاية عبد الملك بن مروان، وعاش نحو ١٨ سنة في ظل الدولة العباسية، وهو من أصل فارسي، أخذ الفقه عن جعفر الصادق من البيت العلوي، وعن إبراهيم النخعي من أكبر فقهاء عصره، وسمع الحديث من الشعبي والأعمش وقتادة، واشتهر بقدرته التشريعية، وقوة حجته وحسن منطقه، ودقته في الاستنتاج، ومن أجل ذلك عدّ إمام أهل الرأي، ولم يصل إلينا شيء من <u>تآليفه القانونية</u>، <u>ولا ثبت تاريخيا أنه دوّن مذهبه في كتاب</u>، إنما فعل ذلك تلميذاه من بعده أبو يوسف ومحمد. والإمام مالك ولد سنة ٩٦ هـ بالمدينة من أصل عربي، وبها تعلم وعلم وألف، واشتهر بأنه حجة في الحديث،

وعد من أجل ذلك إمام أهل الحديث، ويمتاز مذهبه باعتماده على الحديث أكثر من أبي حنيفة، ويحتج بعمل أهل المدينة، وتوفي سنة ١٧٩هـ، وخلف لنا كتاب الموطأ، وقد اشتهر أنه كتاب حديث، ولكنه في الحقيقة كتاب فقه وإن ملئ حديثا، فلم يكن غرضه أن يجمع فيه الأحاديث المعروفة في عهده، والتي صحت عنده، إنما غرضه الإتيان بالتشريع مستدلا عليه بالحديث ؛ ولذلك نجد فيه فتاواه الشخصية وآراءه في بعض المسائل[٣٠].

تعرض الأستاذ أمين لكل المنظومة القانونية التي ظهرت خلال مرحلتي الدولة العربية في هذا المقتبس، وبرغم ذلك لم يظهر أي ملامح لنظام قانوني ولا فكر قانوني، إنما كان الفقهاء ينثرون فتاويهم هنا وهناك، وتعتبر هذه هي القانون بالنسبة لمن يأخذ بها، وكان الخلفاء يحسنون صلتهم بأكثر المشايخ شهرة، وعلى ذلك يتم اعتباره قاضي القضاة وهو المشرع والبرلمان وواضع القوانين ومنفذ الأحكام وكل شيء عند العرب !

(٣٠)من كتاب ملامح الحياة العقلية في عصور الإسلام الأول ـ الأستاذ أحمد أمين ـ ص٩٣ـ٩٤

٢- العقلية القانونية في دولة العرب

سبق وأن عرفنا أن العرب خلال رحلتهم الحضارية كانوا يمارسون السياسة فقط في البلاد التي فتحوها، وكانوا بعيدين كل البعد عن العلوم الدينية والعقلية، فهم كذلك بعيدين عن التنظيم القانوني، لأنهم فقط يمارسون السياسة أي الحكم بالقوة وليس حكم الشعب وفقا لقواعد الديمقراطية أو الكفاءة، ولذلك بحثوا كعادتهم عن غطاء ديني لممارساتهم فأوجدوا نظرية الخلافة، وحكموا البلاد بالحق الإلهي الموروث عن آبائهم وأقنعوا شعوبهم بأنهم يحكمون باسم الله. ونحن هنا سنركز على ملامح وخطوات الصعود الحضاري في مجموعة من الشعوب تضم عدة حضارات، خاصة المنظومة القانونية التي تنظم معاملات المجتمع في مرحلتي الازدهار والاضمحلال. ففي مرحلة ازدهار الحضارة كما قلنا تنصرف إرادة المجتمع إلى وضع منظومة قانونية متحضرة تحفظ الحقوق والحريات وتقف على مسافة متقاربة من الحاكم والمحكوم، وفي المقابل أيضا تضع المجتمعات مجموعات من الأعراف والحكم الشعبية تنظم معاملاتها وعلاقاتها.

وفي المجمل تأتي المنظومة الأولى الرسمية متناسقة ومتجاوبة مع المنظومة الثانية العرفية؛ لأن القوانين الرسمية تستمد مصادرها من المنظومة العرفية لكل مجتمع. وهذه المنظومة العرفية لا يمكن أن تموت أو تفنى بأي حال، فهي موجودة طالما وجدت الحياة في المجتمع، ومهما كان فاسدا ستعبر هذه الأعراف عن فساده، وإذا كان متحضرا ستعبر هذه الأعراف عن مدى تحضره، ومنها يتم اشتقاق القوانين الرسمية، أو عندما تنضج هذه الأعراف تأخذ صورة القوانين الرسمية وتعتمدها الدولة وتخصص لها لوائح نظامية ومؤسسات (محاكم) ومسئولين رسميين. وعندما تضمحل الدولة تنهدم تلك المنظومة القانونية الرسمية وتتعطل المحاكم وتتجمد لوائحها فعليا وإن بقيت هيكليا، وتصبح السلطة هي القانون أي تحل السلطة محل القانون، فمن يملك سلطة الفعل ملك قوة القانون، وتحل أوامر الحاكم محل الدستور والقانون، وتحل سلطة الأعيان والعمد محل الأعراف والقوانين المحلية، ومن هنا يبدأ الفساد والاضمحلال. على كل حال، لا يمكن أن تقوم حضارة في شعب من الشعوب دون أن يكون لهذا الشعب نظام ودولة وقوانين رسمية معتمدة ومكتوبة في لوائح عامة كما فعل الفراعنة ودونوا قوانينهم على جدران المعابد، وفيما بلي نتناول نبذاتٍ عن بعض التشريعات القديمة.

١- التشريع في إيجبت القديمة

بالنسبة للحضارة المصرية، فقد بدأت تجارب الصياغة التشريعية مبكرا في إيجبت القديمة، وبدأ عصر التدوين في إيجبت خلال العصر الفرعوني الذي يبدأ بحكم الملك مينا لمصر عام (٣٢٠٠ ق.م) وينتهي في عام (٣٣٢ ق.م) حيث فتح الإسكندر الأكبر إيجبت في هذا العام، وخضعت بعد ذلك لحكم الرومان، وكانت الحضارة المصرية قد امتدت إلى روما قبل ألف عام من هذا التاريخ لأن الحضارة الفرعونية أسبق من الرومانية. أي أن الحضارة المصرية عاشت حقبة ازدهارها ما يقارب الثلاثة آلاف عام متواصلة، بدأت بزراعة الأراضي المحيطة بوادي النيل وإقامة الجسور والقنوات والأحواض، شهدت تنوعا خلاقا من الصناعة بداية بصناعة لفائف البردي لتدوين المعارف والخبرات الإنسانية، وتوصلت إلى اكتشافات علمية رهيبة في مجال علم الفلك والحسابات والهندسة المعمارية، ما مكنها من بناء الأهرامات التي تصدرت قائمة عجائب الدنيا السبع.

وقد لعب التشريع دورا مهما في تكوين القاعدة القانونية في العصر الفرعوني، واتخذ الفراعنة رموزا خاصة للعدالة وقدسوها كجانب مهم من حياتهم، كانت "ماعت" هي رمز العدالة، وشعارها "الصدق والعدل أساس الملك" وقد أورد لنا المؤرخ الإغريقي ديودور أسماء المشرعين الكبار في إيجبت وعددهم ستة مشرعين، وكانت إيجبت تهتم بإصدار المدونات القانونية التي تم حصرها في ست مدونات، وبجانبها توجد قوانين هامة أبرزها قانون حور محب الذي اتسم بطابعه المدني، ومن أهم المدونات في العصر الفرعوني كانت؛

<u>مدونة بوخوريس:</u> وقد تجردت من الطابع الديني واصطبغت بطابع مدني بحت، وتضمنت نصوص تتعلق بالمسائل الآتية:



أولا: المعاملات المالية: جاءت لتعزيز الملكية الخاصة وحرية التملك، وأقرت مبدأ الرضا في العقود، وفي مجال القروض والفوائد وضعت حد أقصى لسعر الفائدة وهو ثلاثون في المائة للنقود، وثلث المائة للمحاصيل الزراعية، وحرمت الفائدة المركبة أي أن الفائدة لا تحسب إلا على أصل الدين، وألغت المدونة نظام الإكراه البدني الذي يعطي للدائن الحق في تنفيذ حكم بدني على جسم المدين إما ببيعه أو إجباره على العمل لصالح الدائن. وميز في الإكراه بين نوعين من الدين، فإذا كان الدين للدولة سمح بالإكراه البدني، أما إذا كان الدين خاص فقد ألغاه.

ثانيا: مسائل الأحوال الشخصية: اعتبرت هذه المدونة الزواج عقدا كسائر العقود، حيث يتأسس على مبدأ حرية التعاقد، وأصبحت المرأة في مركز متساوٍ مع الرجل بالنسبة لإرادتها في إبرام العقد وحقها في اشتراط ما تشاء من البنود وتكون هذه الشروط صحيحة طالما قبلها الطرف الآخر، وقد وصل الأمر إلى اشتراط المرأة إنشاء حق رهن عام على أموال الزوج يضمن حصولها على حقوقها المالية، ويحق لها الاشتراط بعد الزواج عليها، وأيضا يحق لها إنهاء العلاقة الزوجية بالطلاق. وأقرت المدونة مبدأ الشخصية القانونية الكاملة للمرأة وزوال فكرة خضوع المرأة لوصاية الرجل، فصارت هناك ذمم مالية مستقلة للزوجين مما جعل للزوجة الحق في تملك الأموال والتصرف فيها من بيع ووصية بعد الموت، وكذلك أقرت المدونة مبدأ المساواة بالميراث.

٢ـ التشريع البابلي القديم

وفقا لما ورد في أول منظومة قانونية في التاريخ " قانون حمورابي" وهي أول منظومة قانونية مسجلة في التاريخ وضعها البابليون عام ١٧٩٠ قبل الميلاد، وتنقسم هذه المنظومة إلى ٢٨٢ مادة تعالج كافة مشاكل الحياة وتنظم العقوبات والتعويضات وتحدد حقوق وواجبات كل فرد في المجتمع. وعثر المؤرخون على نسخة من هذه المنظومة القانونية مسجلة على مسلة من حجر الديوريت الأسود بطول ٢,٢٥ متر، وما زالت موجودة في متحف اللوفر في باريس إلى اليوم. هذه المسلة وموضوعها هي ما نطلق عليه في عصرنا "كود القانون".



ونقرأ أحد النصوص القانونية في هذا الكود البابلي القديم، تقول؛

- " إذا أصدر القاضي حكما في دعوى قضائية، ثم تبين بعد صدور الحكم أن هناك خطأ فيه، أو انكشف تورط القاضي فيه، فيتم تنفيذ هذا الحكم على القاضي نفسه ويتم فصله من منصبه ".
- " إذا ضرب شخص آخر، فيكون له حق التعويض عن الضرر ".

وتنقسم قوانين حمورابي إلى ١٢ قسم:

- القسم الأول: يحتوي على المواد من ١ـ٥، وتتعلق بالقضاء والشهود.
- القسم الثاني: يحتوي على المواد من ٦ـ٢٦، وتتعلق بالسرقة والنهب.
- القسم الثالث: يحتوي على المواد من ٢٦ـ٤١، وتتعلق بشؤون الجيش.
- القسم الرابع: يحتوي على المواد من ٤٢ـ١٠٠، وتتعلق بشؤون الحقول والبساتين والبيوت.

- **القسم الخامس: يحتوي على المواد من ١٠٠ـ١٠٧، وتتعلق بمخازن البيع بالجملة ودكاكين التجار والرهينة والتعامل مع التجار.**
- **القسم السادس: يحتوي على المواد من ١٠٨ـ١١١، وتتعلق بساقية الخمر.**
- **القسم السابع: يحتوي على المواد من ١١٢ـ١٢٦، وتتعلق بالبيع.**
- **القسم الثامن: يحتوي على المواد من ١٢٧ـ١٩٥، وتتعلق بشؤون العائلة وحقوقها وعائلات أفرادها فيما بينهم.**
- **القسم التاسع: يحتوي على المواد من ١٩٦ـ٢٢٧، وتتعلق بعقوبات التعويض وغرامات نقض الاتفاقيات والعقود والتعهدات.**
- **القسم العاشر: يحتوي على المواد من ٢٢٨ـ٢٤٠، وتتعلق بالأسعار وتعيين أجور بناء البيوت والقوارب وأثمانها.**
- **القسم الحادي عشر: يحتوي على المواد من ٢٤١ـ٢٧٧، وتتعلق بأجور الحيوانات والأشخاص.**
- **القسم الثاني عشر: يحتوي على المواد من ٢٧٨ـ٢٨٢، وتتعلق بتعيين حدود الرقيق وحقوقهم وواجباتهم.**

وكتب حمورابي الكود البابلي بأسلوب قانوني وتناول فيه مدى موضوعية وأهمية القوانين التي تحمي الكود نفسه وبيان أهدافه وكيفية الاستفادة منه وإنزال اللعنات على من يحاول نسبه لنفسه أو يحوره أو يشوهه. بينما بعد ألفي عام من التقدم البشري نبحث في ميراث الحضارة العربية التي حكمت بل بابل فلا نجد للعرب أي أثر يشير إلى أنهم فكروا في تنظيم حياتهم بمثل هذا القانون، بل تركوا الأمر فوضويا بين الفقهاء والمذاهب، والفريق الذي يسطوا على الآخر هو الذي يفرض وجهة نظره. لم يكن لدى العرب ولا الفقهاء اهتمام بفكرة التنظيم القانوني أو خلق بناء قانوني كامل من الناحية الفنية..

٣ـ التشريع الروماني القديم

تعددت التشريعات الصادرة في المجتمع الروماني لتنوع المراحل التي مر بها هذا المجتمع والتي تنحصر في ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى: العصر الملكي والعصر الجمهوري: وقد أطلق على هذه المرحلة عصر القانون القديم، وكان هذا العصر زاخرا بالتشريعات المتنوعة، تبعا لتنوع الأسباب التي من أجلها صدرت تلك التشريعات فمن هذه التشريعات ما صدر لأسباب اجتماعية قانونية (قانون كانوليا وأتينيا)، فضلا على وجود قوانين عديدة صدرت خلال هذه المرحلة، أشهر هذه القوانين وأهمها هو قانون الألواح الاثني عشر، حيث أنه أول قانون مكتوب صدر في روما، وقد دونت نصوصه باللغة اللاتينية على ألواح من العاج كما يذكر البعض أو على ألواح من البرونز كما يرى البعض الآخر. وقد وضع هذا القانون في عام ١٥٠ قبل الميلاد، وضعته لجنة تألفت من عشرة رجال ووفق هذا العدد وضعت عشرة ألواح اشتملت على هذا القانون، إلا أنه تم تشكيل لجنة جديدة أضافت إلى هذا القانون لوحين آخرين فعرف بأنه قانون الألواح الاثني عشر.



مضمون مدونة الألواح الاثني عشر: يمكن إجمال ما جاءت به هذه المدونة من نظم قانونية في أربعة عناصر:

١. نظام الدعاوى (قانون الإجراءات)

وتنقسم الدعاوى إلى نوعين هما:

- **الدعاوى التقريرية: ترمي هذه الدعاوى إلى الحصول على إقرار الخصم بالحق الذي يدعيه أمام القضاء (الدعاوى التي يستهدف المدعي منها الحصول على تصديق المحكمة)، وقد قسم هذا النوع من الدعاوى إلى قسمين:**

← دعاوى القسم أو الرهان: ويقصد بدعوى القسم هي الدعوى التي يقسم فيها كل من الطرفين يمينا دينية على صحة ما يدعيه (الحلف بالآلهة على صدق ما يدعيه)، أما دعوى الرهان فهي الدعوى التي تلزم كل من الطرفين بإيداع مبلغ من المال للخزانة العامة (كفالة) بحيث يفقد الطرف الذي يخسر الدعوى المبلغ الذي أودعه (إذا خسر الدعوى يذهب المبلغ الذي أودعه لخزينة الدولة).

← دعوى تعيين قاضي أو محكم: وقد حدد القانون هذه الدعاوى في ثلاث حالات:

→ قسمة المال الشائع

→ قسمة التركة

→ تنفيذ التزام تعاقدي شفهي

- **القسم الثاني؛ الدعاوى التنفيذية: وهي تهدف إلى تمكين صاحب الحق من الحصول على حقه إذا كان محكوما له، وتنقسم إلى:**

← دعوى إلقاء اليد : ومضمونها هو إعطاء الحق للدائن بأن يقبض على مدينة بنفسه بعد ستين يوما من صدور الحكم بالدين ويكون له حرية التصرف فيه (ضبط وإحضار لتنفيذ العدالة).

← دعوى أخذ رهينة: وهي الدعوى التي تخول للدائن الحق في الاستيلاء على جزء من أموال المدين واحتجازه كرهينة لديه حتى يستوفي كامل دينه، دون أن يكون له الحق في تملك هذا المال المحجوز أو بيعه.

٢. مسائل الأحوال الشخصية:

وهي المسائل المتعلقة بالأهلية والأسرة، فقد عالجتها نصوص هذه المدونة في اللوحان الرابع والخامس، حيث تناولت فيهما ما يتعلق بنظام القوامة على السفيه والمجنون، وأحكام الوصاية على النساء والقصر بعد وفاة رب الأسرة وتناولت المدونة نظام الزواج والطلاق ومسائل الميراث ونظام السلطة الأبوية المطلقة (النظام الأبوي).

٣. نظام الملكية والأموال:

تم معالجة هذا النظام من خلال اللوحين السادس والسابع من المدونة، وهي تقرر أن الملكية ملكية فردية تنقسم إلى أموال منقولة وأخرى ثابتة عقارية. وحصرت مصادر الالتزامات في العقود الشكلية وبعض الجرائم الخاصة، أهم هذه العقود عقد الاستدانة وعقد القرض القديم وهو عقد ينشأ التزاما على جسم المدين أو أحد أفراد أسرته بحيث يقوم المدين ببيع نفسه لدائنه ويحتفظ الأخير بالمبيع كرقيق عنده لفترة زمنية حتى يستوفي الدائن حقه.

٤. نظام الجرائم والعقوبات: وقد تناولتها الألواح من الثامن إلى الثاني عشر وقد قسمت الجرائم إلى نوعين:

← الجرائم العامة: هي التي تضر بالصالح العام (الاعتداء على الديانات أو الخيانة العظمى)

← الجرائم الخاصة: وهي التي تضر بالفرد (جريمة السرقة) مع تقسيم هذه الجريمة إلى سرقة بسيطة وسرقة مقترنة بظرف مشدد كارتكاب السرقة ليلا أو مع حمل سلاح خول قانون الألواح الاثني عشر للمجني عليه حق قتل الجاني (دفاع شرعي)، أما في الحالات البسيطة فيحكم على السارق بدفع غرامة تقدر بضعف قيمة المسروق

وهناك سمات شكلية أخرى تميز بها قانون الألواح الاثني عشر، وفي المجمل كانت هذه المدونة تحوي منظومة تشريعية شاملة ورسمية وضعتها لجنة من اثني عشر فقيها قانونيا تبادلوا الأفكار والآراء والخبرات، واستعانوا بكثير من قواعد الفقه الكنسي، وهذا الفقه الكنسي هو عبارة عن الآراء والأحكام الدينية التي يصدرها رجال الدين بشأن معاملات الناس وعلاقاتهم، فيما يخص الحلال والحرام، وهي تقابل في الحضارة العربية فقه الأئمة الأربعة؛ الشافعي وابن حنبل وأبو حنيفة ومالك. هذا الفقه الكنسي ذا طابع ديني أي أنه وقائي أكثر منه عملي، بمعنى أنه يتناول أحكام الحلال والحرام والثواب والعقاب الأخروي على سلوكيات أفراد المجتمع، وبالطبع هذا الفقه لا تتم صياغته في كود موحد أو مدونة رسمية محددة بنصوص ومواد قانونية، وإنما هو محض آراء لكبار رجال الدين بشأن الثواب والعقاب الأخروي، ولا شك أنها امتدت إلى بعض الأحكام الدنيوية أيضا، فكما أنها تقرر أن السرقة حرام، فهي أيضا تقرر على السارق عقوبة دنيوية كعامل ردع لأن تقرير الحرام والثواب والعقاب الأخروي لن يكون كافيا لتنظيم حياة المجتمع خصوصا أن درجات الإيمان تختلف من شخص لآخر والأديان كذلك تختلف من شخص لآخر، فالعقوبة الدينية غير كافية لتنظيم حياة المجتمع ومن هنا نشأت الحاجة لسن نظام تشريعي ينص تحديدا على تنظيم المعاملات المدنية وتنظيم طرق التقاضي وإجراءاته وتنفيذ الأحكام وهكذا.

وبمقارنة هذه الحضارات مع الحضارة العربية سنجد أن الحضارة العربية في قمة ازدهارها حتى لم تعادل الحضارات الأخرى وقت انحطاطها الفكري والقانوني، إذ أن الحضارة العربية لم تتبنى نظاما قانونيا وإنما اعتمدت كليا على الفقه الديني وأقاويل الفقهاء وآراءهم المختلفة والمتناقضة دون ضوابط قانونية وقضائية لطرق التقاضي وتنفيذ الأحكام. كان الرومان لديهم مجلسا تشريعيا هو مجلس السيناتوز، ويختص بوضع النصوص القانونية وضوابط صياغتها، بينما العرب لم يعرفوا هذا الفن من الأساس ذلك ببساطة لأن التنظيم القانوني هو شغلة السياسيين، بينما العلم والفقه فهو شغلة عامة الناس ممن يهون البحث والاطلاع ولديهم فضول معرفي، وفكرة القانون ذاتها فكرة سياسية بالأساس تأتي لتنظيم حياة المجتمع ومعاملاته، وكلما كان هناك تنظيم سياسي قوي كان مكافئا له تنظيم قانوني أقوى. وخلال حقبة الحضارة العربية كان السياسيين من الجنس العربي فجاء تنظيمهم القانوني من جنس سياستهم التي اتبعوها في حكم البلاد، فالعرب كانوا يمارسون السياسة فقط في البلاد التي احتلوها ولم يخرج عالم واحد من جنس عربي وإنما مسلمين من أجناس أعجمية، سواء كان فقهاء الدين أو علماء الفيزياء والكيمياء وغيرها، بينما كان السياسيين جميعهم من الجنس العربي، وبما أن القانون هو صناعة سياسية بالأساس فقد جاء التنظيم القانوني لدولة العرب بلون سياستهم سواءً بسواء. فالتنظيم العسكري والتنظيم القانوني هما أدوات السياسة في كل شعوب العالم وعلى مدار التاريخ، وكلاهما يرسم وجه السياسة في كل دولة. وجميع الحضارات القديمة قامت على تنظيمات قانونية واضحة وقومية، بينما قامت حضارة العرب على غابة من الاجتهادات الفقهية برغم أن هذه الشعوب القديمة لم يكن لديها مصدر للقانون سوى أعرافها وخبراتها البشرية، في حين أن العرب كان لديهم أعظم مصادر التشريعات في التاريخ ومع ذلك لم يفكروا في استغلالها في وضع منظومة قانونية.

وبالنظر إلى التحليل السابق للنسيج الذهني العربي، وقدمنا فيه نموذجا شبيها من الأنسجة النباتية هو فصيلة النباتات الزاحفة والزاحفة المتسلقة بأنواعها، وعرفنا أن هذه الفصيلة من النباتات الزاحفة تظل زاحفة وتتمدد أفقيا فقط دون نموٍ رأسي، وعرفنا أن سبب ذلك هو خلوها من النسيج الدعامي أو نسيج الخشب والذي يمثل عنصر الصلابة الوحيد في النبات ويمنح خلاياه القدرة على التساند على بعضها بعضا والنمو رأسيا فتتكون للنبات أفرع وأغصان وسيقان قوية ولهذا يتركز مجموعها الخضري إلى أعلى ويظل ينمو رأسيا ويتطور بصورة مستمرة اعتمادا على السيقان القوية التي تحمل كل هذا المجموع الخضري، بينما النباتات الشوكية الزاحفة تفرش أغصانها أرضا

وبشكلٍ عشوائي ولا تنمو رأسيا إلا متسلقة على سيقان غيرها... وهكذا كان نسيج العقلية العربية، نسيج بري زاحف ومتسلق ويفتقد للدعامات الرأسية التي تشكل العمود الفقري والهيكل التنظيمي لكل كائن.

وبما أن لدينا معطيات هي؛ أن النظم القانونية هي صناعة سياسية في الأساس، ومن يتقدم في السياسة يتقدم في صناعة القانون، كما الرومان قدموا للعالم تركة قانونية وتشريعية مثلت فنارا تشريعيا للحضارة الحديثة، وفي الوقت ذاته توصلوا لأفضل نظام سياسي في العالم وعلى مدار التاريخ وهو نظام الديمقراطية الذي يحقق عدالة مطلقة ومباشرة، ولم تقم ثورة في بلادهم إلا عندما أعلن يوليوس قيصر نفسه ديكتاتورا على البلاد. وأما المعطى الثاني فهو أن الحضارة العربية قامت على عنصرين عقليين؛ الأول العنصر السياسي والهيكل التنظيمي للدولة وكان من اختصاص العرب فقط ومن قريش وحدها. وهذا العقل السياسي فوضوي بالأساس ويعتمد على التوسع والانتشار الأفقي دون أي ارتقاء رأسي لأنه يفتقد الدعامة والهيكل التنظيمي لأن نبتته برية أدبية وزاحفة أفقيا، بينما كان العقل العلمي والفقهي أعجمي وليس عربي، وكان تابعا وخاضعا للسياسة العربية وليس رائدا لها.

وحتى النظام الإداري في الدولة العربة لم يعرف له أي ملامح، لأن شرعية الحكم كانت قائمة منذ البداية على (السيطرة وليس الإدارة) وكان الخليفة يستمد قوته من قدرته على السيطرة وليست كفاءته في إدارة الأزمات، وغالبا ما كانت السيطرة بالقتل والذبح والاغتيالات، ولهذا جاء النظام الإداري مهلهلاً بذات الطابع، وقد ظهر ذلك واضحا جدا عند بادية تفكك الدولة العباسية في القرن الثالث من عمر الدولة، إذ بدأت كل مقاطعة في الاستقلال عن الخلافة، بل إن أحمد ابن طولون بدأ الاستقلال بمصر مبكرا في القرن العاشر ميلادي، لأنه أدرك في الواقع أن الأمر لم يعد إلا تحصيل للجزية من الولايات، فرفض دفع الجزية للخليفة العباسية، وكان هذا هو استقلال إيجبت تماما وكليا عن دولة الخلافة العربية العباسية الإسلامية، وتتابعت الاستقلالات بعد ذلك في كافة الولايات، وتفتت دولة الخليفة إلى ما يزيد عن ١٢ دويلة، وفي المقابل النصف الأقصى من الدولة العربية في الأندلس تفتت بذات الطريقة، دون قدرة من الخليفة على إدارة المنظومة، لأنه لم يكن هناك منظومة من الأساس مقارنة بدولة الجبتيين والبابليين والرومان والإغريق وغيرهم، بل إنهم منذ البداية عندما بدأ عمر الخطاب في تأسيس دولة اقتبس من الخارج كل الأنظمة الإدارية جاهزة،

فصارت دولة العرب كمن يقترض قرضا لبناء مشروع عملاق، وبعدما بنا بالفعل المشروع لم يستطع إدارته فتوقف فور اكتماله، ولأنه مال حرام منذ بدايته، نهبه هولاكو بكل سهولة.

والخلاصة أن العقل السياسي كان عربيا محضا، وبما أنه من نوعية أنسجة النباتات الزاحفة والمتسلقة فهو لا يملك هيكل دعامي تنظيمي، وبما أن صناعة القوانين والتشريعات هي صناعة سياسية، ولهذا جاء النظام القانوني العربي من جنس النظام السياسي العربي. وكما عرفنا في الإضاءة السابقة من منظور سياسي وإداري أن النظام السياسي العربي قام على الخلافة بالوصية وبالوراثة وبالذبح والعصبية القبلية، فجاء النظام القانوني والإداري من جنسه تماما. ولهذا خرجت الحضارة العربية من موسم الحصاد دون عمود فقري، لأن النظام القانوني القوي هو العمود الفقري لكل دولة، فبرغم أن العرب قاموا بمئات الثورات ضد بعضهم البعض، ولا نكون مغالين إذا قلنا بأنه لم تكن هناك قبيلة لم تقم بثورة على الحكم سواء نجحت ثورتها أو أجهضت، فنحن نجد العديد والعديد جدا من الثورات وحركات التمرد والانقلابات والاغتيالات ولا يمكن أن نلمح أي طيفٍ لنظامٍ سياسي ذو ملامح واضحة، فكل خليفة وضع نظامه على مقاس جلبابه. وهكذا القوانين والتشريعات؛ كل إمامٍ وكل شيخٍ وضع مذهبه بمقاس جلبابه الفضفاض، وانزوى كلٌ منهم في ضيعة مستقلة ليترامى حوله المريدين والمعجبين.

فقد قامت الحضارة العربية على فقه الفقهاء الأربعة وكتاب السنن والمرويات، قامت في أغلبها على الثقافة الأدبية وتحديدا العلوم الشرعية وأهملت جانب العلوم الطبيعية ونبذته تماما عدا خليفة واحد من العباسيين استمر ٢٢ عاما فقط، رغم أنه كان دمويا كعادة العرب وأوقع مذبحة بشعة ليتخلص من شقيقه ويقتله، وعلى المسار الموازي للعلوم الطبيعية، لم يهتم العرب بالنظم القانونية (باعتبارها من علوم الدنيا عديمة القيمة، لأن هذا الكائنات لا تحاج إلى عمود فقري، فهي ليست كغيرها من الحضارات بطبيعة الحال)، وكما سبق وأوضحنا أنه ليس هناك حضارة بشرية تقوم دون منظومة قانونية دقيقة تنظم معاملات الناس وعلاقاتهم، فالقانون المصري الحالي يتشكل من خمسة ملايين نص قانوني لتنظيم حياة الناس، منها ما له أصل في الشريعة ومنها ما هو إجرائي وإداري وتنظيمي أي يخضع لمقتضيات مصالح الناس، بينما العرب في أوج حضارتهم لم يعرفوا القانون أصلا، فلم ترق الدولة العربية إلى مجرد التفكير في تشكيل مجلس تشريعي كما فعل الفراعنة والرومان لوضع مثل هذه المنظومة، ولم يرق احتياج العرب إليها وأهملوها في أغلب الأحوال، لدرجة أننا لا نجد في المكتبة العربية على مدار تاريخها ما يمكن تسميته بالمعرفة القانونية، ولم يظهر فيهم

ولو شخصا واحدا يتخصص في علم القانون وصياغة النصوص القانونية ويتفقه في العقود، كما كان الحال في حضارة بابل القديمة والحضارة الفرعونية، والحضارة الرومانية التي أنتجت مدونة الألواح الإثنى عشر.

وبالطبع هذه المدونة نهلت الكثير من آراء الفقه الكنسي لكنها كانت منظومة قانونية قائمة بذاتها وجسدها وصالحة للتطبيق في المحاكم. بينما العرب لم يكن لديهم أي خلفية عن هذا النوع من العلوم، واكتفوا بمسائل الفقه الديني، حتى أنهم لم يرق فكرهم لتجميع مدونة قانونية من كتب الفقه لوضعها كقانون عام للدولة، فالدولة على الأقل تحتاج إلى قانون إداري وقانون إجراءات وهو غير موجود بالفقه الديني، وإنما بقي الأمر فوضويا بين رجال الدين وفقهاء المذاهب، ففي فترة نجد السيادة لكتب الفقه الشافعي، فيصدر أمر الخليفة باعتماد كتب الفقه الشافعي مصدرا للقضاء دون حتى تحديد النصوص واجبة التطبيق وإعلان العامة بها قبل تطبيقها عليهم، بل تترك للقاضي سلطة الاختيار بين الآراء المتناقضة وبعضها البعض، وأن يشرحها ويطبقها وفق فهمه هو دون ضوابط.

ثم بمرور الزمن ينقلب الخليفة أو السلطان ضد مشايخ الشافعية، فيتحالف مع مشايخ المالكية ويجعل لهم السيادة في القضاء فيصبح فقه المالكية هو المعتمد دون وضع نصوص قانونية أيضا، وعلى القاضي السياحة في كتب الفقه والآراء المتضاربة ليستقر على رأي يراه هو ملائما للحالة. ثم بمرور الوقت يحدث تحالف بين السلطان أو الخليفة وشيوخ المعتزلة، فيرفع الحجاب عن غيرهم من المذاهب ويعتمد المعتزلة كمصدر للقضاء وهكذا. والغريب أنه لم يكن يوجد استئناف ولا رد لحكم القاضي إن أصدر حكمه باجتهاده الشخصي، أي إذا وجد نص في القرآن فعليه تطبيقه وإن خالفه يكون من حق المتظلم اللجوء إلى الاستئناف، أما إن لم يوجد نص واضح وصريح في القرآن وصدر حكم القاضي وفقا لاجتهاده، فلا يكون هناك حق استئناف حتى وإن أخطأ القاضي ! بحجة أن الاستئناف سيكون أيضا باجتهاد القاضي، ولا يجوز اجتهاد على اجتهاد حتى وإن خالف العدالة، إنما الاستئناف يكون فقط إن خالف نص ديني واضح وصريح. برغم أن فكرة الاستئناف القضائي تقوم لغرض استدراك خطأ القاضي الشخصي.

وهذا ما يعني أن العرب لم يضعوا في اعتبارهم أهمية العدالة وقيمتها في المجتمع، وإنما فقط ركزوا على استقرار السيادة لهم وركز الفقهاء على احترام النص الديني. بغض النظر عن العدالة. بل إن العرب لم يفكروا أصلاً في وضع منظومة قانونية (كود قانون أو مدونة قانونية) وتركوا الأمر

فوضويا بين المذاهب وآلاف من كتب الفقه المتناقضة، بل إن بعض الفترات كان النظام فيها رباعيا، بمعنى أن يكون حكم القاضي حسب مذهبه، فإن كان شافعيا حكم بالمذهب الشافعي، وإن كان حنبليا حكم وفق المذهب الحنبلي، وكل متقاضٍ وحظه مع القاضي وحسب مذهبه. !

لم يفكروا في وضع كود للقانون سوى في عهد الدولة العثمانية، فأول كود قانوني يظهر في تاريخ العالم الإسلامي كان هو مجلة الأحكام العدلية التي أصدرها السلطان العثماني سليمان وفقا للمذهب الحنفي، وهي أول مدونة أو كود قانون يصدر في التاريخ يكون مصدره الشريعة الإسلامية، ولذلك احتفلوا به كثيرا ولقبوه بـ"سليمان القانوني" ثم بدؤوا بعدها الاطلاع على الثقافة القانونية الرومانية القديمة، وبدؤوا يتعرفون على صناعة القانون وفنون الصياغة القانونية.

فالقانون غايته تنظيم معاملات الناس بما يحقق ضمانات العدالة ويمنع وقوع الضرر، والعدالة هي من الطبائع البشرية للمجتمع وغالبا ما تتم بذات الطريقة وتتحقق العدالة سواء كان المجتمع مسلم أو غير مسلم، فالبحث عن العدالة هي فطرة الله في الإنسان، والإحساس الفطري بالعدالة هو ما يساعدنا على فهم النص القرآني على الوجه الصحيح. أما فكرة الحلال والحرام فليست تنظيم قانوني، وإنما حكم عام علي الواقعة بما إذا كانت مباحة أو محظورة شرعا، لكن في حال كونها مباحة فهي مازالت تحتاج إلي تحقيق قانوني واقعي لتحري الدقة في كيفية ممارستها وحساب الالتزامات المترتبة عليها.. فإذا اختلف شخصان حول حادثة ما وكل منهما يتهم الآخر بالتسبب في الخطأ، فكيف يكون الفصل بينهما؟ ومن الذي يلتزم بالتعويض؟ إن قاعدة الحلال والحرام لن تفصل في الموضوع هنا لأن الأمر يدور حول إثبات أي من الشخصين الذي ارتكب هذا الحرام، فكل منهما يتهم الآخر.. هنا دور القانون وأدلة الإثبات القانونية.

فهناك فرق شاسع بين مهمة القاضي ومهمة المفتي. وصدور قرار من المفتي لا يعني صدور حكم بالعدل بين الناس، بل هو فصل بين ما يفعله الناس وما ينبغي أن يفعله الناس، ومن هنا ارتكزت مهمة الفقهاء في جانب الفتوى أكثر من الجانب القانوني، فالتراث القانوني الروماني أكثر غزارة وسعة وأعمق فهما لطبيعة معاملات الناس من تراث الفتاوى الإسلامية التي قد نجدها في المذاهب، وهي في حقيقتها بحث في جانب الحلال والحرام مع إضافة بعض لمسات قانونية تقتضيها ضرورة البحث في الحلال والحرام لكنها جاءت مشوهة للغاية، لأن الغرض لم يكن من الأساس هو البحث عن العدالة ولكن البحث عن تطبيق النص الديني، ولذلك ليس لديهم تنظيم قانوني محدد يلتزم القضاء بتطبيقه،

وإنما لكل قاضٍ مذهبه وله الحرية في تطبيق النص الذي يختاره هو. بينما فقهاء القانون الروماني رغم أسبقيتهم زمنيا إلا أنهم أبدعوا في صياغة نصوصهم القانونية ودساتيرهم ومدوناتهم بصياغة قانونية احترافية، واستفادوا كثيرا من قواعد القانون الكنسي ليس فقط في الحرام والحلال ولكن من بعض القواعد العدلية التي أرساها الفقه الكنسي.. أما الدولة العربية فلم تصل لذات المرحلة من الرقي والتحضر ما يدفعها إلى الحاجة لتشريع قانوني، فكانت إلى الفوضى أقرب، ولذلك اقتصر دورها علي اجتهادات الفقهاء الدينية دون أن يكون لهم متخصصين في سن وصياغة التشريعات والقوانين، إلا في عهد الدولة العثمانية وسليمان القانوني، فالعرب لم يعرفوا القانون ولا النظام بوجهٍ عام.

وفي القرن السادس الهجري، ثاني عشر ميلادي، وهو القرن الذي وانهارت فيه الدولة العربية، بدأت دولتهم تتعرف علي نظام الدعوى القضائية (قانون الإجراءات)، وبدأ الفقهاء يتناولونها بالشرح والفهم ويمدحون هذا النظام، وكانوا لأول مرة يتعرفون عليه ويكتبون فيه بانبهار، في حين أننا عندما نقلب صفحات التاريخ، نعود إلى أكثر من ألفي عام إلى الوراء، سنجد أن العرب اقتبسوا فنون القانون من الرومان القدامى الذين ابتكروه قبل ألفي عام، وسنجد الحضارة الرومانية قد عرفت نظاما قانونيا وقضائيا بالمعنى العصري الحديث، وعرفت نظام الادعاء العام (البريتير = النيابة العامة) وعرفت نظام الدعوى والدعوي المباشرة والدعوى غير المباشرة (الدعوي البوليصية) وعرفت نظام التأمين التجاري والتأمين البحري، وعرفت ونظام الوكالة التجارية والوكالة البحرية، وكان لديها ترسانة قانونية دستورية وتشريعية، بينما العرب اكتفوا بالاجتهادات الفقهية لرجال الدين المتناثرة في الكتب دون نظام.

وبعد مرور ألفي عام كاملة جاؤوا ليتعرفوا على نظام الدعوى القضائية وهي جزء بسيط جدا من النظام القانوني والقضائي الروماني الذي سبقهم بألفي عام، ما يعني أن العرب تأخروا كثيرا جدا في عمر الزمن، وحتى أشرفت حضارتهم على السقوط والانهيار بدؤوا يلتقطون شظايا من فنار المنظومة القانونية المتطورة التي بدأها الفراعنة والبابليون والرومان منذ العصور القديمة ! فبوجه عام لم يكن العرب يحبون الترجمة والنقل من الحضارات الأخرى باعتبارها حضارات كافرة ! لدرجة أن هذا الفقيه كتب ليتغزل في نظام الدعوى القضائية ويتعرف إذا ((ما كانت خاصة بالمجتمع الإسلامي دون غيره من المجتمعات الأعجمية!))، ولم يستوعب أن وسائل الحياة وتنظيم مصالح المجتمع هي ذاتها في كل الشعوب البشرية. كان العرب يشعرون بنوع من النرجسية وكأنهم لمجرد كونهم مسلمين فهم غير البشر. حتى لم يعترفوا لبشرٍ غيرهم بحق الحياة إلا أذلاء خاضعين للعربي تحت سيف الجزية !

ثم في العصور اللاحقة، بدأ الفقهاء يستوعبون معنى القانون ومعنى نظام الادعاء القضائي أي نظام الدعوى القضائية وكيفية طرحها أمام القاضي وكيفية التحري وتقديم دليل الإثبات، وعلى من يقع عبء الإثبات، وفي هذا الصدد يقول الإمام أبي عبد الله عبد الرحمن البخاري (وهو من مشايخ صاحب الهداية وتوفي سنة ٥٤٦ هجرية) ويعتبر أشهر كتب الأحناف كتاب الهداية " بداية شرح المبتدي للإمام المرغناني وفي كتاب محاسن الإسلام وشرائع الإسلام، يقول: (هذا يعد فنا جديدا من كتابة الفقه الإسلامي).. ويتحدث هذا الكتاب عن نظام الدعوي القضائية في الإسلام وهل هذا النظام معروف في الأمم والديانات الأخرى أم اختص به للإسلام وحده !، ويتحدث الإمام عن محاسن الدعوي القضائية بنوعٍ من الغزل الأدبي كمدخل لدراسة عبء الإثبات! فيقول: الحُسن في الدعوى أنها سبب لإخراج ذي اليد من فساد الحرام، فإن الدعوي طلب من المدعي قصر اليد عمّا يجب قصره وهو إثبات اليد علي ذلك مصرّ علي المعصية، فإن ادعى مالا عليه دينا فهو في زعمه مماطل ظالم، وإن كان عينا فهو في إمساكه غاصب غالب، وإن كان عقارا فهو من سبع أراضين طوقه يوم القيامة، وذلك علي ما قاله عليه السلام " من غصب شبرا من أرض طوقه الله تعالي من عنقه من سبع أراضين يوم القيامة " وفي زعم المدعى أنه يخرجه بالدعوي من هذه المهالك ويزعجه عمّا أصرّ عليه من الحرام، علي هذا أصل الدعوي بحكم العقل والدين فأنها إخبار أن ما ادعي كما ادعي، وأن حقه الظاهر هو الصدق بمقتضي العقل والدين، فإن أجابه المدعي عليه بالتصديق فقد وافقه وانقطعت الخصومة، فأمر بالتسليم ودفع الظلم، وإن أنكر ذلك فقد عارض الدعوى بدعوي، فإنه إذا قال هذه العين لي أو مال ليس لك عليّ شيء فهذا أيضا دعوى، فقد تعارض الدعوى بالدعوى، فلو تركا على ذلك طالت المنازعة، فإن المدعي يقول أنا الصادق والمدعي عليه يقول مثله، فلا بد حجة ترجح قول أحدهم فيرجح إما البيّنة من المدعى أو اليمين من المدعى عليه، وهذا عين الصلاح والحسن في الدعاوى. وإن كانت الدعوي في النفس بأن ادعى نكاحا علي امرأة أو قصاصا علي رجل أو حد قذفٍ فهو في الحقيقة يطالبه ليستخرجه من نار جهنم، فإذا أقرت أمرت بطاعة الزوج واستراحت عن ظلمة النشوز وحرمان ثواب طاعة الزوج، إذ في طاعته طاعة لله تعالى، وإن أنكر فأقام الزوج البيّنة الصادقة على دعواه فقد صانها من تلف العصيان وعن هلاك الزنا، وإن كان الزوج كاذبا وقد أقام البيّنة وقضى القاضي بالبينة كان القضاء إنشاء للعقد المشروع دفعا للنزاع فكان صلاحا محضا، فكيفما دارت القصة كانت الدعوى صلاحا، لكن الأولى في الأموال ترك الدعوى وإن كان محقا، وقال النبي: "دع المراء وإن كنت محقا"..إلخ.

كان الفقيه يتحدث وكأنه يتغزل في أحدث مكتشفات عصره، فلأول مرة يرد ذكر مصطلح قانوني متخصص مثل مصطلح (دعوي ـ عبء الإثبات) ويصف الكاتب هذا التخصص القانوني بأنه ((فن جديد)).. برغم أن الرومانيين وضعوا أسسه منذ ألفي عام مضت.. وقبلهم البابليين بثلاثة آلاف عام ! وقبلهم الجبتيين بأربعة آلاف عام!.. له الحق أن يفتخر باكتشافه لهذا الفن الجديد!!. فالعرب لم يعرفوا صناعة القانون والنظام، وتركوا الأمر بيد الفقهاء وهم ليسو رجال قانون، لدرجة أنهم تعثروا في أبسط قواعد الإثبات، وأكثرها بديهية، وذلك بسبب استغراق الفقهاء في النص الديني وانفصالهم عن الواقع، ومثال على ذلك؛

١- <u>قواعد الإثبات</u>

قاعدة البينة علي المدعى؛ وهى قاعدة قانونية أصلية نشأت منذ القدم في القانون الروماني، منذ أن بدأ البريتير يحمي الحيازة الظاهرة (الملكية بالوضع الظاهر) وعندها قرر تحميل عبء الإثبات علي من يدعي خلاف الظاهر، أما في القانون الفرنسي فلم تظهر هذه القاعدة إلا في العصور الوسطي خلال مرحلة إحياء القانون الروماني القديم، ووردت قواعد أخرى مشابهة لها مثل ـ من الطبيعي أن المنكر لا يطلب منه دليل ـ إذا عجز المدعي عن البيّنة برئت ساحة المدعى عليه ـ إذا عجز المدعي عن البينة ظفر المدعى عليه وإن لم يدل بشيء إذا عجز المدعي عن الإثبات فليس ينقصه الحق ولكن ينقصه دليل الحق فقط ـ من ادعى وقوع حادث فجائي فعليه إثباته ..إلخ.

أما عند العرب فقد وردت هذه القاعدة عن قس ابن ساعدة وأقرها الرسول الكريم عندما سمعها لأنها ترسي مبدأ أساسيا من مبادئ العدالة، بل قال الرسول تتميما لها: لو يعط الناس بدعواهم لادعى أناسٌ دماء قوم وأموالهم، ولكن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر".. والكارثة كما يقول ابن القيم[٣١] في معني البيّنة وحصر أدلة الإثبات القضائية في شهادة الشهود، يقول: الشارع لم يهمل مثل هذه البيّنة والدلالة، ولا يضيع حقا يعلم كل أحد ظهوره وحجته، بل لما ظن هذا من ظنه ضيعوا طريق الحكم فضاع كثير من الحقوق لتوقف ثبوتها عندهم علي طريق معين، وصار الظالم الفاجر ممكنا من ظلمه وفجوره، فيفعل ما يريد، ويقول لا يقوم عليّ بذلك شاهدان اثنان، فضاعت حقوق كثيرة لله ولعباده..إلخ".

(٣١)ـ ابن القيم في كتاب (أعلام الموقعين الجزء الأول ص ٩٠ و ٩١

والمقصود في كلام ابن القيم بلفظ البيّنة هو دليل الإثبات، أي إذا ذهب شخصان إلى القاضي وكل منهم يدعى حقا له في ذمة الآخر، أو أحدهما يتهم الآخر بفعل جريمة ما أو سرقة مثلا.. وكان الفقهاء المسلمين بسبب تقديسهم للنص الديني وانفصالهم عن الواقع والعدالة، اعتقدوا خطأ أن المقصود بالبينة هو فقط (شهادة الشهود) ! وهذا وضع غريب جدا، لأن دليل الإثبات قد يكون أي شيء يدل على فعل الجريمة مثل القرينة والبصمة وجسم الجريمة ذاتها أو أي علامات أو أمارات، لكنهم تركوا الواقع وتركوا الحق والعدالة وقدسوا النص الديني لفظيا، وهو نص الحديث الذي يقول (البينة على من ادعى واليمين على من أنكر"، وكان ذات مرة عرض على النبي الفصل في نزاع بين شخصين فطلب النبي شهادة الشهود، فاعتبر الفقهاء بذلك أنه ليس هناك أي دليل في الكون يمكن قبوله إلا شهادة الشهود ! وعلى هذا الأساس حكموا بين الناس وأهدروا العدالة والحق بينهم بالفقه ! مثال؛ إذ سرق شخص منزل آخر، فلا يمكن إثبات تهمة السرقة عليه إلا إذا شاهده شخصان آخران غير الشخص صاحب المنزل المسروق، حتى ولو كان السارق بيده المسروقات ! وحتى ولو ظهرت أدلة تحتم فعل السرقة، فلا يمكن قبول أي دليل سوى شهادة الشهود، أي مطلوب من صاحب المنزل إذا شاهد اللص أن يهرع في الشوارع للبحث عن شخصين عدول لكي يشاهدوا فعل السرقة ويتقدموا بشهادتهم معه للقاضي كي يقبل القاضي دعواه، وإذا لم يتمكن من العثور على شخصين يشاهدا واقعة السرقة فلا حق له !) وهذا ما يتحدث عنه ابن القيم ويقول أن اللص كان يسرق وهو مطمئن بعدم اتهامه وعدم إثبات التهمة عليه طالما لم يره شاهدان وهو يرتكب فعل السرقة.. وهذا كلام غريب يدل على أن العقلية الفقهية انحدرت بالفكر القانوني إلى مستوى لا إنساني، مستوى يعبر عن انهيار الفكر والعقل والمنطق تماما، فكانوا عاجزين عن أدراك العدالة لتقديس النص حرفا ولفظا وهذا يدل بلا شك على انغلاق الفكر إلى أدنى المستويات الذي لا يتصور معه أن تكون هناك حضارة أصلا.

وجاء في الفقه شرح معنى البينة: جمهور الفقهاء على رأيين؛ الأول قصر البينة وأدلة الإثبات علي شهادة الشهود، والثاني: يرى أن البينة تشمل كل حجة ودليل وبرهان يفيد في الإثبات.. والقصر هنا مخالف لكل ما ورد بكتاب الله وما وافق فقط لحديث مرفوع في واقعة محددة، وهنا يتضح ضيق الأفق واعتماد المرويات وتغليبها علي البحث في كتاب الله، فالإثبات في واقعة سيدنا يوسف كان بالقرينة وليس بشهادة الشهود، حيث قد قميصه من دبر وليس من الأمام، واتخذ ذلك قرينة على أن امرأة العزيز هي التي جذبته من الخلف ولم يهاجمها هو، فهذه قرينة دالة عقليا وماديا ومنطقيا دون شهادة شهود، لكنهم لم يقرؤوا كتاب الله واعتمدوا على مرويات حديث مرفوع).. فرد عليهم ابن القيم

بأن البيّنة لم تأت في القرآن مرادا بها شهادة الشهود، وإنما أتت مرادا بها الحجة والدليل والبرهان مفرده ومجموعه. (هذه لمحة بسيطة عن طبيعة النقاشات الفقهية ونقاط الخلاف بين المذاهب !)

٢- العقوبات الجنائية:

نطرح هنا المثال الذي ذكرناه سابقا من كتاب الموطأ للإمام مالك، الذي واطأه عليه سبعين من فقهاء المدينة، تضمن عقوبة غريبة من نوعها لجريمة الاغتصاب، فلم يفكر مالك عند وضع العقوبة في الحقوق الإنسانية، ومن ثم حرمة الاعتداء عليها، فقط فكر في الحلال والحرام فقط؛ وتعامل مع الإنسان المرأة التي تعرضت للاغتصاب باعتبارها "مال" أو قيمة مادية بحتة بلا أي قيمة إنسانية، فقد فرق بين حالتين عند معالجة جريمة الاغتصاب، الحالة الأولى إذا كانت المرأة المغتصبة حرة أم أمة (عَبْدَة مملوكة لسيدها)، فقرر أن الرجل الذي ارتكب جريمة الاغتصاب عليه الحد (مائة جلدة وهي عقوبة الزنا) ثم يضاف إليها قيمة مهر الحرة التي اغتصبت (مهر واحدة من مثيلاتها من السيدات)، أما إذا كانت جارية أي عبدة غير حرة، فإن الرجل الذي اغتصبها يكون عليه الحد بالإضافة إلى قيمة (ما نقص من ثمنها) !!، وبالطبع هنا فإن هذا المبلغ يعود إلى سيد هذه الأمة الذي يملكها لأنه هو المتضرر من نقصان ثمنها في السوق، وهو الذي يقرر مقدار النقص في ثمنها، فإذا كانت بكرا، فسيكون ثمنها في السوق أغلى من ثمن الثيّب، وفي كل الأحوال يضاف على المغتصب دفع قيمة ما نقص من الثمن أو قيمة مهر المثل إن كانت حرة.

لم يفكر الفقيه في الإنسانية التي تم اغتصابها عنوة وهتك عرضها وإهدار شرفها وكرامتها، فقط قرر لها أن تقبض ما يعادل قيمة مهرها إن كانت حرة أو يقبض سيدها ما نقص من ثمنها إن كانت عبدة.. أما المجرم الذي اغتصب جنسيا وهتك العرض، فلا عقوبة عليه تفوق حد الزنا إلا قيمة المهر!. والزنا في الأصل هو جريمة مشتركة بين رجل وامرأة بإرادتهما ورغبتهما معا، فتكون عقوبتهما مائة جلدة كما جاء بكتاب الله، أما الاغتصاب، فقط يختلف عند مالك عن الزنا في أنه يضاف على المجرم المغتصب ألف جنيه مثلا إذا كان مهر المغتصبة يعادل هذا المبلغ ! أو يضاف مائة جنيه إذا كانت المغتصبة ينقص ثمنها في السوق بقيمة هذا المبلغ، وقد يكون لا شيء لأن الأمة قد لا تكون بكرا أصلا وبالتالي فلن ينقص ثمنها في السوق.. وأيد هذا الرأي الفقيه الشافعي. أما أبو حنيفة والثوري فقالا الحد فقط، أما المرأة فلا حق لها سوي ما قد يعادل مهرها أو ما نقص من ثمنها، بمعنى أنها لو كانت امرأة

عجوز مسنة، فطبيعي أن يكون مهرها قليل، وبالتالي تنحصر حقوقها نتيجة اغتصابها وهتك عرضها فقط بحدود قيمة مهرها ! .. هكذا قال الإمام مالك ووافقه سبعين من أهل المدينة.

للأسف تجاهل الفقهاء حجم الضرر القاتل الذي وقع على المرأة، فقرر بعضهم أن تقبض ما يعادل مهرها وقرر آخرون لا شيء لها ! وبعضهم قال بأن عقوبة الزنا هي ذاتها عقوبة المجرم المغتصب ! والغريب في من قرر أن لها قيمة مهرها كتعويض عن الضرر، أنهم تغافلوا أن المرأة إذا رغبت الزواج بإرادتها عن قناعة وقبول واختيار العريس وحب ورغبة في الزواج، ستقبض قيمة هذا المهر مع حفل زفاف وهدايا ومجاملات لا حصر لها.. فكيف يتقرر لها قيمة ذات المهر في حال اغتصابها وهتك عرضها؟؟ ففي هذه الحال، ما الفرق بين زواجها واغتصابها؟ ففي كلتا الحالين قبضت المهر! فهل يتساوى الزواج مع الاغتصاب؟ أم أن كلاهما نكاح والاغتصاب كان حراما فجعلناه حلالا بدفع ما يعادل قيمة المهر! وهل تكفي قيمة المهر عوضا عن جريمة الاغتصاب وهتك العرض؟ . للأسف الشديد يكاد يكون هناك إجماع بين الفقهاء على أن عقوبة المغتصب هي حد الزنا مع دفع ما يعادل قيمة مهر المغتصبة، إلا بعضهم قرر عقوبة الزنا فقط.. وهذا ما استقر عليه الإمام مالك في كتابه الموطأ مع السبعين من فقهاء المدينة الذين واطؤه (وافقوه) عليه !

وعند إعادة النظر في هذه المسألة سنلحظ بوضوح أنهم (لن نقول أنهم تجاهلوا حقوق المرأة وقيمتها الإنسانية لأن ذلك أصلا كان من طبيعة المجتمع العربي.. لكنهم تجاهلوا قيمة الواقع وبحثوا حول النصوص فقط، بمعنى أنهم لم يقيموا الموضوع من حيث عناصر الضرر على المرأة، وعناصر الخطر والعدوان الكامنة في شخص المجرم، ليكون الحكم عادلا، هم فقط فكروا في تطبيق النص، والنص يقدم معطيات، هي أن الزنا عقوبته الجلد مائة جلدة، وفي حال الاغتصاب لم يكن للمرأة أي ذنب أو إرادة فاستبعدوا عقابها من الموضوع وبقيت عقوبة الرجل كأساس مائة جلدة، مع أن عقوبة الجلد جاءت للزنا وليس لجريمة العدوان على شرف المرأة، ثم فكروا في الشق الآخر بالنسبة للمرأة (ليس في حقوقها وضررها) ولكن في ما يجعل هذه العلاقة حلال شرعا، فهم فكروا فقط بحمية في حقوق الله فقط، فأهدروا حقوق الله والعباد، فالشيء الوحيد الذي يحلل الاتصال الجنسي بأنثى هو الزواج أي عقد ومهر، والعقد هنا غير ممكن، فحاولوا استدراكه في هذه العلاقة وتحليلها وجعلها حلال بتدفيع المهر ! ولهذا ربطوا العقوبة بقيمة المهر حصريا، أي لو كانت المغتصبة غنية وجميلة فيكون مهرها كبيرا جدا، ولو كانت من البسطاء الفقراء وتم اغتصابها، فتعويضها يكون بقيمة مهرها دنانير حقيرة بحجمها، ولو كانت جارية عبدة، فلا تعويض لها وإنما التعويض لسيدها بقيمة ما

نقص من ثمنها، ولو كانت عجوز مسنة، وتم اغتصابها، فسيكون تعويضها بقيمة أقل لأن المرأة المسنة لا يقبل أحد على زواجها ويقل مهرها بالطبع..

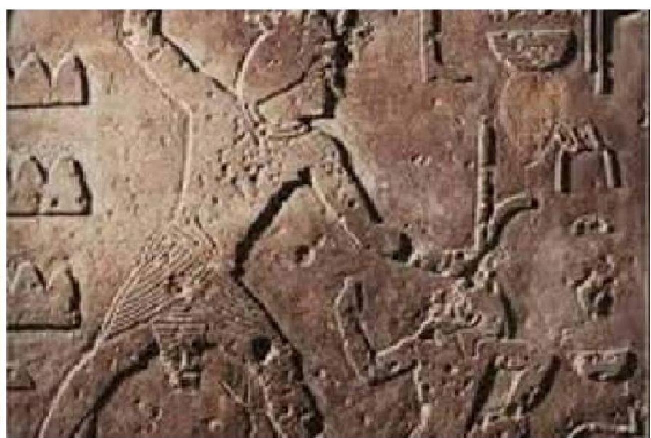
في الواقع هم لم يفكروا في الجريمة والعقوبة والتعويض الكافي الجابر للضرر بأسلوب قانوني عادل، ولكنهم فكروا في ما يجعل هذه الواقعة حلال، وكان الطريق الوحيد أمامهم هو تدفيع المهر !! كي يصبح الاغتصاب وكأنه زواج !! أي أنهم فقط سعوا لتقنين هذه الواقعة الجنسية شرعا وليس لإنزال عقوبة حقيقية أو فرض تعويض عن الضرر، هم فقط فكروا في تحليل العلاقة الجنسية الآثمة، ولم يجدوا لذلك مفر سوى في دفع المهر بما يجعلها وكأنها زواج ! وبذلك أهدروا حقوق الإنسان كلية، ولم يقرروا أي تعويض عادل مقابل جريمة الاغتصاب ولم يقرروا عقوبة رادعة على جريمة الاغتصاب.
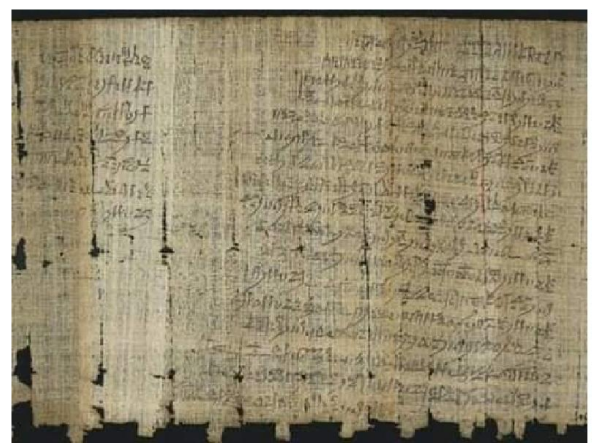
فهم فكروا في الفقه فقط من جانب واحد وهو حدود الله، دون النظر إلى الواقع ومدى ارتباطه أو ابتعاده عن هذه الحدود، فعندما بحثوا في الشرع لم يجدوا سوى عقوبة الزنا وحدها الجلد مائة، وفي النكاح لم يجدوا سوى المهر، ولذلك، اعتبروا جريمة الاغتصاب هي نوع من الزنا بالنسبة للرجل فطبقوا عليه الحد، ورأوها مجرد نوع من نكاح بالنسبة للأنثى فقرروا لها المهر! أما الشافعي فقد اعتبر الاغتصاب هو مجرد زنا ولم يعتبره نكاحا ! ولذلك قرر حد الزنا على الرجل فقط.. أي أنهم بحثوا في حقوق الله دون حقوق العباد، فأهدروا حقوق الله والعباد؛ لأنه لا يمكن إهدار كرامة الإنسان المرأة التي اغتصبت وهتك عرضها عنوة، واختصار ذلك كله في بضعة دراهم تعادل قيمة مهرها، وبالنسبة للرجل لم يقيّموا الحالة الإجرامية داخله، وإنما فقط نظروا للأمر باعتباره زنا أي خرق لحدود الله، برغم اختلاف الواقع كليا عما نص عليه القرآن. وهذا ما جعلهم بعيدين كل البعد عن المنطق والعدالة، ولهذا جاء فقه الفقهاء في أغلبه غير صالح لأن يكون مادة قانونية تحقق العدل بين الناس.

كل هذا العبث الفقهي، برغم أنهم كان بيدهم كتاب الله ! فما بالنا بقومٍ عاشوا آلاف السنين قبل أن ينزل كتاب الله ! تعال معي نتعرف على السيد/ بانيب.. أقدم متحرش جبتي من الأقصر . فقد كشفت بردية جبتية تعود لسنة ١٢٠٠ قبل الميلاد، وتعرف بـ بردية «بانيب» وهي محفوظة في المتحف البريطاني، كشفت عن واقعة تحرش في مدينة طيبة عاصمة إيجبت القديمة، التي تقع حاليًا في مدينة الأقصر. وموقف الجبتيين القدماء الأخلاقي من التجاوزات الجنسية، فقد كانوا يحرمون الزنا أصلا، وبالتالي يصبح التحرش والاغتصاب جريمة أعظم. والبردية تحتوي شكوى ضد

رئيس عمال البناء «بانيب» لارتكابه جرائم «فاسقة» كما يصفها زميله «أميناخت» صاحب الشكوى، على الرغم من كفاءته العالية في فنون المعمار وبناء المقابر الملكية. وجريمة «بانيب» الأكبر كانت التحرش بامرأة تدعى «يمينواو» لدرجة نزع ملابسها وانتهاكها عند أحد الجدران، وقد شهد ابن «بانيب» بفسق والده ضد النساء، بل اعترف الابن بمشاركة أباه في إحدى المرات.

وكانت عقوبة الاغتصاب تصل إلى الإعدام حرقا، وكان يعاقب أيضا بقطع الأجهزة التناسلية "العضو التناسلي"، وأحيانا لو تمت العلاقة الآثمة بالتراضي كان الرجل الزاني يعاقب بالجَلد، والمرأة الزانية كانت تقطع أنفها. وذلك استنادا إلى نقوش آنى، وبردية بولاق، وبردية لبيد، كما كان الشروع في الزنا " المروادة " يواجه أحيانا بنفس العقوبة أو أقل أحيانا حسب الضرر الواقع علي الأنثى كما ذكر العالم الفرنسي "كابار" وهو أحد المتخصصين البارزين في دراسة القانون الجنائي الجبتي القديم. وأضاف أستاذ المصريات أن مصير «بانيب» غير مذكور لكنه في الأغلب سيُعدم بسبب فظاعة جريمته.. وهكذا أعطى المجتمع الجبتي القديم صورة أخلاقية في التعامل مع التحرش قبل ٣٠٠٠ سنة من ظهور فقه الإمام مالك والإمام الشافعي الذي قرر أنه لا شيء على المغتصب سوى عقوبة الزنا !! وهذا هو الفرق بين المجتمع الذي يقوم على النظام والقانون والمجتمع الذي يقوم على فوضى الفقه والفقهاء بلا نظام ولا قانون.





٣ـ الحقوق المدنية

مثال أول: هو الحديث القائل باختلاف الدين مانع من الإرث" وقد أجمع عليه جمهور فقهاء الأمة الإسلامية استنادا لحديث رواه البعض وأسنده إلى رسول الله عليه السلام يقول نصه: لا يرث المسلم

الكافر ولا يرث الكافر المسلم" رواه البخاري . وتتعدد موانع الإرث في الإسلام، يأتي بيانها على الوجه التالي:

المانع الأول من موانع الإرث في الإسلام هو اختلاف الدين. ومعناه أن يكون المورِّث (الميت) على دين، والوارث على دين آخر، فاختلاف الدين بين الشخصين يمنع من توارث بعضهم من بعض، واختلاف الدين بين الشخصين له عدة صور منها :

١ـ أن يكون الميت مسلما والوارث كافر، يهوديا أو نصرانيا أو غيرهما من الملل، وفي هذه الحال لا يرث الكافر من قريبه المسلم – بلا خلاف بين العلماء في الجملة – استنادا لحديث: لا يرث المسلم الكافر ولا يرث الكافر المسلم (رواه البخاري) .

٢ـ أن يكون الميت كافرا والوارث مسلما، وفي هذه الحال لا يرث المسلم قريبه الكافر في قول جمهور أهل العلم بدليل الحديث السابق .

٣ـ أن يكون الميت كافرا من ملة والوارث كافرا من ملة أخرى فلا توارث بينهما لحديث (لا يتوارث أهل ملتين شتى) رواه أبو داوود والترمذي .

- المانع الثاني من موانع الميراث: هو القتل، أي أن القاتل يمنع من أن يرث الشخص الذي قتله إذا كان قد قتله استعجالا للميراث.

وفي التعليق على هذا الحالة الأولى وفقا لنص الحديث الذي رواه البخاري، فإننا لن نتبع المعيار الشخصي القائم على الثقة في شخص الراوي أو ناقل النص ولن نشكك في سنده احتراما للأشخاص. فعادة الفقهاء أن يعتمدوا النص بمجرد ظنهم صدق الراوي حتى وإن حقق تطبيق هذا النص كوارث بشرية في واقع المجتمع، فلا يهمهم حياة المجتمع والأفراد ولا العدالة.. فقط تقديس النص الموصوف بأنه نص ديني ! فإن هم حاولوا الاقتراب من الواقع فيقومون بإعمال قواعد الموروثات وشرعنتها بغض النظر عن موقفها الحقيقي من المبادئ العامة للقرآن، فاختلت الرؤية الفقهية للمسألة، لأنهم نظروا بعيون مجتمعاتهم لا بعيون الشرع، وهذا يؤكد أنهم تأثروا بالفعل بطبيعة مجتمعاتهم ثقافيا وفكريا مما أثر على رؤيتهم الفقهية، ولذلك ليس من المنطق تقديس وتثبيت رؤيتهم الفقهية أبدا. إذ أن القرآن العظيم وهو الدستور العام للأمة نزل رحمة وسلاما للعاملين جميعا وليس للمسلمين فقط، وبالتالي ليس من المنطقي أبدا أن نعتقد لحظة أن النبي عليه السلام قد وضع اللائحة التنفيذية لهذا القرآن بما يخالف المبادئ التي نزل بها القرآن، فإذا كان القرآن غايته السلام والرحمة

والعدل بين الناس، فمن المستحيل مخالفته بلائحة تنفيذية له، ونحاول معا طرح بعض الوقائع العملية التي من شأنها إثبات فساد المنهج الفقهي في بعض جوانبه؛

فعند النظر في هذا المبدأ: " لا توارث مع اختلاف الأديان " باعتباره مبدأ أساسي من مبادئ الشريعة الإسلامية، مع أنه لا يعدو كونه شعار سياسي عربي قرشي النزعة، لكن عندما يتحول تاريخ العرب إلى دين للشعوب، فيكون هذا هو الوضع أننا نبحث في تاريخ العرب خلال حقبة الغزو القرشي، كي نضع قواعدنا التشريعية في عصر الغزو الفضائي، ثم ننقسم إلى فريقين؛ فريق يقول أنه ليس غزو إسلامي وإنما فتوحات وجهاد في سبيل الله، وفريق آخر يقول أنه غزو واستعمار عربي لا صلة له بالدين إلا بقدر ما استطاع العرب استخدام الدين في هذا الغزو.

وكما أوضحنا سلفا أن التكوين الإنساني يقوم على عنصرين أساسيين؛ هما الوارثة الجينية والثقافة ؛ فكل شعب لديه لحمة إنسانية تتمثل في هذين العنصرين؛ ثقافة دينية واجتماعية وتاريخية وعلمية، ولديه ترابط في النسيج الذهني المتوارث، وهذان العنصران هما ما يشكل الشعب أو القومية، ونحن في إيجبت شعب له ذات الترابط وذات النسيج القومي، حتى وإن تنوعت الثقافة الدينية بين المسيحية والإسلام، فتبقى جميع الروابط الأخرى متحدة (اللغة والتاريخ والعادات والأعراف والشراكة في ملكية الأرض والوطن والنسيج الاجتماعي أي المادة الوراثية الأصل)، وهو ما يمكن إجماله في رابطة الدم والوطن.

وقد اصطدم العرب بهذه الرابطة المتينة عند دخولهم البلاد التي احتلوها، ووجدوها مانعا من اندماج أبناء وأجيال هذه الشعوب في الثقافة العربية والولاء السياسي للعرب مما يثير الكثير من الثورات وحركات التمرد، فاتبعوا سياسة " فرق تسُد"، وبما أنهم لا تربطهم بالشعوب التي احتلوها أي روابط سوى رابطة ثقافية هي الدين فقط، بينما تربط أبناء هذه الشعوب روابط متعددة وأقوى وأكثر متانة، فحاول العرب أن يجعلوا هذه الرابطة الثقافية أقوى من الروابط الوراثية وصنعوا قطيعة داخل الأسرة الواحدة، حينما احتلوا الشعوب المجاورة لهم حاولوا أن يجعلوا الولاء لهم للقومية العربية، وللنداء السياسي العربي على نزعة القومية الأصلية، فغلبوا الرابطة الثقافية على الروابط الوراثية التي هي صلة الرحم والدم بين الآباء والأبناء والأخوات والزوجات، لأن ما يربط الابن المسلم بالأب المسيحي هو رابطة وراثية متينة جدا، أما ما يربط هذا الابن المسلم بالعرب في هذا الوقت فهو رابطة ثقافية دينية فقط، ولهذا في محاولة منهم لكسب الولاء السياسي قاموا بتغليب الرابطة الثقافية على الروابط الوراثية التي هي أصل وجذر متين، فقرروا مبدأ "لا توارث مع اختلاف

الأديان" كغطاء ديني لشعار " فرّق تسُد"، ليقطعوا الولاء والانتماء بين الأجيال الجديدة المسلمة والأجيال القديمة المتمسكة بدينها كي يتمكنوا من التفرقة بين أفراد المجتمع لتحقيق السيادة العربية.

وهذا شعار سياسي في المقام الأول، لكنهم نسبوه للدين باعتباره حديث نبوي شريف! وهذا ما لم يقل به الله؛ لأن الميراث مبني على صلة الرحم والقرابة الإنسانية وليس على صلة الثقافة، أي أن اتحاد الدين ليس سببا من أسباب كسب الميراث، فكيف يكون اختلاف الدين سببا مانعا من الميراث؟، بينما صلة القرابة هي السبب الوحيد لكسب الميراث وهي أقوى الأسباب لكسب الملكية، أقوى من عقود البيع المسجلة وأقوى من الأحكام القضائية، فكيف منعوا الابن المسلم من ميراث والده المسيحي؟ ولماذا.. فهل هناك خوف من أن تؤثر صلة الرحم بين الأب والابن على الدين؟ فلماذا اشترط الله الإحسان إلى الوالدين والبر بهما؟ أليس هذا أدعى للخوف على دين الابن وأوفر حظا لإقرار القطيعة؟.. فليس هناك خوف من دين الأب (المتوفى) على دين الابن الوارث، ولكن الخوف عند العرب هو استمرار الوحدة الثقافية والروابط الأسرية والقومية لهذه الشعوب التي احتلوها، وليجعلوا الانتماء حصرا للرابطة الثقافية الدينية التي تستمد جذورها من العرب ومن هنا يتمكنوا من إخضاع الشعوب والسيطرة عليها، ولهذا عجلوا بتفكيك الروابط الأسرية وجعل الانتماء للعرب من خلال تحدثهم باسم الدين، فألبسوا الدين هوية عربية عرقية عنصرية سياسية ليستطيعوا التغلب على الشعوب..

ثم بمرور الوقت نقحت عليهم العنصرية العربية، العنصرية العربية رشحت دماءها في دماء الفقهاء الإسلاميين فقرروا العدول جزئيا عن هذا الحديث النبوي الشريف، وقرروا الأخذ برواية أخرى منه وإخراج آخر هو " لا يرث كافر مسلم"، وفي سبيل ذلك اعتبروا كل غير مسلم كافر كي يسمحوا للمسلم بأن يرث من آبائه وأجداده لو كانوا غير مسلمين، لكن هذا التعديل الجوهري لم يأخذ به غالبية الفقهاء وإنما مذهب واحد فقط، وفضل جمهور الفقهاء قطع جميع الروابط الأسرية حفاظا على سيادة العرب، فاعتمدوا الحديث النبوي الشريف الأوسع نطاقا وهو: لا توارث مع اختلاف الدين" لأن هذا الإخراج يمكنهم من شريحة أخرى أوسع تساهم في تفكيك نسيج المجتمع بأكمله لصالح العرب، لأن ذلك منعاه منع الميراث بين اليهودي والمسيحي، أي ليس منهم طرف مسلم، لكن التطبيق الصحيح لهذا الحديث يمكن من تفتيت كل نسيج المجتمع غير المسلم فتبقى ولاء وانتماء

المسلمين "الموالي" للعرب، مع تفرق غيرهم باعتبارهم أعداء ! لأن كل غير مسلم عدوا للعرب ولا بد من تحطيم نسيجه !

وفيما يخص وقائع التطبيقات العملية الناتجة عن تفعيل هذا النص في نصوص القانون بشأن المواريث؛ سنجد حالات متكررة في وضع غريب عجيب لا ينم عن أي رحمة ولا عدلٍ ولا حتى مساواة بين الناس، بل وإهدار للحقوق وتقييد لحرية العقيدة، وما ذلك يعبر عن الإسلام بقدر ما يعبر عن سياسة العرب:

" لقد سارت التشريعات العربية على نهج الشريعة الإسلامية في النظر إلى أن اختلاف الدين يعد مانعا من موانع الميراث. فلقد ورد في المادة (٥٨٧) من قانون الأحوال الشخصية المصري بخصوص موانع الإرث ما يأتي: " الثالث (من موانع الميراث): اختلاف الدين فلا يرث الكافرُ من المسلم، ولا المسلم من الكافر" . و جاءت في المادة السادسة من قانون المواريث المصري رقم (٧٧) لسنة ١٩٤٣ ما يأتي:" لا توارث بين مسلم وغير مسلم". كما أن قانون الأحوال الشخصية السوري قد بين في الفقرة (ب) من المادة (٢٤٦) أن من موانع الإرث اختلاف الدين بين المسلم وغيره. و لم يفصل أكثر من ذلك ولم يوضح ما إذا كان يأخذ برأي الجمهور "كالقانون المصري" أو بالرأي الثاني الذي يجيز توريث المسلم من غير المسلم دون العكس، ويبدو أن الأمر يجري على إطلاقه كرأي الجمهور. ونفس الأمر في القانون اليمني، إذ ورد في المادة (٣٠٥) من قانون الأحوال الشخصية اليمني رقم ٢٠ لسنة ١٩٩٢ ما يأتي: " لا توارث بين ملتين ..." وهو ما سار عليه القانون الكويتي، إذ جاء في الفقرة الأولى من المادة "٢٩٠" من قانون الأحوال الشخصية الكويتي ما يأتي :" لا توارث بين مسلم و غير مسلم". وعلى نفس النهج سار القانون المغربي، فلقد قضى الفصل (٢٢٨) من مدونة الأحوال الشخصية المغربية بما يأتي:" لا توارث بين مسلم وغير المسلم". أما قانون الأحوال الشخصية العراقي فقد تناول أحكام الميراث في المواد ٨٦ -٩١ . ولم تذكر شيئا عن حكم التوارث بين المسلم وغير المسلم. وهذا ما يعني الإحالة إلى الفقرة الثانية من المادة الأولى من هذا القانون التي تقضي بأنه: " إذا لم يوجد نص تشريعي يمكن تطبيقه فيحكم بمقتضى مبادئ الشريعة الإسلامية الأكثر ملاءمة لنصوص هذا القانون". وهذا ما يعني بطبيعة الحال الإحالة إلى مبادئ الشريعة الإسلامية، وكما علمنا أن الفقهاء اتفقوا على المنع.

وسنطرح هنا عدة أمثلة من التطبيقات العملية لاستبيان حقيقة هذا النص وفقا للمعيار الموضوعي ومبادئ القرآن؛

١ـ **الحالة الأولى:**

أسرة مكونة من زوج مسلم عقيم لا ينجب وزوجة إنجليزية مسيحية الديانة، وكانت الأسرة تعيش في سلام في فيلا بمحافظة الإسكندرية . وفي عام ٢٠٠٩م توفي الزوج عن عمرٍ فاق السبعين، ولم يكن له ولد سوى أشقاءه الخمسة (ثلاث رجال وأختين) وكان الإخوة في شقاق مع هذه الأخ الذي توفي ولم يكونوا يعرفوا عنه شيئا سوى أملاكه وحساباته البنكية التي كشفوا عنها بتصريح من المحكمة بعد استبعاد أرملته مارجريت المسيحية من إعلام الوراثة (تطبيقا لنص القانون المبني على رأي جمهور الفقهاء باعتبارها كافرة وأن الكافر لا يرث المسلم) وحصر إرثه الشرعي في أشقائه لعدم وجود وارث مستحق غيرهم ولا وصية، و لعلم الزوج أثناء حياته بأن زوجته لن ترث منه قشة بعد وفاته، فكان السيناريو المتوقع أن يقوم بكتابة كل أملاكه لزوجته أثناء حياته ضمانا لأن تكمل حياة كريمة مصونة بعد رحيله ومكافأة لها على ما قدمته له من معروف وخدمة أسرية وطيب العشرة خلال حياته، وصيانة منه للمعروف الذي قدمته له زوجته المسيحية، ولا أحد يعلم قدر هذا المعروف سواه بشخصه، ولا أحد يعرف قدر الدفء الأسري الذي عاشاه سويا، ولا أحد يعلم قدر الصلف وسوء المعاملة من أشقائه سواه بشخصه، ولا أحد يعرف كم الوقت الذي قضاه إخوته انتظارا لوفاته ولحظة الإعلان عن الوليمة، وهم لم يقتلوه استعجالا للتركة ولكنهم انتظروه طويلا بفروغ الصبر وعلى مضض، فكانت المكافأة استحواذهم على التركة كاملة وطرد أرملته في الشارع يوم وفاته !

هذا الوضع من الطبيعي أن يدفع الإنسان دفعا إلى التحايل على نصوص القانون وأحكام الشريعة القائمة على نص الحديث سالف الذكر، وذلك بتسجيل عقود بيع أملاكه صوريا باسم زوجته دون أن يكون بينهما بيع حقيقي، فقط محاولة للتحايل على القانون والشرع صيانة للمعروف وردا جميلا لطيب العشرة الزوجية. أو أن يختر الحل الثاني وهو أن يقوم بكتابة وصية في حدود ثلث التركة لزوجته المسيحية بحيث تبدأ الوصية نفاذها الفعلي بعد رحيله، فلا يتمكن أشقاءه الورثة الشرعيين من طرد أرملته من منزلها وتجريدها من كل ما يصون كرامتها، ولكن حتى في هذه الحال، فالوصية هي نوع من التحايل على نص الحديث سالف الذكر بأكثر ما كانت تستحق من نصيب من الميراث لو دخلت ضمن إعلام الوراثة شرعا، وخروج صريح من المبدأ الراسي عليه باعتبار أن لا توارث بين مسلم وغير مسلم، وهذا نوع من التناقض في التشريع مصدره الفقه؛ إذ أن القانون اتبع فقهاء الشريعة فيما يخص أحكام الأسرة دون إعادة التدقيق فيها، وكان

الفقه قد حرم التوارث مع اختلاف الدين وأباح الوصية دون حدود إلا في مقدارها، فلا مانع من الوصية برغم اختلاف الدين، وهذا ما يزرع في عقول عوام الناس أن التحايل على القانون والشرع هو السبيل الوحيد إلى الخلاص وإراحة ضمائرهم وهذا ما فيه حرج بالغ للناس أيضا بغض النظر عن كم الفائدة العائدة من وراء إرساء هذا المبدأ الفقهي، فلا مصلحة ترجى من وراءه سوى تعميق الفرقة والخلاف والضغائن وتغذية الطائفية بين أفراد المجتمع الواحد.. فكيف سمح الله لهذا الرجل المسلم بأن يتزوج من امرأة مسيحية ثم يحرمها من الميراث؟ فالمنع من الميراث هو عقوبة لأن الميراث هو أقوى الطرق القانونية لاكتساب الحقوق، فلماذا العقوبة؟ أو ما سببها ؟

ومع ذلك .. لا أحد يمكن أن يتصور هول المشهد عقب وفاة الزوج أن يعود الأشقاء من الجنازة فورا على فيلا مورثهم لطرد أرملته المكلومة وتشريدها في الشوارع، هذه الزوجة التي توفي زوجها منذ ساعاتٍ قلائل في وسط مجتمعه الإسلامي لم تجد من يواسيها بالعزاء في وفاة زوجها ورفيق دربها الوحيد في إيجبت، لم تكن لتتوقع في لحظة أن يكون مصيرها الطرد من الفيلا للنوم على أرصفة الشوارع والتعرض للتحرش برغم كبر سنها، وهي لا تحمل جنيها واحدا يطعمها يومها أو حتى ما يكفي لدفع أجرة مواصلاتها لتتصل سفارة بلدها أو قنصليتها الأقرب، ولا مكان لها ولا مأوى في هذا الكون... هذا الوضع الغريب لا يمكن أحد أن يقنعنا بأن الإسلام نزل ليفعل بخلق الله هكذا، استنادا لهذا النص الذي رواه البخاري: لا يرث المسلم الكافر ولا يرث الكافر المسلم " وكأن الإسلام دوره هو القطيعة بين الأقارب، أو حديث "لا توارث بين أهل ملتين" أو " لا توارث بين مسلم وغير مسلم" غير أن نص القانون ذاته جاء بافتئات على الناس وقرر حتما أن الزوجة المسيحية كافرة ! وعلى هذا الأساس منعها من الميراث، لا لشيء إلا لأن الفقهاء قرروا أن كل غير مسلم فهو كافر!.

٢ـ <u>الحالة الثانية:</u>

أسرة مسيحية مكونة من زوج وزوجة وثلاث أطفال بنات.. أسلمت الزوجة وفي حضانتها بناتها الصغار.. طردها الزوج من رحمته.. وطردتها العائلة المسيحية من رحمتها لخروجها عن الدين المسيحي.. لجأت الزوجة إلى مصادر الصدقات لتأوي بناتها الصغار.. توفي الزوج.. وهنا يوجد مسارين للأحداث:

<u>الأول:</u> تؤول تركة الزوج إلى أقاربه المسيحيين الذين طردوا الزوجة المسلمة وشردوها بأطفالها، هنيئا لهم بما فعلوا بها، وهنيئا لها وأطفالها على ما فعلت من الدخول في الدين الإسلامي..!

والثاني: الزوج لا وارث له، فتؤول تركته إلى بيت مال المسلمين باعتبار الدولة وراث من لا وارث له، وذلك تطبيقا لنص القانون المدني المصري، وتطبيقا للقانون المنشئ لبنك ناصر الاجتماعي (بيت مال المسلمين) فتؤول ملكية التركات الشاغرة والتي لا وراث لها إلى بنك ناصر ممثلا عن الدولة.. إلى آخر نص القانون. وهذا البنك هو مؤسسة رسمية في الدولة تتولى الإنفاق على الأرامل والأيتام، وبما أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام فإن دين البنك هنا هو الإسلام أيضا، فكيف يرث البنك المسلم هذا الرجل المسيحي؟ ويمنع زوجته المسلمة وأطفاله من ميراثهم لكونهم مسلمين ووالدهم مسيحي؟ أليس البنك وهذا الرجل مختلفين في الديانة؟ أما الزوجة المطرودة من رحمة زوجها فمصيرها التشريد هي وأطفالها على أرصفة الشوارع أو أن تعود لتبحث عن النفقة التي قد يوفرها لها بنك ناصر (ضمن نفقات الأرامل والأيتام) بعد أن استحوذ على تركة زوجها كاملة.!

٣- الحالة الثالثة:

شاب جامعي، مسيحي الديانة بالميلاد، اندمج في مجتمع الطلاب بالجامعة وتعرف على الدين الإسلامي عن قرب، قرأ مبادئه فوجدها أشمل وأكثر نضجا من غيرها، لكنه اصطدم بحجر عثرة لتحقيق أمنيته، أراد أن يعتنق الإسلام، وكان يعمل مساعدا لوالده وهو رجل أعمال ناجح ولديه ثروة عظيمة، لكن هذا الشاب اصطدم بنص القانون الذي درسه بالجامعة، وعرف أنه سيحرم من ميراثه إذا سعى لأمنيته، وعليه أن يبدأ من الصفر.. فقرر التخفي، أي إخفاء ديانته الإسلام في صدره خشية مصادرة أملاكه أو حرمانه من الميراث.. فكان نص الحديث ذاته هو المانع له من إعلان دينه !

هذه الإشكالية نشأت فقط بسبب ميول الفقهاء في بعض الأحيان إلى تقديس النصوص التراثية احتراما لها في ذاتها وتصديقا لرواتها بغض النظر عن مصدرها وبغض النظر عما ترمي إليه هذه النصوص من تحقيق العدل بين الناس أو تحقيق مصالحهم المشروعة أو تحقيق الوفاق المجتمعي والسلام الاجتماعي الذي نادى به الإسلام، لأنه ليس كل نص مروي ورد في صحيح البخاري أو مسلم أو غيره أن يكون واردا رأسا عن رسول الله، بل من الوارد أن يكون مغروسا من ثقافة العرب، لأن مبادئ رسول الله لا تناقض فيها مع الواقع ولا مع القرآن ولا مع العدالة وسبل تحقيق السلام الاجتماعي.

مع أنه لم يرد في تاريخ الصحابة الأوائل ما يدل على أنهم جميعا قد حرموا من ميراثهم لكون ذويهم من غير المسلمين، بل كان النبي يجزل العطاء للمؤلفة قلوبهم حتى يحثهم على اعتناق الإسلام

ويحببهم فيه، وقد وضع الله المؤلفة قلوبهم (الداخلين في الإسلام حديثا ومن أسلموا من أهل مكة في عام الفتح، وضع لهم نصيب معلوم من الزكاة). ثم ما علاقة الدين الإسلامي بغير المسلمين كي يمنع التوارث بينهم حال اختلاف ديانتهم وفقا للحديث القائل : " لا توارث بين أهل ملتين"، كما لو كان ابنا مسيحيا لأب يهودي؟ ألم يقل الله جل وعلا (لكم دينكم ولي دين)، فهل يطلب منا الفقهاء تكذيب القرآن عيانا بيانا لتصديق البخاري وأبو داوود والترمذي؟ أو لنتساءل كيف لا تمتد كافة أحكام الشريعة الإسلامية وتنسحب على غير المسلمين (زواج وطلاق وعبادة)؟ ولماذا لم تمتد أحكام الميراث كاملة؟ لماذا اقتصر الامتداد فقط على حكم المنع من الميراث؟

برغم أن التنظيم القانوني الدقيق الذي وضعه القرآن لتوزيع المواريث هو نظام غاية في الدقة والروعة، ولا مثيل له في العالم على مدار التاريخ البشري بأكمله، لما يوفره من حلول سهلة ويسيرة للأمور الاقتصادية في نطاق الأسرة، وحفاظا على صلة الأرحام ورحمة بالناس، فكان الأولى بالله عز وجل أن يجعل الامتداد القانوني لأحكام الميراث إلى غير المسلمين رأفة ورحمة بهم وخلاصا من نزاعاتهم الأسرية، لكن الله مع ذلك ترك لهم حرية الاعتقاد كاملة، فكيف يأمر الرسول بامتداد أحكام المنع من الميراث تحديدا إلى غير المسلمين؟ هل فقط ليعاقب من أراد منهم الدخول في الإسلام والإيمان بالله وبرسوله ولتكون العقوبة المقررة هي المنع من الميراث؟ ولماذا يتدخل الإسلام ليمنع ميراث ابن مسيحي من أب يهودي؟ فالمنع من الميراث هنا عقوبة، فما هو السبب المانع من العقوبة؟ .. الأمر في النهاية يحتاج إلى تحقيق الأحاديث والمرويات بالقياس على مبادئ القرآن والواقع لا الاكتفاء بالثقة في مصداقية الراوي. ونلاحظ أن أحكام الميراث الواردة بالقرآن لا إشكال فيها ولا ينتج عنها أية إشكالية لا بين المسلمين ولا بين غيرهم، أما ما ورد بشأن الميراث في المرويات والحكايات هو ما يثير الإشكالية، لأننا لم نطبق عليها مبادئ القرآن وإنما صدقنا الراوي بمجرد أنه قال قال النبي!

هذا بالطبع ما يؤكد زيف الحديث دون النظر في سنده، حتى وإن كان متصلا، فقد درج السابقون في بعض الأحيان على إقحام المعيار الشخصي على الحديث وأحكام الشرع والاكتفاء بالثقة الشخصية في أخلاق الراوي وطرح المعيار الموضوعي توقيفا للعقل عن بحث أمور دينه، لأنهم بطبيعة الحال، خلال عصر النهضة العربية، كان العرب المسلمون يكرهون العلوم العقلية وينبذونها من حياتهم، فهم لم يولوا أي اهتمام لا بالعقل ولا بالفكر وتنكروا للعلوم العقلية منها الفيزياء والكيمياء والقانون وغيرها، وبالتالي كان من الطبيعي أن مجتمع ينبذ العلوم العقلية أن يرفض

إعمال عقله في نصوص المرويات ويميل بداهة إلى التغزل في جمالها مهما كانت تسبح في بحر الخرافة.

بل إن الكارثة الكبرى إزاء هذا الوضع المزري تكمن في العقوبة المرصودة مقدما لمن ترك الشرك والكفر وشهد ألا إله إلا الله، إذ تكون عقوبته المنع من الميراث، وهذا ما يحتم على غير المسلمين جميعا التفكير مليا في الأمر قبل اتخاذ قرار الإيمان – هذه كارثة كبرى – لأن الجميع يعلم أنه لا توارث بين مسلم وغير مسلم، وأنه لابد من قطع الصلة تماما بين طوائف المجتمع، والعجيب أن الله جل وعلا هو من شرع الميراث ونظمه حسابيا وبدقة بالغة أبهرت العالم على مدار التاريخ، ولم يستثني أحدا أو يمنع ميراث أحد عقابا له على دخوله الإسلام، ولا يجوز أن تكون السنة مناقضة للقرآن بأي حال أو عقبة مادية في طريق اعتناق الإسلام، بل إن رسول الله عليه السلام كان يكرم المؤلفة قلوبهم من بيت المال ومن الفيء حتى تستقيم حياتهم ويتقربون من المسلمين ويتعمق الإيمان في قلوبهم، والمؤلفة قلوبهم كما نعلم هم الداخلين الجدد في الإسلام.

غير أنه وفقا لقواعد العدالة المطلقة، فإن حرية الاعتقاد حق مكفول للجميع، ونصت على ذلك كل دساتير العالم وعلى رأسها كل دساتير الدول المسلمة، فكيف يضع القانون عقوبة المنع من الميراث نظير ممارسة الحق في حرية العقيدة، فحرية العقيدة حق، والميراث حق، بل هو أقوى طرق اكتساب الحقوق، فكيف يمكن رصد عقوبة المنع من الميراث عقابا على ممارسة الحق في حرية الاعتقاد، وهل يجوز أن تكون هناك عقوبة على ترك الشرك والإيمان بالله؟ وبالنسبة لمن يقولون أنه شرط دخول الإسلام والمنع من الميراث لتطهير الأموال من الحرام، فهل اشترط الإسلام على كل شخص قبل دخوله الإسلام أن يتخلى هو عن أمواله؟ كي يتطهر من الكسب الحرام؟ وهل معنى أنه اكتسب أمواله قبل معرفته بالإسلام أن تكون هذه الأموال حرام؟

وبالنسبة للمانع الثاني من موانع الميراث؛ وهو القتل؛ أي من قتل أباه استعجالا للميراث، فهل من المنطق أن يتساوى المجرم مع من آمن بالله ربا وبمحمد نبيا ورسولا؟ فالقاتل الذي استعجل ميراثه من والده بالقتل، استعجالا لميراثه منه تكون عقوبته الحرمان من الميراث، فكيف يتساوى ويشترك من قتل والديه مع من آمن بالله في ذات العقوبة وهي المنع من الميراث؟ فالميراث حق مادي لا يسقطه إلا سبب مادي مكافئ، والقتل استعجالا للميراث يستحق منطقيا المنع من هذا الميراث، أما من مارس حقه في حرية العقيدة وترك الكفر واعتنق الإسلام، فكيف يترتب عليه ذات العقوبة المسقطة للميراث؟ .. (في الوقع هذا هو تاريخ العرب الذي غرسوه في التراث الديني).. هذا التناقض والتنافر المعرفي الذي أورده صحيح

البخاري و أبو داوود والترمذي لا يمكن السكوت عنه بدعوى حماية ثوابت الأمة وتراثها، لأن ذلك من شأنه أن يجلب على الإسلام من الإساءة والتشويه ما لا حصر له.

١ـ مثال ثان:

نذكر في ذلك تحديدا الرأي الفقهي الذي انتهى إليه الفقهاء بشأن سرقة المنفعة، أو ثمرة الشيء الناتجة عن استغلاله، فمنفعة السيارة تكون بقيمة أجرتها، وقد ذهب الفقهاء الحنفية إلى أن اغتصاب المنفعة لا يعد فعلا محرما، فلو غصب شخصٌ ما سيارة وأدى بها مهامه خلال شهر ثم عاد وتركها لصاحبها بعد أسبوع أمام منزله، فلا يكون ذلك فعلا مجرما في نظر فقهاء الحنفية ولا يلتزم الغاصب بالتعويض عن الضرر الذي لحق مالك السيارة مثلا، ذلك بحجة الرأي الذي انتهوا إليه (بعملية القياس) وهو أن المنفعة ليست مالا ولا يمكن تقييمها بقيمة مالية!!.. ولا نعرف كيف انتهوا إلى هذا الرأي الفاسد مع أن كل شيء صالح للانتفاع به يمكن تأجيره وتقييم منفعته خلال المدة المستأجر فيها بقيمة مالية معينة، وقد جرت أعراف مجتمعات الأرض قاطبة على ذلك، لكن الحنفية تمسكوا بمذهبهم في عملية القياس وبأن الغاصب لا يدفع أي تعويض عن فعله، ولا يعد فعله سرقة لأنه أعاد المال المغصوب إلى صاحبه! هذا هو حكم الشرع في مذهب الحنفية.

والغريب العجيب أننا نجد القانون الوضعي العلماني كما يسمونه قد جرم هذا الفعل واعتبره عدوانا على ملك الغير، ورصد القانون الجنائي المصري عقوبة لسرقة المنفعة أو التعدي على ملك الغير، فقد جرم القانون هذا الفعل ورصد له عقوبة أو إجراءً احترازيا، ورتب القانون المدني العلماني المصري على هذا الفعل حقا للمالك المعتدى عليه بطلب التعويض عن المنفعة والتعويض عن كل ضرر حدث له، فمثلا، وقبل نشوء النظام القانوني المعاصر في إيجبت، كان إذا افترضنا أن مقاولا يعمل في حفر آبار البترول ثم اغتصب معدة الحفر من شركة أخرى وأنجز بها أعماله ثم قام بردها بعد فترة قد تطول أو تقصر، وإذا تقدم المضرور إلى المحكمة طالبا عقاب المقاول الذي سرق معداته لفترة زمنية، فسيكون حكم القاضي حسب المذهب، وإذا صادف أن وقعت دعواه أمام قاضي شافعي سيحكم له بتعويض، وهو بالطبع يتجاوز الملايين في هذه الحال لأن أجرة معدة الحفر غالية وتكلفتها عالية، وأما إذ صادف حظه العاثر أمام قاضٍ حنفي، سيحكم برفض الدعوى وإلزامه بمصاريف المحكمة وأتعاب المحاماة!

وفي ظل التنظيم القانوني المعاصر والدقيق لسلوكيات الأفراد ضمانا لإحقاق العدل ومنع الأذى عن الناس، فلا يقبل عقل أو منطق القول بأن هذا الفعل حلال شرعا ولا يستوجب الزجر والتعويض، لكن الحنفية قبلوا ذلك واعتبروه شرعا، ثم بمرور الوقت شعر الجيل الجديد من تلامذة الحنفية بأنهم وقعوا

في مأزق حرج بين القانون الذي اعتبر هذا الفعل مجرما ورتب عليه الحق في التعويض بقيمة الضرر، فحاول فقهاء الحنفية الجدد البحث عن مخرج من هذا الموقف الذي ورطهم فيه الحنفية القدامى، فقرروا العدول عن الرأي القديم استثناءً في محاولة لتغطية العورة الفقهية التي كشفها القانون الجنائي والمدني العلماني، فقرروا وضع مبدأ مفاده؛ أن الأصل في سرقة المنفعة أنه حلال ولا يستوجب التعويض أو العقاب، لكن يرد عليه بعض الاستثناءات، منها (أي شيء له منفعة) !! بما يعني أنهم يتمسكون بالأصل هو إباحة التعدي على أملاك الناس، ولعلمهم أن ذلك مخالف للقانون والدستور ومخالف لأحكام الشريعة ومخالف للقرآن، فحاولوا التحايل على هذا كله بجعله العقوبة استثناء من الأصل على فعل الاعتداء على أي شيء له منفعة أو يمكن استغلاله، فصار الأصل عندهم أن سرقة المنفعة حلال والاستثناء أن سرقة المنفعة حرام؛ خشية الخروج على المذهب! أي أنهم يحترمون المذهب أكثر من احترامهم للحق والعدل ! ذلك لأن دولة العرب لم تكن دولة قانون، ولم تعرف أي تنظيم قانوني، وإنما فقط عرفت فوضى الفقهاء..

هذا السلوك الغريب إذا أمعنا النظر فيه سيفسر لنا الكثير من العجائب والغرائب في الفقه العربي؛ إذ أن علماء الدين الحاليين قد اعتمدوا أقوال السابقين معيارا للحلال والحرام بدلا عن الدين نفسه، وهو ما وضح جليا في شأن فتوى الحنفية بسرقة المنفعة، وكذلك ما ذهب إليه جمهور الفقهاء بشأن العقود المركبة وعقود الاستصناع، والعقود المركبة مثل أن تشتري سيارة بأجرة منزل عشرة أعوام مثلا، إذ اتفق جمهور الفقهاء على تحريم مثل هذا النوع من التعاقدات لمخالفتها نصوص طبقها السابقون على الوجه الذي اقتنعوا به، ثم جاء المحدثون فشعروا أنهم في موقف محرج أمام القانون الذي شرع العملية بدقة ونظم تفاصيلها بسهولة ويسر دون أن يتحقق أي نوع من الضرر لأي طرف، ولذلك سعى فقهاء الشريعة إلى حل العقدة التي ربطها القدامى فجعلوا الأصل في هذه النوعية هو حظرها والاستثناء هو إباحتها سعيا على مصلحة الناس.

في حين أننا لو بحثنا في واقع الأمر سنجد أن الأصل أنها حلال، وأن الله قد حظر فقط المعاملات التي تؤدي إلى الضرر بأحد أطراف التعاقد أو توقع أحدهما في ظلم أو غبنٍ غير مبرر، فالمبادئ العامة للدين الإسلامي لم تحرم عقود الاستصناع ولا العقود المركبة ولكن حرمها الفقهاء القدامى على أساس فهمهم القاصر لطبيعتها أو لأنها كانت غريبة عليهم ومعقدة، أو لأنها لم يكن لها تنظيم قانوني يحفظ حقوق أطراف العقد، ولهذا حرموها خشية ما قد يترتب عليها من ضرر لأحد أطراف العقد، فجاء الفقهاء المحدثون وجعلوا الأصل هو الحظر والاستثناء هو الإباحة لأن القانون المدني قرر إباحة هذا النوع من

التعاقد ووفر له الحماية القانونية اللازمة، في حين أن الدين الإسلامي إنما سعى في الأساس على تحقيق مصالح الناس لا إعاقتها، ومن حظر وحرم هذه المصالح هم فقط الفقهاء القدامى، فجعل الفقهاء المحدثون أقوال القدامى أصلا ومعيارا بدلا عن مبادئ الإسلام حتى وإن اضطروا غصبا لإعمال هذه المبادئ تمشيا مع نصوص القانون، فقالوا أن الأصل أنها حرام، واستثناءً جعلناها حلال!. وتلك كارثة كبرى أن تكون أقوال القدامى معيارا للدين وليس الدين ذاته ومبادئه معيار للقدامى والمحدثين والواقع!

ولو دققنا في هذه الطريقة في حل الأمور ودراستها، سنتأكد أنها محض فلسفة بدائية، ولا علاقة لها بالواقع ولا بالعقل والمنطق، ولا مجال هنا للقول بأن العقل والمنطق يؤدي إلى الزندقة والخروج من الدين، لأن الأحكام الفقهية لا تبنى إلا بالعقل والمنطق. والموضوع هنا ليس موضوع الاعتراض على كتب التراث أو انتقادها، ولكن فقد التعرض لطريقة التفكير القانوني الذي ساد في دولة العرب، لنعرف كيف فكروا في أمور الحياة التي يتعرضون لها.. فالنص كان هو قبلتهم فقط دون العدالة لأن العدالة تقتضي التدقيق في الواقع أكثر من شكلية النصوص وحرفيتها أو الاستدلال بها.. فالقاضي العادل يطوّع النصوص لإدراك العدالة، أما القاضي الظالم فيقدس شكلية النصوص ولو انتهكت العدالة... فالأفكار لا قيمة لها طالما لم تخرج من رؤوسنا لتري ما يمكن أن تفعله هذه الأفكار النظرية عند اصطدامها بالواقع.. أما الفكر النظري البحت فهو فكر تعبدي لا تطبيقي، وبالتالي لا يجوز أخذ كل التراث الديني بنظرية وجدانية تعبدية ؛ لأن هناك شق كبير من الدين تطبيقي عملي مثل كل الأحكام الفقهية التي لابد أنها شرعت للتطبيق لا للإيمان الوجداني بها.. ومن ثم فالوقوف عند حدود النص دون دراسة الواقع دراسة جيدة محكمة لا يمكن أن يتبعه فهم صحيح لهذا النص.

وعلى مستوى الفكر والحوار وتبادل المعرفة، سواء بين المذاهب وبعضها، أو داخل المذهب الواحد، فكانت السمة الغالبة هي الطفح الفقهي والتوسع الأفقي دون ارتقاء فكري.. غير أن مهمة الفقهاء انحصرت في إعادة اجترار ما مضغه الأولون لآلاف السنين واهترأت به معداتهم، وعندما نعيد النظر في اجتهادات الفقهاء القدامى سنكتشف كم المغالطات المنطقية والظلم والحيود عن العدالة.. لكنهم لم يدركوا كونه ظلم.. كانت هذه أعراف مجتمعاتهم، لكنها بمرور الزمن حصلت على صكوك القدسية الدينية.. ظل الفقهاء على مدار ألف عامٍ وأكثر يُحفظون تلاميذهم كتب الفقهاء السابقين دون أي نتاج فكري، إلا ما كان مبتذلا في الغالب دون أي قيمة فعلية، مجرد طفح أفقي بعملية القياس، هذه المنهجية التي ابتكرها الفقهاء لبناء الأحكام الفقهية واعتبروها أساس القواعد الفقهية، واستمرت عمليات القياس الفقهي في الطفح دون تحليل فكري حتى أدت إلى كوارث في كثير من

الأحيان، مثلما أفتى الشافعية بجواز زواج الأب من ابنته من الزنا.. وقال الحنفية أن سرقة المنفعة حلال.. هكذا قالوا دون أي تذوق إنساني وقانوني للمفاهيم والأفكار.. فقط اعتمدوا على عملية القياس ورضوا واستكانوا بما أنتجته من نتائج كارثية..

والغريب أن الفقهاء يعتبرون عملية القياس من إبداعاتهم الخاصة، برغم أنها عملية بدائية أصلية في حياة الإنسان البدائي المفتقر إلى أي نوع من الخبرة الإنسانية، إذ أنها أصلاً سمة وخاصية سيكولوجية في العقل البشري يبني عليها أفكاره ووجهات نظره حتى في صغائر الأمور اليومية العادية، ولا يمكن الجزم أبدا بأن عملية القياس هذه قاعدة فقهية ذات ديمومة، بل لا بد أن يرد عليها الكثير من الاستثناءات لاعتبارات الحياة الاجتماعية.. إنما التسليم المبدئي الجازم بنتائج كل عملية قياس لهو محض انحطاط فكري من النوع الذي ساد العقل العربي بوجهٍ عام خلال رحلته الحضارية..

وتوقف دور الفقهاء على مجرد فهم ما كتبه السابقون، ولهذا زاد تقديس السابقون بشكلٍ جنوني، لأنه لم يستطع أحد اجتياز خطوطهم، ليس لأنهم عباقرة اجتازوا مساحات واسعة من الزمان وسبقوا آلاف الأجيال، بل لأن الحضارة العربية والعقلية العربية بعد القرن الرابع لها بدأت الانهيار سياسيا وعسكريا واقتصاديا وفكريا وانهار معها الفقه بذات الوتيرة، إذ أن الفكر الفقهي الشرعي جزء لا يتجزأ ومكوّن رئيس في أركان هذه الحضارة العربية وموسوم بملامحها الثقافية والنفسية، وطالما تراجعت الحضارة مبكرا، فمن الطبيعي أن يتراجع فكر الأجيال جيل وراء الآخر، ويظل محتفظا بخصائصها وسماتها، ويزداد انكماشا وانبعاجا وتوسعا أفقيا عرضيا دون أي ارتقاء فكري.. فظل الفقهاء يجدون ويجتهدون على مدار الألف عام هبوط في إعادة نسخ واستنساخ وحفظ وشرح وتحشية ما كتبه فقهاء أربعة القرون الأولى من عمر الحضارة العربية..

فيقول الدكتور رمضان أبو السعود: الإمام الشافعي له تلميذ يسمى"الإمام المزني": وقد قام بجمع كل ما قاله الإمام الشافعي في مختصر، وهذا المختصر مطبوع علي هامش كتاب "الأم"، ومختصر الإمام المزني جمع مذهب الإمام الشافعي فأصبح العُمدة وأخذه بالشرح والأقوال بعض الأئمة مثل ابن فريد وأبو إسحاق وأبو علي الطبري وأبو الحسن الجوري وأبو إسحاق الأصفراني وقاضي القضاة أبو الحسن الموردي والذي قام بشرح مختصر الإمام المزني في كتاب باسم "الحاوي الكبير" . كما قام إمام الحرمين بشرح مختصر المفيد في كتاب سمّاه "نهاية المطلب في دراية المذهب" وهو كتاب ضخم، ولذلك فالشافعية تركوا جميع ما كُتب في المذهب واعتمدوا علي كتاب "نهاية المطلب في دراية المذهب " ثم قام بشرح كتاب "نهاية المطلب في دراية المذهب " الإمام الغزالي في كتابه " البسيط" ثم اختصره إلي "الوسيط" ثم

اختصره إلي "الوجيز"، ثم قام الإمام الرافعي بشرح كتاب "الوجيز" في كتاب "فتح العزيز" ثم قام بعمل نسخة مصغرة من فتح العزيز، وجميع المراجع الموجودة الآن مصدرها للشافعي مصدرها كتاب "نهاية المطلب في دراية المذهب"...

غير أنه لم تكن هناك نظرية قانونية من الأساس، ولا أي أثر لوجود نظرية قضائية، لدرجة أن غالبية الفقهاء استخدموا مصطلح "الحاكم" بدلا من مصطلح القاضي، وهذا يوضح الفرق الشاسع بين القانون البابلي والفرعوني والروماني الذي عرف منصب القاضي وحدده بوضوح وعرف منصب البريتور (النيابة العامة) وحدد مهامه بوضوح، وهو المدعي العام ،أي متولي النيابة عن الشعب في حفظ الحقوق، أما لفظ الحاكم فهي كلمة هلامية تعني من له السلطة أو من بيده القدرة على الفعل، ونحن هنا لا ننكر أن الدولة العربية عرفت منصب القاضي وقاضي القضاة، ولكن الفقهاء في مذاهبهم ورسائلهم استخدموا مصطلح الحاكم وليس القاضي، وهذا يعني أن القاضي لم تكن له السلطة الفعلية. بما يؤكد أنهم لم يكن لديهم أي فقه قانوني أو قضائي.

وهو ذات الوضع نجده عند حديث الفقهاء عن الخلافة ومبدأها القائم زعما على الشورى، بينما في حقيقتها كانت حكما شخصيا محصنا باسم الدين تحت ستار نظرية الخلافة، واستخدم الفقهاء عبارة " أهل الحل والعقد" للدلالة على المجلس النيابي في اتخاذ القرارات السياسية، ولم يحدد الفقهاء ماذا يقصدون بهذا المصطلح، ولم يضرب أحدهم حتى مثالا يوضح به من هم " أهل الحل والعقد" أو كيف تم اختيارهم في الماضي أو كيف يتم اختيارهم في الحاضر أو المستقبل !

ولذلك لا نجد أي أثر لنظرية سياسية ولا نظرية قضائية أو قانونية في تاريخ الدولة العربية، لأن السيف هو الحاكم، والحاكم هو السلطة، والقضاء لمن يملك السلطة، فقط نجد وجهات نظر فقهية في كتب جمعت فصولا في (الدعاء – والصلاة – والشفعة – وغصب الحقوق. العقود) وهذا أمر عجيب أن تجد فقيه يتحدث عن الصلاة وأحكامها وفضل الدعاء في كتاب يتحدث عن فقه قانوني عن العقود وغصب الحقوق، بينما لو بحثنا في المكتبة البابلية قبل ألفي عام كاملة سنجد مجلدات متخصصة في القانون، ولو بحثنا في المكتبة الفرعونية سنجد مدونات تشريعية كاملة منظمة ومقسمة إلى أبواب وفروع ومواد قانونية مرقمة ترقيما دقيقا لا تخلط بين الصلاة والدعاء وأحكام العقود.

فالنظرية القضائية تقوم علي اعتبارات الوقائع العملية، كما أن هناك أشياء حلال وحرام في مجال الزراعة، لكن في النهاية الزراعة حرفة ولها أصول فنية ولها متخصصون فيها، ولأن القاضي في

فصله بين الخصوم يكون أكثر احتكاكا بالواقع ومعايشة له، بينما الفقيه يكون أكثر انتماءً للنص وتصديقا له.. والبون شاسع جدا. فتحليل النص وإصدار الفتوى هو محض عملية فكرية نظرية مجردة، وأما القضاء فهو موازنة فعلية واقعية عملية بين الحق والباطل، (كما سبق شرحنا في نص الحديث المانع من الميراث لعلة اختلاف الدين) فالقاضي يلمس الواقع بجسده وعقله كليا، بينما الفقيه يرتكز علي مدلولات النص وافتراضات الواقع، وهذا ما يعني أنها لو قامت حضارة فعلية في تاريخ العرب لكان حتما يلزمها تشريعات قانونية رسمية يلتزم بها القضاة في أحكامهم، أما كون العملية كانت إلى حد كبير فوضوية وكان القضاة أصلهم فقهاء دين فلم يتمكنوا من التمرس علي معرفة خبايا الأمور الواقعية واحتراف استخدام أدوات التدليل والإثبات الواقعي بما يمكنه من الظفر بالحق..

٣ـ العقل الفقهي في دولة العرب

ما حدث على الصعيد السياسي إبان حقبة ملوك الطوائف في الأندلس وصراعاتها المسلحة، حيث تصارعت العائلات على الحكم واقتسمت السلطة والسيطرة على البلاد، ولم تعد هناك إدارة مركزية تقوم بالتنسيق بين الوحدات المحلية، ومن هنا توهجت ظاهرة الطوائف، ثم تنازعت النفوذ حتى ضعفت قوتها وتفتت وانهارت جميعها. وما حدث على الصعيد السياسي في مقر العاصمة العربية بغداد من صراعات سياسية وعسكرية دموية على السلطة، وأدت في النهاية إلى تفتت الدولة إلى دويلات مستقلة في الشام ومصر والمغرب وشمال إفريقيا والحجاز والعراق.. حدث علي الصعيد الفكري والثقافي بذات النكهة؛ وبالنظر إلى أن العقل السياسي كان عربيا وتفتت شطريه البغدادي والأندلسي بالتزامن، وبرغم أن العقل الفقهي كان أعجميا في القطرين العربيين إلا أنه تفتت بالتزامن أيضا، ذلك لأن الفقهاء الأعاجم كانوا يفكرون بعقلية عربية، فقد استحوذت عليهم متلازمة ستوكهولم العربية وزاد نفوذها أكثر من الوازع الديني والضمير الإنساني الذاتي، فاتبعوا سلوك وفكر العرب أكثر من اتباعهم لمبادئ القرآن أو لمبادئ الفطرة السوية أو قل طغى عليهم إكبار العرب وتأثروا بهم أكثر من استيعابهم لحدود وأبعاد النص القرآني.

وبالتالي، مجرد أن تفتت العقل العربي السياسي تفتت العقل الفقهي بالتبعية، وبمجرد أن انهدم البنيان السياسي انهدم العقل الفقهي وتوقف عن النمو رأسيا وتحول إلى عمليات تفتيت أفقي، أي عندما انهارت دولة العرب انهارت دولة الفقه بالتزامن. وبطبيعة الحال، كانت الحضارة العربية ذات جناح واحد والآخر مكسور، إذ أنها نبذت العلوم العقلية وتجنحت للعلوم الفقهية فقط، وكان الجانب الثقافي والفكري الوحيد هو علوم الفقه الشرعي، وكلا الظاهرتين –الصراعات الفقهية المذهبية والسياسية المسلحة- نشأتا في توقيت واحد كملمح من ملامح انهيار وتفتت العقل العربي مبكرا.. لا اختلاف بين الظاهرتين سوي في الأثر التاريخي الكارثي، فملوك الطوائف سقطوا بخلافاتهم ورحلوا، وأما ملوك المذاهب فمازالت نزاعاتهم ومشاحناتهم تتوهج وتثمر مزيدا من التفتت والانبطاح.

فعندما حاصر المغول أصفهان في القرن السابع الهجري سبع سنوات، غير قادرين على فتح المدينة الفارسية الكبيرة، وخلال تلك الآونة كانت هناك حرب دائرة بين الشافعية والحنفية من أهل أصفهان، فخرج الشافعية إلى المغول وعقدوا معهم اتفاقا يقضي بتسليم المدينة على أن يعينوهم على الحنفية، وما إن دخل المغول بقيادة أحد أبناء جنكيز خان المدينة حتى أعملوا سيوفهم في أهلها فبدؤوا

بالشافعية، ولم ينتهوا عند الحنفية.. والمتتبع لقصص العنف والإرهاب بين المذاهب والفرق في التاريخ الإسلامي يجدها ممتدة عبر القرون وموزعة على الأقطار الإسلامية، فهي بين الشافعية والحنفية في أصفهان كما في بغداد (٣٩٣ هـ) وكان سببها أن شيخ الشافعية أبا حامد الإسفراييني الذي استطاع أن يؤثر في الخليفة العباسي القادر بالله، ويقنعه بتحويل القضاء من الحنفية إلى الشافعية، فلما فعل ذلك احتج الحنفية ودخلوا في مصادمات مع الشافعية. وفي خراسان (٤٨٩ هـ)، وهي بين الحنابلة والشافعية بعاصمة الخلافة العباسية (٣٢٤ هـ) لتتجدد سنة (٥٧٣ هـ)، عندما توفي خطيب جامع المنصور محمد عبد الله الشافعي سنة ٥٣٧ هـ، ومنع الحنابلة من دفنه بمقبرة الإمام أحمد بن حنبل؛ لأنه شافعي وليس حنبليًا، فحدثت فتنة بين أتباع المذهبين تدخل على إثرها الخليفة العباسي المقتفي وأوقفها، وأفشل محاولة الحنابلة منع دفن المتوفى بمقبرتهم، وأمر بدفنه فيها. وبين الأشاعرة والحنابلة ببغداد (٤٦٩ هـ)، وهي في نيسابور بين الحنفية من جهة والشافعية والشيعة من جهة أخرى (٥٥٥ هـ)، وهي بين الحنابلة والشافعية في إيجبت (٥٦٧ هـ)، وبين أصحاب المذهبين في دمشق (٧١٤ هـ)، وبين الحنابلة والأشاعرة بدمشق (٨٣٩ هـ)، لتتجدد سنة (٨٣٥ هـ)"[٣٢].

وفي أصفهان بين فقهاء أصحاب المذاهب سنة ٥٦٠ هـ وتقدمها عبد اللطيف الخجندي الشافعي، ضد مخالفيه من المذاهب الأخرى، واستمر القتال بين الفريقين لمدة ٨ أيام، قتل منهم الكثير، وأحرقت وخربت منازل كثيرة. لتتجدد الحرب ثانية بين الشافعية والحنفية في سنة ٥٨٢ هـ، وقع فيها كثير من القتل والنهب والدمار. ثم تتجدد الفتنة بين الشافعية والحنفية بمدينة مرو أيضًا، زمن الوزير الخوارزمي مسعود علي، فالوزير كان متعصبًا للشافعية، فبني لهم جامعًا بمرو مشرفا على جامع للحنفية، فغضب الحنفية وأحرقوا الجامع الجديد، واندلعت فتنة عنيفة مدمرة بين الطائفتين، حتى ذكر الرحالة ياقوت الحموي أن مدينة أصفهان في زمانه عمها الخراب..

وحينما أعلن الواعظ الغزنوي ببغداد سنة ٤٩٥ هـ عن مذهبه الأشعري بجامع المنصور اشتعل الصراع داخل المسجد، ورجمه الحنابلة بالحجارة لتتجدد الفتنة مرة أخرى، وحينما كفّر ابن تومرت بالمغرب الإسلامي، دولة المرابطين السلفية وأظهر المذهب الأشعري (ت ٥٢٤هـ)، واتهمهم بالتشبيه والتجسيم، واستباح دماءهم وأموالهم، ودخل في حروب طاحنة مع المرابطين، وأدخل المغرب الإسلامي في

٣٢ ـ نقل مع التصرف عن الكاتب محمد السيد الطناوي كاتب و باحث مصري، في مقال له بعنوان إرهاب الكل ضد الكل (١ـ٢) منشور على موقع "أصوات" بتاريخ ١٠يوليو ٢٠١٨ Mohamed.altanawy1@Gmail.com
http://aswatonline.com/2018/07/10/

فتنة دامية، وفرض الأشعرية على الرعية، وعندما توفي واصل أتباعه دعوته، وارتكبوا مجازر رهيبة في حق المرابطين عندما دخلوا مدينة مراكش سنة ٥٤١هـ. ويروى أنهم قتلوا منهم سبعين ألف شخص (٣٣).

فالمذهبية كلها فساد وظلم للدين كما يقول الله عز وجل: {...ولا تكونوا من المشركين ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ }الروم٣٢. ويقول تعالى{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ }الأنعام١٥٩.

وبرغم أن هناك عوامل كثيرة اليوم تدفع بهذه الظاهرة إلى الهامش، ربما يكون السبب وراء انحسارها عن عديد من المجتمعات هو ما يتوافر في يد الدولة الحديثة من أدوات للقمع لم تكن في حيازة الدولة القديمة، لكن هذه المذهبية ما زالت تحتفظ بالقداسة في أروقة الأزهر إلى اليوم. وللمجتمع المصري تجربة مريرة في هذا الشأن بدأت مع ظهور التناحر بين الفرق الدينية في أروقة الجامع الأزهر، حيث كانت تدرس كتب الفقهاء الكبار، دون تفرقة، برغم أن القضاء كان حكرا على المذهب الشافعي دون غيره، لكن لم يكن ثمة اعتراف رسمي من الدولة بهذه الفرق والمذاهب، حتى وقعت أحداث عنف بين أئمة المذاهب، ووصل الأمر إلى العنف المادي. وهنا تدخلت الدولة (الظاهر بيبرس سلطان مصر سنة ٦٦٣ هـ) بصورة رسمية لأول مرة لفض هذا الصراع، فجعل القضاء رباعيا لأول مرة، وجعل الفقه رباعيا والفقهاء أربعة لأول مرة، حيث قام بتقسيم الجامع الأزهر إلى أربع أروقة (شرقي وغربي وقبلي وبحري) ليجلس كل شيخ في رواق بعيدا عن الآخر وتلامذته، ومن هنا بدأ اعتراف الدولة رسميا بفكرة المذاهب الأربعة، وبدأ القضاء يبتعد عن المنهج وينقسم إلى أربعة مذاهب قضائية حسب المذاهب الفقهية، وكل قاضٍ يحكم وفقا لمذهبه. وانتشرت عادة المذهبية في كل مكان، حتى أن بناة المساجد اخترعوا نسقا معماريا يتماشى مع فكرة المذاهب، فجعلوا لكل مسجد أربعة محاريب، في كل رواق (ركن) محراب ليس للصلاة ولكن لجلوس شيخ المذهب، لأن الصلاة تكون في المحراب القبلي فقط، ولكل مذهب رواق أو ركن بمحراب مستقل، حتى أن السلطان قايتباي عندما شرع في بناء قلعته على شواطئ الإسكندرية، جاء تصميم مسجدها رباعي الأروقة، برغم أنه غير مخصص

٣٣ ـ نقل بتصرف من موقع البديل ـ مقال لعبد الوهاب حسن ـ الصراع بين المذاهب السنية.. دروس مستفادة.
http://www.ankawa.com/forum/index.php?action=profile;area=showposts;u=176046

لتدريس الفقه، ولا يصلي فيه أحد سوى حراس القلعة إلى يومنا هذا. وبمرور الزمن أصبح ما قرره الظاهر بيبرس وكأنه حكم ديني راسخ!

ونتيجة لهذا الانكماش الحضاري (انحطاط رأسي مع توسع أفقي) زادت الخلافات والانشقاقات في الرأي والمذهب لدرجة أنهم اختلفوا في المقاييس والحسابات الرياضية !! حتى هذه رفضوا الاتفاق عليها، وأصبح كل مذهب ملة وله مقاساته التي يشترط لها مبدئيا أن تختلف عن غيرها من الملل وتتفرد بخصائص تميزها عن غيرها ولو شكليا.. كان الصراع مستنسخا من الوضع السياسي الذي حدث عند انشقاق الدويلات عن الخلافة العباسية وانشقاق الأندلس الأموية إلى طوائف ليبدأ الصراع بينها.. هكذا سار الوضع من الناحية الفكرية والفقهية لينتهي إلى مذاهب وفرق على ذات السيناريو.. ثم جاؤا ليقنعونا بأن اختلافهم رحمة بالأمة!! برغم أنهم اختلفوا في قيم الذراع، والذراع هي وسيلة قياس حسابية تستخدمها الشعوب في قياس المسافات منذ قديم الأزل، وهي طول المسافة لعظام الساعد من طرف الإصبع الوسطي وحتى المرفق.. والمعروف أن هذه الطريقة في القياس انتشرت في كل بقاع العالم واستخدمتها كافة شعوب الأرض لأنها وسيلة بسيطة وبدائية يمكن لأي حي أن يستخدمها حتى من كانت ذراعه مبتورة فيمكنه استخدام الذراع الأخرى، وإن كانت هناك اختلافات في دقة القياس أو طول المسافة، فمن الطبيعي أن يعود ذلك إلى طول وقصر الذراع في دولة وأخرى أو شعب وآخر حسب طول قامة الشخص المتوسط وطول ذراعه أو ما تستقر عليه حكومة هذا الشعب كمتوسط للذراع يمكن اعتماده، ولذلك نجد هناك فارق طفيف بين طول الذراع بالسنتيمتر بين شعوب الشام ومصر والعراق وأوروبا حسب طول ذراع الإنسان في كل منطقة، وعادة ما يساوي ١٨ بوصة تقريبًا (٤٦ سنتيمترا).. أما فقهاء الشريعة فلم يعترفوا بهذا النوع من الخلاف القائم على أسباب موضوعية، فابتكروا طريقة أخرى ليختلفوا بها كي يتميز كل فريق عن غيره.

فنجد مقدار الذراع[٣٤]: عند الحنفية:(٤٦,٣٧٥) سم. وعند المالكية: (٥٣) سم. وعند الشافعية والحنابلة: (٦١,٨٣٤)سم. وفي مصادر أخرى ذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والشافعية والحنابلة إلى أن الذراع (٤٨سم). أما بالنسبة للميل، فقد اختلف الفقهاء كالعادة في مقدار الميل على أقوال هي: ذهب

٣٤ ـ الدكتور علي محمد العمري/ كلية الشريعة، جامعة اليرموك.: بحث نشور في "المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية"، المجلد الثالث، العدد (١)، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م ومنشور على الرابط التالي
http://www.aliftaa.jo/Research.aspx?ResearchId=66#.W9_h7NUzZkg

الحنفية إلى أن الميل أربعة آلاف ذراع. وذهب الشافعية، والحنابلة إلى أن الميل أربعة آلاف خطوة. أما المالكية فعندهم قولان؛ الأول: الميل ألف ذراع، والثاني: أن الميل ثلاثة آلاف وخمسمائة ذراع

وأما بالنسبة للشبر: وهو عرض كف اليد من أعلى الإبهام إلى أعلى الخنصر

ذكر الحنابلة صراحة أن الشبر ثلاث قبضات والقبضة أربعة أصابع والإصبع ست شعيرات بطون بعضها إلى بعض. فإن الشبر يعادل (٧٢ حبة شعير). وأشار كل من المالكية، والشافعية إلى أن الذراع شبران، أي أربعة وعشرون إصبعا، فعليه فإن الشبر نصف ذراع أي اثنا عشر إصبعا كل إصبع ست شعيرات وبالتالي فإن الشبر يعادل (٧٢ حبة شعير).. يعني هنا المرة الوحيدة التي اتفقوا فيها على النتيجة النهائية، لكنهم اختلفوا في طريقة الوصول إليها، وليس لدينا شك في أن هذا الاختلاف كان متعمدا لتمييز المذاهب عن بعضها.

هكذا حاولوا قدر جهدهم الاختلاف عن بعضهم فلم يكن الداعي الرئيس للإبداع نزيها من أجل الارتقاء وتغذية الإنسانية بأفكار ذات قيمة، بل كان جل اجتهاداتهم محض انبطاح وتوسع أفقي دون أي قيمة للرقي رأسيا، ولم تقف حدود الانبطاح والانبعاج الفكري عند حساب الشبر والذراع والقدم وعرض حبة الشعير، ولم يتوقف إبداعهم عند حدود التفقه في كيس الفساء المحمول على الظهر كقسم جديد من أقسام الفقه الافتراضي!، بل إن اختلافهم وصل إلى تخريب العبادات ذاتها مثل الصلاة، فيقول الأستاذ محمد مأمون رشيد: أنا عن نفسي تعلمت الصلاة في دور القران كانوا يعلمونا من كتب الأحاديث وكان فيها أكثر من ألفين كتاب عن السنة وكنا نقرأ حتى عن حركة الإصبع في التشهد. قالوا: أخي الكريم، وكيف علموك تحريك الإصبع ؟!

١. تحريك الإصبع حركة خفيفة يمنة ويسرة (مذهب مالكي)
٢. رفع الإصبع عند النطق بالشهادة ويبقى مرفوعا إلى نهاية الصلاة (مذهب شافعي)
٣. رفع الإصبع عند البدء بالنطق بالشهادتين ووضع الإصبع عند النهاية من النطق بالشهادتين (مذهب حنفي)
٤. رفع الإصبع ثم وضعه عند كل لفظ لاسم الجلالة (مذهب حنبلي)
٥. تحريك الإصبع باستمرار من الأعلى إلى الأسفل حتى تضرب الشيطان بمطارق من حديد (الألباني)

أخي الكريم، عندما تدخل المسجد وتنظر إلى طريقة تحريك الأصابع، فستعرف مذهب المصلي، وإما أن تضحك أو تبكي، وشر البلية ما يضحك... فلو كان تحريك الإصبع من الصلاة لما اختلفوا فيه كل هذا الاختلاف: "وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّـهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ".

ولهذا لم يتمكنوا من وضع منظومة قانونية دقيقة منظمة ومفصلة في مدونة صالحة للتطبيق لأن أفكارهم لم تكن موضوعية ولم تكن منظمة ولم تعرف النظام كما قال ابن خلدون، حتى أسباب الخلاف بينهم لم تكن قائمة على أساس موضوعي، وإنما فقط اختلافات شكلية لغرض تمييز الفرق والمذاهب عن بعضها، ففي تعريف المدعي والمدعي عليه، (طالب الحق والمطلوب منه الحق)؛

- قال الشافعية: الطالب هو من إذا تارك تُرك .. والمطلوب منه إذا تُرك لم يَترك
- أما الحنابلة فقالوا: أن المدعي إذا تُرك لم يسكت.. والمدعى عليه إذا تُرك سكت

وعند محاولة تحليل قول الشافعية سنجد أن طالب الحق إذا قرر أن يتنازل عن حقه فلا معقب عليه، ولن يتتبعه القاضي ولا شيء عليه، أما المطلوب منه الحق إذا أهمله وقرر ترك الدعوى أو الانسحاب منها فلن يتركه القاضي بل يتتبعه لأخذ الحق منه، وهذا في سبيل التمييز بين شخص المدعي والمدعى عليه.

أما الحنابلة، فقولهم يعني أن طالب الحق إذا أهمله القاضي فلن يسكت على حقه وسيظل يصرخ مطالبا بحقه متمسكا به، أما المدعى عليه المطلوب منه الحق، فإذا تركه القاضي لن يتحرك وسيسكت ويفرح بذلك، لأن مصلحته تتحقق بذلك. وهذا معنى قولهم: أن الطالب هو من إذا تارك تُرك .. والمطلوب منه إذا تُرك لم يَترك، وأن أن المدعي إذا تُرك لم يسكت.. والمدعى عليه إذا تُرك سكت.

وهكذا تتكرر صياغة ذات العبارات بذات المعنى لكن بألفاظ مختلفة فقط، فالأمر واضح جدا أن الخلاف بينهم لم يأت من فقه واجتهاد، وإنما وُضع خصيصا للتميز بين المذاهب والحفاظ علي استقلالية الماركة التجارية للحزب الديني. فكلا التعريفين يحملان ذات المعنى لكنهم كانوا حريصين على استخدام ألفاظ مختلفة أو الإقلاب بين الفعل المبني للمعلوم والمبني للمجهول مع تقديم وتأخير، فالأمر لم يتجاوز التلاعب اللفظي دون الخروج عن المعنى، والغاية هي تمييز المذاهب عن بعضها لكي يظل كل حزب معروف بألفاظه ومصطلحاته المستقلة، ولم يكن ثمة أي فروق جوهرية أو موضوعية بينهما، وهذا ما يؤكد شكلية هذه المذاهب، وأنها لم تكن مدارس فقهية كما قيل لنا، بل فقط أحزاب متصارعة على ذات النمط من التصارع السياسي الذي ضرب مفاصل الدولة الأموية في الأندلس.

بهذه الفلسفة التي يتضح في مضمونها أنها قامت على أساس التنافسية والتميُز، والتنافسية بين المذاهب حيث كان كل مذهب يسعى لتحقيق ظهير شعبي وشهرة واسعة في البلاد، ليس فقط في مجال الفتوى وإصدار الأحكام وإنما أيضا في احتلال الصدارة على منصة القضاء ؛ لأن القضاء كان يتم إسناده للمذهب الذي يثبت وجوده على الساحة ويحقق انتشارا واسعا بين الناس، فلم تكن الدولة العربية من الدول التشريعية أي لم تعرف نظام القانون المدون وإنما ساح الأمر فوضويا في كتب الفقه الديني، وكان رجال الدين هم رجال القانون ورجال القضاء والتشريع في وقت واحد، ولذلك حينما كان يميل السلطان مع مذهب دون الآخر تبدأ الفتن والصراعات وتحتقن النفوس إلى درجة الغليان والكل في حلبة صراع للحفاظ على مركزه.. وبالطبع رجال القضاء على طول عصور التاريخ يتمتعون بمزايا شرفية عظيمة ومن شأنها أن تمثل مطمعا لكل النفوس.

أما التميُز فجاء بالاختلاف عن الغير، اتباعا لمبدأ "خالف تعرف" وعلى هذا المبدأ كان لديهم إصرار مبدئي على الاختلاف عن بعضهم وعدم الاتفاق، لأن الاتفاق كان من شأنه أن تذوب شخصية المذهب وتتلاشى معالمه وحدوده وإطاره الخارجي. ولذلك نجدهم يتصنعون الخلافات فيما بينهم، وإن لم يجدوها أوجدوها عنوة للتميز والانفراد، حتى أنهم تفرقوا في المسائل والحسابات الواقعية والتي لا تحتاج اجتهاد ولا تحتمل تأويل وإنما هي أرقام رياضية، مثل حساب المسافات والمقادير؛ الذراع والقدم والميل، فهم يبحثون مقدما إذا كان مذهب الشافعية يقدر الميل بالمتر، فيقوم المالكية بحسابه بوسيلة أخرى ولتكن الخطوة، وإذا كان الحنفية يقدرونه بالذراع، فيقوم الحنابلة بتقديره بالقدم وهكذا ليظل كل مذهب محتفظا بتميزه وانفراده.

أما فقهاء عصرنا فقد اقتنعوا بهذا الفقه وما زالوا يحاولون إقناعنا بأن اختلاف العلماء والمذاهب جاء رحمة بالأمة على اعتبار أننا في سوق الفقه وكل من يبحث عن سلعة أو رخصة سيجد منها بدائل عديدة وله أن يختار كيفما شاء! برغم أن عقولهم عجزت أو رفضت الاتفاق على الرأي السديد حتى في الحسابات الرياضية بالأرقام، فالرأي السديد لا يحتمل هذا القدر من الخلافات والاختلافات بين الفقهاء في كل مسألة تقريبا حتى صار الاختلاف ديدنهم والفرقة مذهبهم فقط لأجل التميز والتمييز بالعلامة المذهبية وكأنها ماركة تجارية، كل فريق يتمسك بالأرقام ووحدات القياس التي حددها شيخ المذهب.

فهذا الوضع ما هو إلا نسخة ثقافية من الصراع السياسي الذي شب بين أمراء الدولة العباسية في بغداد حينما تفتتت إلى دويلات صغيرة، بالتزامن مع تفتت الدولة الأموية بالأندلس إلى طوائف ونشبت

بينها الصراعات المسلحة ابتداءً من القرن الثاني عشر مع بداية صعود الحضارة الأوروبية الحديثة، فكل أمير وكل جماعة يبحثون عن مصلحة شخصية ضيقة بغض النظر عن المصلحة العامة، وفي النهاية أدى التفتت والتصارع إلى تلاشي قوة الجيش الموحدة مما أسرع بسقوط كلتا الدولتين العباسية في بغداد والأموية في الأندلس.. فالحضارة العربية كما قلنا مسبقا عانت نفس أعراض السقوط في كافة مجالات الحياة ولم يكن الصراع السياسي العسكري هو وحده عرض السقوط بداية من القرن الخامس لعمر الحضارة العربية، بل ظهرت أعراض هذا السقوط على الجانب الفكري والفقهي والعلمي كذلك بذات الوتيرة حيث احتقنت نفوس الفقهاء وضاق الفكر وتوقفت عن الإبداع والتجديد وما بقى سوى استمرار رحلة السقوط المدوي. ومعروف أن الصعود هو عملية بناء أما الهبوط والسقوط فهو عملية هدم لما تم بناءه.

ففي مرحلة الصعود الأولى للحضارة العربية تم بناء دولة بالمفهوم السياسي وتوسعت جغرافيا واتخذت لها عاصمة مقرا للحكم المركزي وأسست جيشا نظاميا وميزانية عامة وهيئة للأمن العام، وامتدت سيطرة الدولة العربية من شبه الجزيرة إلى الشام والعراق وفارس ومصر وشمال أفريقيا وبلاد الأندلس، وخلال الأربعة قرون الأولى من عمر هذه الدولة ازدهر العلم والعلماء وظهرت كتب الحديث والفقه والأئمة الأربعة الكبار، قدموا إبداعاتهم خلال هذه الحقبة. ثم في القرن الرابع من الحضارة كانت قد وصلت قمتها فقررت الهبوط مرة أخرى بعقلٍ جمعي، وعلى جميع المستويات كما كانت رحلة الصعود، بدأ الهبوط بالانحلال السياسي والصراعات بين الأمراء على السلطة.. وبدأت تتفكك أواصر الدولة العباسية وتشققت عنها دويلات صغيرة، وبذات المعدل تفتت الجيش العربي وانقسم إلى عدة جيوش بعدد هذه الدويلات، وفي الأندلس بالتزامن بدأ التفتت والتصارع وانقسم حكم الأندلس إلى طوائف وولايات مستقلة عن بعضها، وتصارع الأمراء وانقسم الجيش إلى عدة جيوش صغيرة بعدد الطوائف، وهذا ما سهل على الأوروبيين اقتطاع بعض من أراضي الأندلس ولاية بعد الأخرى على مدار مائتي عام حتى تلاشت الدولة العربية، وما تم بناءه خلال مرحلة الصعود انهدم تماما وخرج العرب من الأندلس، وانكمش الحكم العربي في الشام والعراق وفارس، عاد العرب إلى حظيرتهم وأخذت تركيا الراية واحتلت بلادهم بعدما احتلوها هم خلال مرحلة الصعود..

وبذات السيناريو على المستوى الثقافي والفكري، خلال مرحلة صعود نجم الحضارة العربية في القرون الأربعة الأولى ازدهرت الحركة العلمية والفقهية وظهر الفقهاء واللغويين والعلماء والأئمة الأربعة، ثم بداية من القرن الخامس من عمر الحضارة بالتزامن مع التفكك السياسي والعسكري، بدأ

تفتت الحركة العلمية وتجمدت العقول، وما تم إنجازه من مدارس وقواعد ومبادئ فقهية خلال مرحلة الصعود، تم هدمه تدريجيا خلال مرحلة السقوط، لكن مع الفارق؛ لأن البناء السياسي والعسكري يكون هدمه بمجرد تقرير حل هذا الكيان، مثلا تفتت الجيش أو الخروج من الأندلس، فهذا هدم للدولة التي تم بناءها خلال المرحلة السابقة.

أما على الجانب الثقافي والفكري، فالهدم يكون معنويا لا ماديا. وإن كان جميع المؤرخين والفقهاء قد أجمعوا على أن الفقه تجمد بداية من القرن الرابع لعمر الحضارة العربية، وتوقف الإبداع والتجديد عند حدود نقل واستنساخ ما كتبه الجيل الأول من الفقهاء، وإعادة شرحه والتحشية له مرات ومرات، لكن في الواقع هناك فرق شاسع ما بين تجمد الفقه وما بين انهياره، فالتجمد يعني ثبوت الوضع على حاله وتوقف البناء، أما الانهيار فيعني هدم ما بناه الأولون ! وإذا قلنا أن الحضارة العربية استمرت رحلة صعودها أربعة قرون من البناء، فلم يتوقف البناء ولكن بدأت عملية هدم تدريجية وتفتيت لما تم بناءه سياسيا وعسكريا، فهذا أمر من السهل تصوره، فبناء الجيش معروف ومفهوم، وهدم الجيش معروف ومفهوم أيضا، لكن كيف نتصور هدم الفقه الذي بناه الجيل الأول برغم أن الكتب ما زالت بين أيدينا على حالها؟

في حقيقة الأمر فإن الفكر هو كيان معنوي، وبالتالي طالما كان البناء معنوي وآثاره هي فقط الملموسة، فلا بد أن تأتي عملية الهدم من جنس البناء أي يكون الهدم معنويا وآثاره فقط هي الملموسة، فإذا قلنا أن كتب الفقه للأئمة الأربعة ما زالت موجودة بين أيدينا، فإن الفكر الذي بداخلها تم هدمه بمعاول معنوية، هذه المعاول هي العقول التي عملت عليه، فبعدما كان الفكر الفقهي حرا متنوعا متناغما في البداية، انشطر هذا الكيان وتفتت أجزاء صغيرة وفرق ومذاهب، وأصبح التفكير منحصرا داخل صناديق، وفي حدود ما تسمح به هذه الصناديق، وصارت هذه الفرق والمذاهب تتناحر وتتنافر فيما بينها حتى تباعدت، وطالما تفتت الكيان الفكري إلى أجزاء صغيرة وتنافرت هذه الأجزاء فهذه عملية هدم كاملة الأركان. فلو تصورنا عملية الهدم المادي لبناء ما أو منزل، ما هي إلا عملية تجزئة وتفتيت للأحجار التي قام عليها البناء وفصل الروابط المتصلة بين محتويات البناء وأجزاءه، فيتحول الكيان القائم على الأرض بارتفاع رأسي إلى مصطبة أفقية عريضة، أي أن ما كان رأسيا تحول إلى أفقي. ومجرد انقسام المدرسة الفقهية التي نهضت خلال عصر الحضارة وتفتيت أجزائها إلى مذاهب وقطع روابط الاتصال بينها وفصل الأجزاء عن بعضها، فهذا عين الهدم حتى وإن ظلت الكتب والمجلدات الفقهية قائمة بحالها،

كمثل قبيلة حينما يتفق أفرادها على قلب رجل واحد تكون قوة واحدة وعزيمة، وحينما يتفرقون تتلاشى قوتهم وينهدم بناء القبيلة برغم أن جميع الأفراد ما زالوا على قيد الحياة، هكذا الفقه..

وليس ببعيد ما وجدناه بين المذاهب الفقهية من صراعات وتنافر دائم ومحاولات عمدية لاصطناع خلافات شكلية فقط لمجرد الفصل بين المذاهب وإبعاد المسافات بينها، وهذا في الواقع ليس تجمد للفقه وليس توقف في البناء ولكن هدم لا يختلف عن أي عملية هدم لأي كيان في الكون، سواء كان ماديا أو معنويا. هذا هو المظهر الأول لهدم الفقه هو عملية التجزئة والتفتيت.

ليس ذلك فقط، بل إن الفقه على المذاهب الأربعة مازال متمسكا بحقبة الفتوحات على اعتبار أنها مصدر تشريع ديني، وما زال الفقه يحمل ملامحها الفكرية والسياسية، وما زالت هذه الحقبة التاريخية هي المرجع الأساسي للنظرية الفقهية، فما زالت نظرية الجهاد بنكهة الفتوحات العربية تملأ كتب الفقه على جميع المذاهب، وحتى الآن لم يدركوا كونها جرائم حربٍ ضد الإنسانية، بل اعتبروها حروب مقدسة من أجل الدين ! وهذه كارثة كبرى، أن تصبح جرائم الحرب طقوس دينية للعبادة، فهي تدفع المؤمن لأن يقتل نفسه طمعا في الجنة! ولهذا فكر هتلر بدهاء في استغلال العرب الجهلاء الذين لديهم هذه القناعة، فكان كثيرا ما يمدح في الدين الإسلامي فقط من أجل استغلال هذه الخاصية في المسلمين، حيث تمكن من استخدام ما يقارب عشرين ألف مقاتل مسلم في الحرب العالمية الثانية ممن يدفعهم الإيمان دفعا ساذجا إلى الموت طمعا في الجنة. فكان يقول أن الدين الذي يحمس أتباعه على القتال هو الأصلح لألمانيا !

وأما المظهر الثاني لعملية الهدم، فهو التحول من رأسي إلى أفقي، فنجد أنه في مرحلة الحضارة كان كل يوم يظهر فكر جديد وقواعد فقهية جديدة وازدهر الإبداع، وكانت هناك جرأة في العقل الجمعي على التأليف والإبداع، وضع الفقهاء مؤلفات حملت عناوين كبيرة وأفكار جريئة، بينما خلال مرحلة السقوط والهدم توقف دور العقل عند حدود تفصيص ما أنجزه الأولون بالشرح والتحشية، ولم يجرؤ العقل الفقهي على منافسة الجيل الأول، ولم يجرؤ على انتقاد أفكاره أو نقض الرديء منها وبناء أفضل.. فقط انكمش العقل وتوقف عن الإبداع رأسيا، وبالتوازي زاد الطفح الأفقي بدرجة مذهلة، ما جعلنا نرى فقهاء يتحدثون في أمور لا قيمة لها كمن يقول بافتراض رجل يحمل كيس من الفساء على ظهره، فإذا انخرق الكيس فهل ينقض الوضوء؟ هذا هو الانبطاح الأفقي في الفقه، فقد ابتعدوا عن كل قيمة علمية وفكرية وإنسانية، وانشغلوا بأمور أقل ما يقال عنها أنها خبل عقلي.

ليس هذا فقط، بل نقرأ في حاشية البجيرمي على الخطيب تحفة الحبيب على شرح الخطيب صفحة٨٤٢

" لو ابتلع طرف خيط مثلا بالليل ثم أصبح صائما، فإن ابتلع باقيه أو نزعه أفطر ؛ لأن ابتلاعه أكل (!!) ونزعه استقاءة (!!)، وإن تركه بطلت صلاته لاتصال الظاهر بالباطن المتنجس بما في باطنه (!!)، فطريقه في صحة صومه وصلاته أن ينزع منه وهو غافل(!!)، فإن لم يكن غافلا وتمكن من دفع النازع له أفطر لأن النزع موافق لغرض النفس فهو منسوب إليه عند تمكنه من الدفع له (!!)، وبهذا فارق من طعن بغير إذنه وتمكن من دفعه فإنه لا يفطر . فإن طعن نفسه أو طعنه غيره بإذنه أفطر فيهما (!!). قال الزركشي: وقد لا يطلع عارف بهذا الطريق ولا يريد هو الخلاص لنفسه، فطريقه أن يرفع أمره إلى الحاكم ويجبره على نزعه ولا يفطر لأنه كالمكره، فإن تعذر ذلك كله قلعه أو بلعه مراعاة للصلاة لأنها آكد وأعظم بدليل قتل تاركها دون تارك الصوم "[٣٥]. انتهى فضيلة الشيخ على أن الشخص الذي يبتلع خيط وهو نائم ثم يصبح صائم عليه أن يذهب إلى الحاكم كي يأخذ منه الإذن لقوات التنفيذ فتقوم بنزع الخيط رغما عنه حتى لا تكون له إرادة في نزع هذا الخيط فيكون بذلك قد أفطر !، وأهم ما في الموضوع أنه استخدم عبارة (الحاكم) وليس (ألقاضي).

كان الاتجاه العام يميل في التوسع الأفقي كمثل الطابع العام للحضارة العربية، أنها نبتت من عقلية نسيجها الذهني الزاحف المنبطح أرضا، ولما كانت النباتات الزاحفة بطبيعتها تتوسع وتتمدد أفقيا دون أي قدرة على الارتقاء الرأسي لافتقادها النسيج الدعامي الذي يشكل العمود الفقري لكل كائن، الكائن طالما افتقد عموده الفقري يظل مرنا هلاميا رخويا زاحفا وليس واقفا، وقد جاء الفقه من جنس العقلية العربية، وتوسع أفقيا في كل اتجاه وعشوائيا دون أي ضوابط موضوعية موحدة.

ففي منتصف القرن الماضي تجمع لفيف من خبراء القانون وحقوق الإنسان وممثلي الدول وأعلنوا الميثاق العالمي لحقوق الإنسان صاغه ممثلون من مختلف الخلفيات القانونية والثقافية من جميع أنحاء العالم، واعتمدت الجمعية العامة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في باريس بوصفه المعيار المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم. وهو يحدد، وللمرة الأولى، حقوق الإنسان الأساسية التي يتعين حمايتها عالميا. وجاءت مادته الأولى بنصها على أنه: يولد جميع الناس أحرارا ومتساوين في الكرامة والحقوق. وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضا بروح الإخاء.

(٣٥)ـ الرابط: http://islamilimleri.com/Kulliyat/Fkh/2Safii/pg_025_0036.htm

وأصبح هذا الميثاق موردا أساسيا لكثير من القوانين والدساتير حول العالم، وترجمت تلك الحقوق إلى 500 لغة من لغات العالم. وبمجرد أن تمت ترجمة هذا الميثاق إلى اللغة العربية أسرع ممثلوا الأزهر في الإفصاح بأن المبادئ ليست جديدة وإنما جاء بها الإسلام قبل ١٤٠٠ سنة، لكنهم لم يخبرونا طالما أن المادة العلمية والمبادئ المعيارية لهذا الميثاق موجودة في الإسلام فلماذا لم يعلنوا عنها وهم يعملون على تفسير القرآن والتفقه فيه على مدار ١٤٠٠ سنة، ولم يفكروا حتى في تشكيل جمعية عمومية للفقهاء والمذاهب والخلفيات المذهبية والطائفية لوضع معايير عامة تضبط بوصلة الجميع، إنما هم فكروا فقط في الاختلاف والتناحر مع بعضهم البعض..

وبرغم أن الاجتهاد الفقهي لم يتوقف لحظة إلا أنه جاء طول الوقت زاحفا أفقيا، فقد توسعوا أفقيا في جميع الاتجاهات ولم يرتقوا بأي فكرٍ إنساني، حتى وجدنا فتاوى من نوعية " مضاجعة الوداع " مضاجعة الزوج لزوجته المتوفاة وزواج الطفلات الصغيرات..إلخ. ولم نجدهم يجتمعوا ليضعوا مبادئ عامة يشتركون فيها تكون معيارا للفتوى حتى لا تنتهك حقوق الإنسان وقيمه وكرامته... لم يضعوا أي معايير موحدة في هذا الشأن وانتظروا الحضارة الأوروبية الحديثة لتضع لهم المعايير ثم بعد ذلك يقولون أن المعايير ثابتة بالقرآن والسنة ! وليس هناك أي حجة للفقهاء لأن استخلاص المعايير ليس بحاجة إلى تكنولوجيا وتقدم وإنما فقط في حاجة إلى عقلية إنسانية راقية.. والغريب أن الحضارة العربية بكاملها خلال رحلة صعودها وهبوطها لم تقرر ولم تضع أي وثيقة مبادئ من هذه النوعية، أيام كانوا يفتخرون بالتوسعات والفتوحات والاختراعات التي قدمها العباسيون في الميكانيكا والهندسة، وفي عز ازدهار الدولة العربية، ما يؤكد وجهة نظرنا السابقة بأنه لم تكن هناك حضارة عربية وإنما هوجة عربية، لأن جميع الحضارات التي قامت قبل حضارة العرب؛ في إيجبت والصين والهند وفارس وبابل وآشور واليونان والرومان..إلخ. جميعها أرست مبادئ يمكن وصفها بأنها مبادئ دستورية عامة اتفق عليها جموع الشعب بشأن حقوق الإنسان، عدا حضارة العرب لم تصل لهذا المبدأ ولا يمكن أن تصل لأن الدولة نشأت على عوائد الإغارة، ثم جاء الفقهاء ليقولوا بأن الإغارة جهاد وعبادة مقدسة ! فكيف سيفكرون في وضع ميثاق لحقوق الإنسان ! خاصة إذا كان العقل الفقهي مكبلا نفسيا بمتلازمة ستوكهولم العربية، فسيطرت عليهم العقلية العربية وهي من نوعية النسيج الزاحف أفقيا.

والكلام هنا ليس انتقاصا من الشريعة الإسلامية بل تعليق على أحكام الفقه الاجتهادية ذات البصمة العربية، والتي هي ميراث حضارة العرب الفاشلة، فقد توسعوا في الفقه بعدد فتاوي لا حصر لها، تفلسفوا في صغائر الأمور وماديتها، توسعوا أفقيا وانبطحوا رأسيا، حتى أنهم عندما فسروا الآية التي

تقول: (لا يمسه إلا المطهرون) قالوا معناها المصحف ولا يجوز لمسه إلا بعد الوضوء والتطهر بالماء، واختلفوا فيما إذا كان يجوز لمس الغلاف أو الصندوق الورقي أو الخشبي الموضوع فيه المصحف، وقال بعضهم يجوز لمس القماشة الموضوع فيها المصحف ويجوز لمس الصندوق الخشبي ولا يجوز لمس ورق المصحف إلا بعد الوضوء، وفرقوا بين المرأة والرجل في أحقية لمس المصحف أو جزء من القماشة الموضوع فيها المصحف .. بينما في الواقع، فالآية تتحدث عن التطهر المعنوي لا المادي، وتتحدث عن القرآن لا الورق والصندوق الخشبي، والمسّ بالقلوب والأفئدة وليس الأيدي.

كل هذا الخبل ما هو إلا توسع أفقي للفقه، مع انحطاط فكري وحضاري لدرجة جعلتهم يحتقرون المرأة، لدرجة أنهم في مسألة الفصل بين الزوج والزوجة عند وقوع نزاع، لم يقرروا أي حقوق للزوجة إطلاقا، بمعنى أن للزوج حق طلاق زوجته وقتما شاء، ولكن الزوجة ليس لها أي حق للخلاص منه حتى وإن عايشها في جنهم من سوء المعاملة، حتى وإن عاملها معاملة العبيد، بل قرروا للزوج حق الطاعة المطلقة وقالوا أن طاعة الزوج من طاعة الله، ثم إذا عذبها الزوج وهربت إلى بيت أهلها، كان الزوج يتتبعها بضابط الشرطة ويقوم بالتنفيذ الجبري عليها أي جذبها عنوة من شعرها لتخدم في بيت زوجها، ثم إذا نفرت منه اشتكاها مرة أخرى لبيت الطاعة الذي ابتكره الفقهاء، فيقوم بإبلاغ قسم الشرطة للقبض عليها مثل اللصوص والمجرمين واقتيادها إلى بيت زوجها ثانية، وتم إلغاء الإجراءات التعسفية للطاعة التي كانت تمارسها السلطات ضد المرأة باسم وبأمر الأزهر منذ دخول الإسلام إيجبت واستمر هذا الوضع الوحشي غير الإنساني لمدة تصل إلى ١٣٠٠ سنة منذ دخول العرب إيجبت.. ثم تم إلغاء الإجراءات بواسطة قوة الجيش بعد حركة يوليو ١١٩٥٢ وليس بواسطة الفقهاء الذين قالوا بأن ميثاق حقوق الإنسان موجود بالقرآن والسنة، وقرر القانون الوضعي للمرأة حق طلب الطلاق للضرر، لكن الغريب أن الفقهاء عثروا مؤخرا في عام ٢٠٠٠م على نص في موروثاتهم يؤيد حق الخلع للمرأة بعد ألف وأربعمائة عام!، فلماذا لم يقرروا هذا الحق منذ ألف عام مضت ؟

فيقول الإمام محمد عبده أنه وجد بعض الفقهاء يتعاملون مع عقد النكاح باعتباره عقد بيع مصلحة، ومحله هو (بضع المرأة) أي فرجها، فهم اختصروا العلاقة الزوجية في كوتها استمتاع بفرج المرأة ونكحها، وطالما توقفت مصلحة الرجل، توقفت النفقة، فإذا مرضت الزوجة فليس علي الزوج علاجها لأن العقد اختل بتعطل مصلحة الزوج في نكح المرأة فلا يلتزم بعلاجها ..! وإذا توفيت أفتى الفقهاء بعدم التزام الزوج بنفقات جنازتها ولا كفنها، على اعتبار أن عقد الزواج تم بين الزوج ووليّ المرأة، وتم على شروط هي تمكين الزوج من جسد المرأة، وطالما تعطل أحد شروط العقد بتوقف حق الرجل في

نكح المرأة بسبب وفاتها أو مرضها أفتوا بعدم التزام الزوج بعلاجها أو كفنها وإنما يعود الالتزام على ولي المرأة (أخيها أو والدها أو ابن عمها).. لكن بعضهم أقر للزوج حق معاشرة الزوج حتى بعد تعطل العقد بوفاتها، وقرر له الحق في "معاشرة الوداع" وهي جثة هامدة! وعلي هذا المنوال استمروا في التوسع الأفقي مع انحطاط فكري وانعدام للقيمة الإنسانية والرقي المعرفي..

بينما كان الإنسان المصري منذ فجر التاريخ يعرف القيم والأخلاق والفضيلة والعدالة بالفطرة وحتى قبل ظهور الديانات السماوية، والإسلام نظيف لكن العرب لوثوه بعقليتهم الغجرية، فدخل الإسلام إيجبت بعقلية العرب فلوث العقلية المصرية... يقول الدكتور نشأت الزهري في بحثه "الطلاق في مصر القديمة"، «لم يكتفِ الزوج في مصر القديمة بتطليق زوجته شفاهة بقوله لقد هجرتك بصفتك زوجة، بل كان يسلمها وثيقة طلاق مكتوبة تؤكد حريتها وانتهاء العلاقة الزوجية بينهما وتمكنها من الزواج بآخر إذا أرادت. وكان الشهود يوقعون على وثيقة الطلاق كما توقع وثيقة الزواج غير أنهم كانوا في وثيقة الطلاق ٤ شهود، بينما في عقد الزواج كانوا ١٦ شاهدًا، وكانت صيغة الطلاق كالآتي: «لقد هجرتك كزوجة لي، وإنني أفارقك، وليس لي مطلب على الإطلاق، كما أبلغك أنه يحل لكِ أن تتخذي لنفسك زوجًا آخر متى شئتِ."..

ولضمان حقوق المرأة في حالة الطلاق كانت عقود الزواج تنص على تعويض مادي مناسب للمرأة، ففي إحدى البرديات المحفوظة في المتحف البريطاني يوجد عقد زواج يرجع إلى عام ١٧٢ ق.م، بين الكاهن باجوش وزوجته تتي أمحتب يتعهد فيه الزوج بدفع تعويض كبير في غضون ٣٠ يومًا في حالة الطلاق.. ويضيف الزهري أن الزوجة كانت تستحق تعويضًا من المال عند طلاقها علاوة على المهر، بدأ التعويض في عصر الأسرات المصرية القديمة بضعف قيمة المهر.." وذكرت صحيفة ديلي ميل البريطانية أن قسم الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو كشف عن بردية عمرها نحو ٢٥٠٠ عام، كتبت بالديموطيقية، تنص على حصول المرأة على تعويض حال فشل الزواج، حيث تحصل حال الانفصال على ٣٠ قطعة فضة و٣٦ شوالا من الحبوب كل عام لبقية حياتها، مما يضمن توفير جميع احتياجاتها ... في الوقت ذاته الذي عاش فيه العرب في فوضى الدعارة والزنا والظهار وتعليق المرأة (ترك الزوج لها دون معاشرة ودون طلاق إلى ما لا نهاية).. أي أن أجدادنا الجبتيين كانوا مسلمين قبل الإسلام.

وكذلك استمروا في إقناع الناس بأن ختان الإناث سنة نبوية وواجب مقدس، ثم بعد حظر القانون لهذه العادة السيئة عادوا ليقولوا بأنه ليس سنة وبأنه يسبب أضرار كثيرة للإنسان وأنه ربما يكون

مجرد عادة اجتماعية متوارثة، لأن الحديث ضعيف!.. هذا ما يؤكد أن غالبية الأحكام الفقهية تقوم على سند هو تراث من عادات وتقاليد وأعراف العرب في عصورهم الوسطى، وليس الإسلام. بينما كان المصريين الفراعنة يقررون منذ فجر التاريخ حق الطلاق للرجل والمرأة على حد السواء منذ خمسة آلاف عام. فالعرب لم يعيشوا هذا الرقي الإنساني إلا خلال عهد الرسول فقط، وبعد وفاته عادوا ليدمجوا بين أعرافهم وتقاليدهم الجاهلية بالفقه الإسلامي ليقدموا لنا هجينا من أعرافهم والدين..

فالحضارة العربية لم تعرف نظام القانون والعدالة، وإنما عرفت نظام السلطة فقط القائمة على السيطرة، وأما القضاء فكان مورده العصبية المذهبية والفتوى فقط دون هيئة تشريعية ودون نصوص قانونية محددة ومشهرة لدى الكافة، بل كان الوضع إلى الفوضى الفقهية أقرب، كان القاضي يجلس على باب المسجد ليقضي بين الناس بدون نصوص أو مدونة قانونية ملزمة، كان يعتمد على كتب الفقه والآراء المتعددة والمتضاربة في كل مذهب، وكان كل قاضٍ يحكم وفق مذهبه، وغالبا ما تتعدد المذاهب في البلدان، وقد يتعدد قضاة المحكمة الواحدة حسب مذهب كلٍ منهم، وعلى كل قاضٍ أن يبحث في آراء شيوخه ليعثر على ما يناسب الحالة من آراء فيصدر حكمه.! وغالبا ما كانت الحسبة هي الوظيفة المجمعة لكل السلطات، حتى أن المؤرخ تقي الدين المقريزي الذي عاش في حقبة حكم قيل أنه حكم إسلامي، شغل المقريزي بضع وظائف كان منها وظيفة الحسبة، أو المحتسب الذي يدور في الأسواق ويراقب الأسعار و يراعى الأمن في الشوارع، وكانت وظيفة الحسبة تتضمن السلطات الثلاث مجتمعة، فالمحتسب يفتش عن الجناة، ويحكم عليهم ويقيم العقاب بنفسه. فهو البوليس وهو القاضي وهو أيضا الجلاد.

فمن الصعب تصور الوضع الفوضوي الذي ساد القضاء في هذه العصور اعتمادا على كتب الفقه، بل والغريب أنه حتى في عصرنا إذ حاول قضاة المحكمة حل مسألة ما في قضايا الأسرة والمسائل الشرعية، والتي قد يسندها القانون للراجح في أقوال جمهور الفقهاء، فيكون على القاضي أن يبحث في كتب الفقه القديمة سائحا حتى يعثر على الرأي الذي يراه محببا، فأذكر مثال، عرضت قضية على محكمة أسيوط للفصل في مسألة للشفعة، وبما أن الشفعة مصدرها الفقه الشرعي وليس القانون، فقد أحال القانون أمرها إلى المراجع الفقهية بشأن جواز انتقال حق الشفعة بالميراث من عدمه، لكن الغريب أن قاضي محكمة أسيوط ترك كل المذاهب الفقهية المشهورة، السنية والشيعية.. الشافعية والحنبلية والحنفية والمالكية والظاهرية، وذهب إلى كتاب " مجموعة الفتاوى الهندية " ووجد فيه رأيا فقهيا انتهى إلى عدم جواز توريث حق الشفعة، فتبنى قاضي محكمة أسيوط هذا الرأي وأعجبه

فأصدر حكمه بناءا عليه وضمن حيثيات الحكم استناده إلى "مجموعة الفتاوى الهندية" دون معقب، على اعتبار أن هذا هو رأي الشرع ! وهكذا كان القانون وكان القضاء في كل عصور الدولة العربية العباسية والأموية.

وقد تتناقض الآراء في القضية الواحدة حسب مذهب القاضي، ولا ذنب للمواطن الذي لجأ إلى قاضٍ أن يحكم له أو عليه، فالمتحكم هو مذهب القاضي، وليس قانون الدولة لأنه لم يكن للدولة قانون على النسق الفرعوني والروماني والبابلي، واستمر هذا الوضع المزري لأكثر من ألف عام، بدون مدونة قانونية تنظم حقوق الناس وواجباتهم سوى ما تتداوله ألسنة الفقهاء، وقد تأخروا في صناعة القانون لأكثر من ثلاثة آلاف عام، حتى جاء عصر الخديوي إسماعيل وأراد وضع منظومة قانونية موافقة للشريعة الإسلامية، فطلب من رجال الأزهر أن يقدموا له مدونة قانونية صالحة للتطبيق في المحاكم، وفوجئ بهم يقفون أمام القصر بعربة حصان محملة بأربعة أكوام من الكتب والمراجع الفقهية على المذاهب الأربعة، على أن يعتمدها الخديوي قانونا للدولة يطبق في المحاكم.. وبمجرد أن طل الخديوي من شرفته ونظر عربة الحصان وأكوام الكتب، سأل عنها، فأخبروه أنها مشروع القانون الجديد ! فطلب الخديوي منهم أن يستريحوا جانبا وكلف محاميا فرنسيا لوضع كود القانون المصري. والوضع لم يختلف كثيرا في كافة البلدان التي حكمتها الدولة العربية، سواء في مصر أو مكة أو دمشق أو بغداد أو الأندلس.

وكانت أبرز معالم الهدم والتفتت الكامل للفقه عندما شرع الفقيه القانوني عبد الرزاق السنهوري في وضع مشروع القانون المدني المصري منتصف القرن الماضي، عبّر صراحة عن أمنياته في وضع قانون يعتمد على الشريعة الإسلامية، ولم يكن عليه رقيب في صياغة القانون، ولم تمل عليه الدولة أي توجهات سياسية، بل تمتع بالحرية الكاملة، ومع أن مشروع القانون المدني الذي وضعه جاء متوافقا تماما مع الشريعة الإسلامية، لكنه لم يستق مصادره من أقوال الفقهاء بل من مصادر أجنبية فاقت عدالتها عدالة الفقهاء، اقتبس مادته من عشرين مصدرا من القوانين والتشريعات الأجنبية حول العالم ولم يستطع الاستفادة من فقه الشريعة، ولذلك نجده يقول حرفيا: "أما جعل الشريعة الإسلامية هي الأساس الأول الذي ينبني عليه تشريعنا المدني، فلا يزال أمنية من أعز الأماني التي تختلج بها الصدور،

وتنطوي عليها الجوانح، لكن قبل أن تصبح هذه الأمنية حقيقة واقعة ينبغي أن تقوم نهضة علمية قوية لدراسة الشريعة الإسلامية في ضوء القانون"[(٣٦)].

فعندما نعرض كل مذهب مستقل علي حدة ونقارنه بمبادئ العدل الإنسانية، أو نطبق عليه قواعد الدستور، سنكتشف أن كثيرا جدا من الأحكام الفقهية غير دستورية لما بها من مغالطات واقعية وعقلية منطقية، ففي كل مسألة قانونية نبحث عنها في اجتهادات الفقهاء على المذاهب الرئيسية سنجد في الغالب واحد أو اثنين منهم اقتربا من الصواب وأما البقية فقد شطحت مخيلاتها بعيدا جدا.

هذه هي الحقيقة الواقعية التي رآها الفقيه القانوني السنهوري باشا عند بحثه في أحكام الفقه الإسلامي فلم يجد ما يصلح أن يكون مصدرا لنصٍ قانوني صحيح، ونلاحظ أيضا أنه ذكر صراحة مخالفة الكثير من أحكام الفقه للمبادئ الدستورية ومبادئ العدالة، حتى وإن كان أسلوبه موشحا بالاحترام وبعيد عن التجريح، لكنه حذَر صراحة من اقتباس أحكام الفقه الإسلامي؛ فمن المؤسف أن نجد القانون الوضعي أكثر عدالة من أحكام الفقه الشرعي، كما يقول السنهوري: "يُراعى في الأخذ بأحكام الفقه الإسلامي التنسيق بين هذه الأحكام وبين المبادئ العامة التي يقوم عليها التشريع المدني في جملته، فلا يجوز الأخذ بحكم في الفقه الإسلامي يتعارض مع مبدأ من هذه المبادئ" (الوسيط في شرح القانون المدني: [٦١/١]).

بل إن الغريب في الأمر أن كتب الفقه التي درسها السابقون منذ ألف عام لا زالت هي بذاتها يتم طباعتها إلى اليوم وتدريسها بلغتها ولهجتها القديمة وألفاظها ومصطلحاتها التي كانت مألوفة في زمانها برغم أنها لم تعد مستخدمة في عصرنا، لكن الفقهاء يحافظون عليها من باب صيانة التخصص العلمي حتى لا يتطرق إليه العوام ويقرؤون في كتب الفقه ويناقشون العلماء، وكأنه دين العلماء فقط أما عوام الناس فدينهم هو ما يريده العلماء.. فقد جعلوا من الاصطلاحات التاريخية سياجا عقيما حولهم وكأنهم يستخدمون اللغة اللاتينية في دراسة العلم حتى لا يصل إليه عامة الناس، لدرجة أن أحد الشيوخ يسب ويلعن الشيخ الشعراوي لمجرد أنه قام بتبسيط العلم الشرعي باللغة التي يفهمها الناس ! برغم أن هذا الشيخ الحانق لم يضف للعوم الشرعية ١٪ مما أضافه الشيخ الشعراوي. وبرغم أن الفقه والعلم الشرعي وجد من أجل الشعوب أن تفهمه وتهضمه لا أن يظل معقما محنطا داخل المجلدات

(٣٦)ـ الوسيط في شرح القانون المدني: [٤٨/١].

الصفراء.. فإن كان علم الفيزياء للفيزيائيين وحدهم وعلم الطب للأطباء وحدهم، أما العلم الشرعي فهو لعامة الناس لأنهم هم المطلوب منهم تطبيقه وفهمه وهم من سيحاسبون على الحلال والحرام.

لكن من آثار انهيار وسقوط الحضارة العربية التي ما زالت مستمرة حتى ليوم، ليس فقط تفتيت العلم بالمذاهب والفرق وحشوه بالخزعبلات وإنما بعزله عن الجمهور، وتجميد ألفاظه ومصطلحاته واستمرار لغته ولهجته القديمة حتى اليوم وفتاواه وأحكامه على وضعها.. حتى صار ما ندرسه اليوم في قسم تاريخ القانون (المادة العلمية التاريخية وهي تاريخ تطور العلم) هو هو ما ندرسه في قسم الشريعة الإسلامية على أنه أحكام الشريعة الإسلامية !! فما زال فقهاء الأزهر ينظرون إلى تراثهم ويبحثون فيه عما يتوافق مع واقعهم بالكاد، وهذا ما يجعلهم دائما ينظرون إلى الحاضر باستهجان فقط لمجرد أنه يضعهم في موقفٍ محرج حينما يبحثون عنه في تراثهم فلا يجدون، ولذلك نجد كثيرا من فتاويهم تقول بأن الأصل هو المحظور واستثناءً تمت الإباحة لتسيير مصالح الناس! فأصبحت أغلب جوانب الحياة المعاصرة محظورة كأصل ومباحة كاستثناء لتسيير مصالح الناس ! في حين أن هذا الأصل ما هو إلا أعراض العقم الفكري التي أقامت الحظر بقياس عقولها الضيقة دون النظر إلى مبادئ القرآن، فأصبحت مبادئ القرآن – ضمنيا – محظورة كأصل ولكن بالنظر لعدم إمكانية تنفيذ هذا الحظر في الواقع فأصبح مباحا! وكأن الزنا أصبح حلال لعدم إمكانية منعه ! فببساطة لا يمكن أن يكون هناك استثناء مؤبد، فالاستثناء هو حالة مؤقتة وفردية ومحاطة بظروف خاصة تجعلها مختلفة عن كل الحالات، أما أن تكون حياة المجتمع كلها استثناء ! فهذا معناه ببساطة أن الحظر الأصلي هو الخطأ.. لكن الفقهاء ربما حاولوا التغلب على ذلك باختراع فرع جديد هو فقه القضايا المعاصرة، وهي تلك المسائل التي لم يجدوا لها حلولا في كتب التراث فالتزموا الحلول التي تتماشى مع ما تبناه القانون فيها !

كانت هذه نبذة عن التراث القانوني الذي تركه العرب من ثقافتهم وحضارتهم. ونتيجة الفوضى المعرفية بين الفقهاء وتعدد المذاهب انتهوا إلى حالة من الانحراف الفقهي ابتعدت كثيرا جدا عن المسار الصحيح، وابتنت أحكامهم الفقهية على آرائهم الشخصية والنصوص التي وثقوا في رواتها دون النظر بعين الاعتبار لطبيعة المجتمع ومبادئ الإسلام وآيات القرآن. غير أن الحضارة العربية أخذت سمة خاصة تختلف عن باقي الشعوب وهي المسحة الدينية بالإضافة إلى النرجسية العربية والطابع الحربي الخاص بمجتمع شبه الجزيرة، والنرجسية من طبيعة الشعب العربي تحديدا، أما المسحة الدينية فكانت لأن العرب بدؤوا رحلة صعود حضارتهم بظهور النبي فيهم، ومن ثم اعتبروا كل حاكم سياسي وكأنه نائب

عن النبي وأحاطوا الحكم العربي بقداسة وحصانة دينية الطابع عربية المشرب، فاعتبروا كل غير عربي أقل درجة من الإنسان، وكل غير مسلم فهو أقل درجة من الإنسان، وكل غير عربي غير مسلم أدنى درجات كثيرة..

وهكذا كانت نظرتهم لنا نحن المصريين عند دخولهم بلدنا واحتلالها. لم يدركوا أن غيرهم قد يكون أذكى منهم أو أكثر منهم إنسانية وتسامحا، اعتبروا أنفسهم شعب الله المختار، وكأنهم مفضلين على باقي البشر بالعرق والجنس العربي، وليس القيمة، مع أن الفقهاء طالما قالوا بأنه لا فرق لعربي على عجمي إلا بالتقوى، لكن في الواقع كانت عقلية المجتمع العربي غير مقتنعة بهذا القول، وبقي مجرد طرح نظري من بقايا الرسول تجملوا به في مجالسهم، ومارسوا النرجسية على غيرهم من الشعوب، لدرجة أن الفقهاء أنفسهم مارسوا هذه النرجسية على غيرهم من علماء الطبيعة، فاعترفوا لأنفسهم فقط بالعلم وحصروا لقب "عالِم" على أولئك المتخصصين في العلوم الفقهية، بينما نبذوا علماء الفيزياء والكيمياء ولم يعترفوا لهم بدرجة العالمية أبدا، فانقلب الزمان وأصبح لقب عالِم لا يقال إلا على المتخصصين في العلوم الطبيعية، واختص علماء الفقه بكلمة "شيخ".

هذه النبذة الموجزة عن النظم التشريعية القديمة اخترتها لتوضيح شيء هام فيما يخص وضع الحضارة العربية من التاريخ البشري، فالمقارنة بين النظم القانونية والتشريعية القديمة مع الحضارة العربية، تكشف مدى العبقرية التي وصل إليها المصريون القدماء عندما وضعوا مدونة قانونية دقيقة تنظم العلاقات والمعاملات في المجتمع المصري، وكذا المنظومة القانونية التي وضعها حمورابي مشرع الحضارة البابلية القديمة، وكذا المنظومة الرومانية وقانون الألواح الإثنى عشر التي وضعها الرومان، وكذا المجالس التشريعية التي اعتمدها المصريون والبابليون والرومان، كل ذلك مقارنة بفوضى المذاهب التي عاشت فيها الحضارة العربية يوضح مدى الخلل التنظيمي لدى العرب، لأنهم كان لديهم كنزا تشريعيا عظيما هو الإسلام بمبادئه وأحكامه، هذا الكنز لم يكن لدى الرومان والبابليين والمصريين مثله أو ربعه حتى، ومع ذلك لم يجد العرب استغلال هذا الكنز في وضع منظومة قانونية تنافس تلك النظم القانونية التي قامت في بابل وروما ومصر القديمة، ذلك لأن حضارتهم لم ترتق إلى مستوى وضع القوانين والتشريعات، لكن ذلك لا ضرر منه، إنما الضرر هو الفقه الذي جاء من ميراث الحضارة العربية وحمل ملامحها وسماتها الثقافية مبتعدا عن الإسلام، مع أنه حمل اسمه، لكنه في الواقع فقه عربي وليس إسلامي.

ونظرا لأن الدولة العربية أخذت فرصتها الحضارية، وصعدت من بلاد الحجاز وسيطرت على الشعوب المجاورة وامتدت أطرافها إلى اليمين واليسار بمساحات شاسعة جدا خلال ما يقل عن مائة عام فقط.. لكنها توسع أفقيا ولم ترتق رأسيا بما يتلاءم مع هذا القدر من التوسع الأفقي، ولم تمتد زمنيا بما يتلاءم مع هذه القدر من التوسع الأفقي، ولم تتمكن حتى من هضم منتجات الحضارات السابقة عليها، ولم تتمكن من وضع نظام قانوني يمكن وصفه بأنه "نظام قانوني" ولذلك فإنا المقارنة بين الحضارة المصرية القديمة وحضارة العرب لهو ظلم كبير للعرب، حتى وإن كانت الحضارة الجبتية سابقة على العرب بخمسة آلاف عام.

والدليل نسوقه إلى القارئ الكريم من مقالة للأستاذ طلعت رضوان، كتب يقول:

محمود سلام زناتي: من سمع بهذا الاسم ؟ يبدو أن الأحرار والمخلصين للغة العلم والبعيدين عن صخب الفضائيات، مُقدَر عليهم في ألواح الميديا والثقافة السائدة أن يظلوا خلف جدران الصمت، بتصور أبله لا يعرف أن الكلمة الجادة تعيش آلاف السنين رغم أنف آلية (اقتلوا المبدع الحر بتجاهل كتاباته) وهذا ما حدث مع كتب المرحوم بيومى قنديل وكتب د. مرفت عبد الناصر (وأكيد هناك غيرهما) وأعتقد أن د. محمود سلام زناتي هو الأقل شهرة في مناخنا الثقافي، رغم أنه تخصص في موضوع بالغ الأهمية وهو(القانون المصري القديم) ومقارنته بالبطلمي والروماني والإسلامي في كتاب بهذا العنوان صدر عام ١٩٨٥.

ود. زناتي هو أستاذ تاريخ وفلسفة القانون وشغل منصب عميد كلية الحقوق بجامعة أسيوط.
فند د. زناتى تهمة العبودية عن الحضارة المصرية، فأكد من خلال البرديات أن الأسرى تمتعوا ((بوضع قانوني واجتماعي أفضل من وضعهم في كثير من المدنيات القديمة. وكان الرقيق شأنه شأن الأحرار يتمتع بحالة مدنية رسمية بالنسبة للأمور الجارية. ويتخذ اسمًا مصريًا ويتمتع ببنوة شرعية حيث اسم أبيه واسم أمه يُدونان في السجل المدني كما تُدوَن جنسيته)) وفند تهمة الطغيان عن الملوك المصريين (الفراعنة وفق التعبير العبري) فاعتمد على شهادة ديودور الصقلى الذي ذكر أن عادة المصريين في حالة وفاة أحد ملوكهم يتم وضع النعش (في آخر أيام الحداد) أمام مدخل القبر. وتُشكل محكمة لتنظر فيما قدَم الملك المتوفى من أعمال . وأباحوا لمن شاء أن يتهمه. وألوف الناس الذين اجتمعوا لتشييعه ينصتون ويشتركون في التأبين إذا كان الملك المتوفى قضى حياة مجيدة (عادلة) أما إذا كانت حياته على العكس وضيعة (غير عادلة) تصايحت الجماهير(ضده) وفى هذه

الحالة يكون عقابه الحرمان من الدفن الرسمي، ولهذا كان من يأتي بعده يحرص على تحقيق العدل تجنبًا لهذا العار.

وكتب د. زناتي ((ليس عجيبًا بعد ذلك أن يقول ديودور في وصف ملوك مصر من واقع المعلومات التي ترامت إليه أنهم لم يكونوا يعيشون على نمط الحكام المستبدين في البلاد الأخرى فيعملون ما يشاءون تبعًا لأهوائهم غير خاضعين لرقابة ما، فقد رسمت القوانين حدود تصرفاتهم لا في حياتهم العامة فحسب بل في حياتهم الخاصة وأسلوب معيشتهم اليومية. وأن الملك لم يكن في قدرته أن يقضى في المخاصمات وفق ميوله الشخصية وإنما وفق ما تنص عليه القوانين في كل حالة)). ونقل د. زناتي عن الكتابة على جدران مقابر وزراء الأسرة السادسة عبارات مثل ((كنت أقضى بين الطرفين على نحو يرضيهما)) و((لقد قضيت بين الطرفين على نحو يهدئهما)) وجاء في نقوش مقبرة أحد وزراء الدولة الوسطى أنه كان يصدق على مستندات الحدود ويفصل بين مالك الأرض وجاره.

<u>مؤسسة القضاء في الحضارة المصرية:</u>

اهتم د. زناتي بنقل شهادة ديودور عن التنظيم القضائي في مصر القديمة. فذكر أن القاعدة هى تنصيب أفضل القضاة من عدة مدن، فكان يتم اختيار عشرة من هليوبوليس وعشرة من طيبة وعشرة من منف. يجتمع هؤلاء الثلاثون وينتخبون من بينهم أفضلهم رئيسًا للقضاة. وأن التنظيم القضائي في مصر القديمة عرف نظام الاستئناف أمام محكمة أعلى (كما حدث في العصر الحديث بعد آلاف السنين من تجربة أجدادنا) والأهم أن (القضاء في مصر القديمة كان مدنيًا ولم يكن دينيًا(ترتب على هذا التنظيم القضائي ترسيخ قيمة العدالة بين كافة المواطنين وبالتالي تأسست قاعدة المساواة المطلقة لا فرق بين الحاكم والمحكوم ولا بين المرأة والرجل).



وكان د. زناتي موفقـا وهو يستشهد بالعالم ماسبيرو الذي كتب ((المرأة المصرية من الطبقة الدنيا والمتوسطة أكثر احترامًا وأكثر استقلالا من أية امرأة أخرى في العالم)) وبالعالم ماكس ميلر((لم يكفل أي شعب قديم أو حديث للمرأة مركزًا قانونيًا مماثلا في سموه ما كفله لها سكان وادي النيل)) وبالعالم بارتوريه ((كل الشعوب القديمة في الغرب كما في الشرق يبدو أنها اجتمعت حول فكرة واحدة: أنْ تجعل من المرأة كائنـا أدنى من الناحية القانونية. أما مصر فإنها تعرض لنا منظرًا جد مختلف فنجد فيها المرأة مساوية للرجل من الناحية القانونية. لها نفس الحقوق وتعامل بنفس الكيفية)).

فكان تعليق د. زناتي:" لقد تمتعت المرأة في الحضارة المصرية بمكانة في المجتمع والأسرة لم تبلغها المرأة لدى شعب من الشعوب القديمة، بل في كثير من المجتمعات الحديثة ((فلم يعرف المصريون فكرة انفصال الجنسين وحجاب المرأة بل كانت المرأة تغدو وتروح في حرية وتتحدث مع من تشاء وتخرج بين الناس سافرة الوجه. وكانت تسهم بنصيب كبير في الحياة الاجتماعية)) وذكر أيضًا ((في مصر القديمة هناك من الدلائل ما يشير إلى أنّ الزوج والزوجة كانا يعاملان بالنسبة للحق في الطلاق على قدم المساواة. فكانت للزوجة حرية الانفصال عن زوجها كما كانت للزوج وذلك عكس الكثير من الشرائع القديمة التي لم تكن تساوى بين المرأة والرجل، حيث كان الطلاق حقـا مطلقـا للرجل. وفى حالة الطلاق يرد الطرف الراغب في الانفصال الحقوق المالية للطرف الآخر لا فرق بين المرأة والرجل.

والقانون المصري في سماحه بزواج الأرامل لاسيما من النساء، يُخالف ما جرت به بعض المدنيات القديمة التي كانت تحظر على الأرملة عقد زواج جديد. وأن القانون كان يعترف للبنت بحق ميراث مثل الولد)) وفى حالة الفرار من الجيش أو عصيان الأوامر فإن القانون المصري خالف كل القوانين في الدول الأخرى، فابتدع المشرع المصري عقوبة انفرد بها شعبنا وهى (فقدان الاعتبار) وعندما يأتي الجندي بأعمال بطولية يعود إليه (اعتباره) من جديد . وكان تعليق ديودور أن ((المشرع المصري جعل عقوبة (فقدان الاعتبار) أشد من عقوبة الموت، إذ أن (فقد الاعتبار) أعظم الشرور. كما أن المشرع رأى أن الذين يُحكم عليهم بالموت لا يفيدون الحياة العامة بشيء، بينما الذين يفقدون اعتبارهم يكونون مصدر خير لحرصهم على استرداد اعتبارهم)) ومن المواد القانونية ذات الأهمية التي رصدها ديودور، ونقلها د. زناتي أن الأب الذي يقتل ابنه (أو العكس) لم تكن توقع عليه عقوبة الموت، وإنما عقوبته أن يحتضن القاتل (الأب مثلا) جثة ابنه لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال تحت إشراف حراس رسميين (وللقارئ أن يتخيل الحالة النفسية للقاتل وهو يحتضن الجثة طوال هذه الأيام. وما هى التداعيات الشعورية وهو يتذكر ظروف الجريمة. وهل لو عاد به الزمن للوراء كان سيقتل أم أن هناك وسيلة أخرى لحل النزاع) وذكر ديودور أن جدودنا ابتدعوا عقوبة للزوجة التي تخون زوجها وهى قطع أنفها وكان تفسيره لهذه العقوبة أن المصريين كانوا يعتقدون أن قطع الأنف يعنى حرمان المرأة من مقومات الجمال .

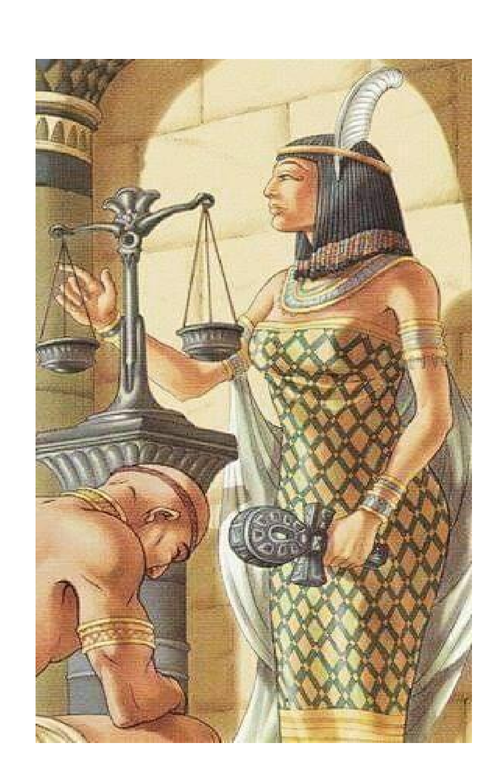
أما عقوبة السارق فكانت أن يلتزم بدفع ضِعف أو ثلاثة أمثال قيمة الشيء المسروق إلى صاحب الحق وتعويضه عن الضرر الذي أصابه نتيجة السرقة. وفى حالة صدور حكم بالموت على امرأة حامل فإن القانون نص على تأجيل تنفيذ العقوبة حتى تلد . وأكد ديودور أن هذا النص التشريعي انتقل إلى اليونان (ومنه إلى معظم دول العالم القديم والحديث)

وكان د. زناتى على درجة رفيعة من الموضوعية والالتزام بلغة العلم، فذكر في الجزء الخاص بالقانون بعد دخول المسيحية والإسلام مصر، أن الوضع القانوني للمرأة المصرية انحط وتراجع مقارنة بوضعها القانوني في مصر القديمة فكتب ((بعد دخول الإسلام مصر أخذت المرأة المصرية (المسلمة) تفقد حريتها واستقلالها. أما المرأة القبطية (يقصد المسيحية) فقد ظلت محتفظة بحريتها واستقلالها زمنـًا غير قصير)) وعن الإجراءات التي اتخذها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بقصد الحد من حرية النساء، فقد منعهن من الخروج ليلا. وأمر بمنع المرأة من كشف وجهها في الطريق العام أو خلف جنازة. ومنعها من زيارة القبور، لدرجة أنه في الأعياد (مثل عيد الفطر وعيد الأضحى) لم تظهر سيدة واحدة في القبور بسبب هذا المنع. وكانت الكارثة عندما صدر الأمر بمنع النساء من المشي في الطريق العام وتم

إغلاق الحمامات الشعبية الخاصة بهن . والتنبيه على صانعي الأحذية بعدم صناعة أحذية للنساء (من ص ٥٠ـ ٤٧٠)

الدكتور محمود سلام زناتي واحد من المفكرين الذين يعملون في صمت ولا ينشغلون بالدعاية لأنفسهم مثل من هم أقل منه كثيرا في امتلاك المعرفة. ورغم ذلك ستبقى كتاباته خالدة تتعلم منها الأجيال القادمة، بينما صمت القبور الحقيقي سيكون مصير من سعوا للدعاية ولم يكتبوا جملة تستحق القراءة ". انتهى.

وكانت أول قاضية في التاريخ .. القاضية المصرية " نبت" وهي قاضية و وزيرة من الأسرة السادسة كانت واحدة من ضمن النساء الموظفات اللاتي اعتلين مناصب عليا في الدولة المصرية القديمة. وتعتبر السيدة "نبت" أول وزيرة عدل بل و أول قاضية في التاريخ، و"نبت" تعنى باللغة الهيروغليفية "الربة" هى أول وزيرة عدل في التاريخ وكانت حماة الملك "تيتى" أشهر ملوك الأسرة السادسة وله هرم في "سقارة" مدون على جدرانه "متون الأهرام" أقدم نصوص دينية في التاريخ، وهى تدور حول فكرتي " الحياة في العالم الآخر" و "خلق الكون".



****



الإضاءة الرابعة

متلازمة ستوكهولم العربية

سبق وأن تعرفنا على متلازمة ستوكهولم العربية في الجزء الأول من هذا الكتاب، وعرفنا أنها عبارة عن عدوى نفسية تصيب العقل الجمعي للمجتمع إذا تعرض لظرف قهري مثل غزو أو احتلال وطنه من قبل جيوش خارجية، وتستمر هذه العدوى لفترة زمنية تجعل الضحية يخضع لا إراديا لسيطرة وهيمنة الغازي ودون أن يشعر بخضوعه، بل يكون على قناعة أن هذا هو الصواب، لكنه في الواقع لا يستطيع أن يدرك الصواب لأن الإرادة الجمعية غير حرة.

ولكل قارئ أن يتساءل لماذا تركت جامعة الأزهر كل أنواع المعارف والعلوم واعتبرتها مجرد حرف أو صنائع عديمة القيمة وأن العلم هو الدين فقط، مع أن كافة فروع المعرفة ضرورية للحياة وضرورية لبناء الحضارة بذات الدرجة، ولكن دعنا نفترض أن جامعة الأزهر كانت متخصصة حصرا في تدريس علوم الدين، وهذا يؤكد إهمال الدولة والمجتمع بالكامل لكافة أنواع المعرفة الأخرى لأن العقل الجبتي الجمعي كان في مرحلة سكون لمدة ألفي عام، فلماذا اهتمت جامعة الأزهر بتدريس المعرفة التاريخية حصرا؟ هل لأن التاريخ أهم من الطب والفيزياء؟.. بالفعل، لأن هذا التاريخ، التاريخ العربي المسمى لديهم باسم الدين هو مصدر للعديد من القواعد الفقهية وينسجم مع الفتاوى الدينية التي يدرسها الطلاب في الأزهر، بما فيه من إجرام وانحراف وقصور واعوجاج.. هذا التاريخ هو الغبار الثقافي الذي تخلف عن حملات الاحتلال العربي لإيجبت وغيرها، فقد رحل العرب وعادوا إلى الصحراء بينما بقى غبارهم ينتشر في الأجواء لتتنفسه الأجيال متتابعة جيل بعد الآخر، وكأننا نعيش حالة من العبودية للعرب وفق مفهوم " عبودية الأمم" ولهذا نقول أن الاحتلال العربي لإيجبت لم يرحل من بلادنا طالما مازلنا نتنفس غباره.

وإن رحل الاحتلال العربي فعليا فما زال غباره يحجب الرؤية في الأجواء.. ما زالت كتل من الضباب والغبار العربي تحجب عقولنا عن المستقبل، فتظل العقول تشعر بالدفء تحت هذا الغبار وتنظر إلى هذا الماضي الكسيح نظرة حنين وشوق باعتباره العصر الذهبي للدين، دون أن ندرك أنه محض سراب، فلا هو تاريخ الإسلام وإنما تاريخ عصابات من الغربان الصحراوية القرشية، وليس فيه أي قيمة إنسانية أو حضارية قد تساعدنا نحن الجبتين على العبور من نفق العصور الوسطى المظلم هذا، فطالما استشعرنا

الدفء تحت هذا الغبار الثقافي، وطالما استعذبنا هذا الزفير العربي القرشي، فلا يمكن لنا إلا أن نفكر بالعقلية التي فكروا بها، بعدما شحنت عقولنا بنوستالجيا الغبار العربي واعتبرناه جزء ومكون رئيس من ثقافتنا، واعتبرناه جزء من قوميتنا أو نسبنا أنفسنا لهذا الغبار!

بينما هم في الواقع شعب صحراوي بدوي وليس من شعوب الحضارات، له مكونات نفسية وعقلية نظرية مختلفة وجينات وراثية ليست كما شعوب الحضارات، وهم من نسيج ثقافي واجتماعي وعقلي مختلف كليا عنا، وفي تماس وتوازي مع شعب الهكسوس القديم.. فنحن لدينا الاستعداد الوراثي الجيني لبناء حضارة بينما هم جيناتهم لا تسمح بذلك، فلماذا نترك ثروتنا هذه ونعتنق غبارهم!.. وأتحدى أي قارئ وباحث أن يبحث في التاريخ الجبتي تحت الحكم العربي (حقبة الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين حتى عصر أحمد ابن طولون الذي استقل بإيجبت عن الدولة العباسية) أن يدرس تاريخ الحكام العرب وسلالة قريش في إيجبت ويخرج بأي إنجاز ثقافي أو اقتصادي قام به أبناء قريش في إيجبت.. فجميع المصادر التاريخية (ابن أياس وعبد اللطيف والمقريزي وابن عبد الحكم وغيرهم) لا تذكر إلا أن هذه الحقبة كانت نكبة على الجبتين وحلبة صراع سياسي وثروات وتمرد واغتيالات سياسية قرشية قذرة وعنصرية فجة وانهيار في أحوال الجبتين، لكن كتب التاريخ التي درسناها في مدارسنا تتجاهل الشأن الجبتي وحجم الذل والقهر والقمع العربي وتخجل منه، وتترك هذه الحقبة العفنة من تاريخ الجبتين وتضع مكانها إنجازات الخلفاء العباسيين في العراق في غزو الشعوب المجاورة باعتبار ذلك انتصارات إسلامية.

في الواقع ما ذلك إلا آثار خضوع ثقافي للاحتلال العربي، فالكثير منا لا يجرؤ على انتقاد حكام قريش في إيجبت خوفا من المؤسسة الدينية التي تعتبر ذلك حكما إسلاميا، ومازال أغلبنا مصابا بمتلازمة ستوكهولم، حتى وإن زال الاحتلال العربي فعليا من ناحية القوة المادية، لكن استمر غبار الاحتلال بالقوة المعنوية المتمثلة في تبني ثقافة العرب وتمنى الافتخار بالعرب ومجدهم وأشعارهم ولغتهم، لأنه منذ البداية نحن الجبتين لم نختر اللغة العربية بديلة عن لغتنا الجبتية الفرعونية المغروسة في عروقنا ونسيجنا الذهني، بل إن اللغة العربية فرضها علينا العرب عند دخولهم إيجبت بالقوة الجبرية، وبمرور الوقت استعذبنا هذه اللغة وتعايشنا معها وصار مجدها مجدا لنا. حيث كانت البداية مع موظفي الحكومة الجبتية الذين بيدهم دفاتر وسجلات الدولة وحصر السكان والأراضي والأملاك والضرائب، ثم بدخول العرب أول شيء فكروا فيه هو تعريب هذه السجلات كي يتمكنوا من حصر ثروة أجدادنا، وتعلم العرب منهم العلوم الإدارية والمالية، ثم فرضوا على الموظفين الجبتين

تعلم اللغة العربية وإلا سيتم فصلهم من العمل، وهو ما يهدد حياتهم وأسرهم فاضطروا للاستمرار في عملهم باللغة العربية، ثم فرضوا على الجبتين الصلاة باللغة العربية (مسلمين ومسيحيين في المساجد والكنائس)، ولم يسمحوا للمسلمين الجبتين أن يصلوا بلغتهم الجبتية، لأن العرب بطبيعتهم النرجسية والتعالي، فاعتبروا استخدام لغة غير لغتهم هو انتقاص من شأنهم، مع أن هذا حق الشعوب أن تستخدم لغاتها التي خلقها الله عليها.

واستمر الجبتين على هذا الوضع يستخدمون لغتهم على استحياء، حتى ٤٠٠ عام وجاء الحاكم بأمر الله وأمر بحظر استخدام اللغة الجبتية وعقاب من يتحدث بها. وفي الواقع لم يكن الإكراه في الدين مباشرة لكن كان ضغوط اقتصادية واستنزاف، بالإضافة إلى الإكراه في اللغة بالأمر المباشر الذي وصل إلى الإكراه في الصلاة باللغة العربية ومنع الصلاة باللغة الجبتية، مع أن الجبتين في هذا الوقت كانوا يتقربون من العرب خوفا من جبروتهم . وهذا ليس دفاعا عن المسيحيين أو حقوقهم في الصلاة بلغتهم، بقدر ما هو دفاع عن الإسلام ضد العرب لأن الإسلام أعظم شأنا وأجل قيما مما فعله العرب باسم الدين. فالإسلام ليس بحاجة إلى التفوق بإضعاف غيره والاستقواء عليه، إنما الإسلام قوي، والقوي من سماته العطاء وليس المنع والحظر.

هذه المتلازمة النفسية ربما تفسر خضوع الجبتين للغبار الثقافي العربي وتشبثهم به واعتباره جزء أصيل من الثقافة والقومية الجبتية، برغم أن العرب في الواقع كانوا محتلين لإيجبت، وربما لم تقع معارك مباشرة بين العرب والجبتين، لكنها وقعت بين العرب والرومان في إيجبت وقتها، ورحل الرومان وحل العرب المحتلين محلهم، وانشغلوا بجمع الجبايات والضرائب والإتاوات والجزية من الجبتين، وبنو لهم معسكرا خارج القاهرة، كانوا يخرجون منه بحملاتٍ عسكرية فقط لجمع الجبايات ووأد الثورات وحركات التمرد، ومع ذلك اعتبرناهم فاتحين نشروا الإسلام في بلادنا فهم أبطال ! فهل لم يكن ممكنا نشر الإسلام في إيجبت على منبر الدعوة ودون جيوش أصلا ودون جبايات ودون ضرائب وإتاوات ودون اغتصاب سلطة حكم البلاد والإدارة؟ هل كان الجبتيون يحبون العرب في هذا الوقت؟ فلماذا لم يعتنقوا الدين الإسلامي إلا بعد ٤٠٠ سنة؟ وفترة الأربعمائة عام هي عمر الدولة العربية الفعلي، وبمجرد أن سقطت الهيمنة العربية أقبل الناس على الدين، وبالطبع فإن معاملة أي محتل تكون بالقوة الجبرية، خاصة أن العرب اغتصبوا سلطة الحكم ومارسوا دور الحاكم الآمر الناهي وجمع الضرائب والجبايات من الجبتين بالقوة الجبرية وقمعوا ثورات الجبتين بمجازر دموية، ومع ذلك ما زلنا ندرس تاريخهم على أنه تاريخ الإسلام ونشعر مع هذا التاريخ بالمودة والحمية والقدسية الدينية

ونصفهم بأنهم كانوا فاتحين وليسوا محتلين! ونعتبر كل إساءة لهم إساءة للدين، ذلك لأننا لم نستخلص الدين نقيا وإنما تبنينا ثقافتهم.

بل إن الأمر وصل بشيخ الأزهر الأسبق حسن العطار إلى أن ألف كتابا يدافع فيه عن الاحتلال العثماني لإيجبت ويصفه بأنه فتح! وأطلق عليه مصطلح الفتح العثماني لإيجبت ! لأنه لا يختلف عن" الفتح العربي لإيجبت" فهل كانت إيجبت كافرة ليفتحها العثمانيون ؟ كان الجبتيون مسلمون وقت دخول العثمانيون، فهل كانوا يعرفون عن الإسلام أكثر مما يعرف الجبتيون؟ بالطبع الجبتيون أقدم منهم في الإسلام بأكثر من ثمانمائة عام وكان العثمانيون حديثي عهد بالإسلام! فكيف سماه الشيخ العطار " فتح عثماني؟ برغم أن الاحتلال العثماني مص كل موارد الاقتصاد الجبتي ودفعها إلى عاصمته الأستانة، وصادر الحرفيين والعلماء والفنانين وكل من له صنعة أو مهنة مميزة تم نقله إلى الأستانة لتكون مركز للنشاط الثقافي والاقتصادي العثماني، بينما ترك العثمانيون لإيجبت فقط عوائد الضرائب لـ ٢٢ قرية فقط تنفق على (الكتاتيب والسبل "التي تحمل اسم الخليفة العثماني") في إيجبت وباقي الضرائب يتم مصادرتها إلى تركيا ! ثم يأتي شيخ الأزهر ليدافع عن تركيا ويقول إنه " فتح ". فقط يمكن تفسير ذلك بالرجوع إلى النفسية المازوخية التي فسرتها متلازمة ستوكهولم لا غير.. لأن أكثر فئات المجتمع الجبتي التي تستلذ بالمازوخية والخضوع هم رجال الأزهر، فيعتبرون الخضوع للحاكم خضوعا لله، وبما أنهم غارقون بنوستالجيا الخلافة العربية، وما زالت عدوى ستوكهولم تلاحقهم، فقد انتقلت الخلافة من العراق إلى بغداد فهم معها، وبما أن مفهوم الحاكم لديهم ليس له شرعية وإنما شرعية الحاكم هي الغلبة.

فنقرأ بعض مقتطفات ضئيلة عن الخليفة العثماني، سليم الأول، ويذكر المؤرخ قول سليم حين كان في معسكره قبل دخول القاهرة: «غدا أدخل إيجبت فأحرق بيوتها وألعب بالسيف في أهلها«، بينما كان يشق القاهرة بموكبه ويقف المؤرخ الجبتي ابن إياس ليصفه فيقول: في الثالث من محرم ٩٢٣هـ، شق سليم الأول القاهرة من باب النصر بموكب عظيم وصولا إلى بولاق حيث أقام معسكره. ويصفه ابن إياس قائلا:" ذري اللون، حليق الذقن، وافر الأنف، واسع العينين، قصير القامة، في ظهره حنية، عنده خفة ورهج، كثير التلفت إذا ركب الفرس، له من العمر نحو أربعين سنة أو دون ذلك، وليس له نظام يعرف مثل الملوك السالفة، غير أنه سيئ الخلق سفاك للدماء شديد الغضب لا يراجع في قول".

وفي الخامس من محرم، بعد صلاة العشاء، باغت طومان باي بقواته معسكر سليم، وكان مع طومان باي العوام يرمون العثمانيين بالحجارة. فانسحب العثمانيون من مساحات واسعة، وسيطر المماليك على القاهرة جزئيًا وصاروا «يكبسون الحارات في طلب العثمانية». ثم كر العثمانيون على المماليك فطردوهم من الجزيرة الوسطى بالنيل ومن بولاق، وشنوا هجمة انتقامية على إحدى الزوايا في منطقة الناصرية، وأوقعوا بمن بها من العامة مذبحة مروعة.

وحاول طومان باي أن يتحصن بقواته في بعض الجوامع الكبيرة، ولكن داهم العثمانيون المساجد وسيطروا على منطقة إيجبت العتيقة واقتحموا ضريح السيدة نفيسة وداسوا قبرها ونهبوا ما به، ثم توجهوا لمسجد المؤيد واعتلى قناصتهم مئذنته وفتحوا منها الرصاص على الأهالي لمنعهم من اقتحام باب زويلة لمساعدة طومان باي ورجاله، حتى صعد هؤلاء الأخارى إلى المئذنة وقتلوا من بها من قناصة... ثم تراجع المماليك عن القاهرة التي تملكها سليم الأول مرة ثانية بعد ثلاثة أيام دامية. واندفع جنود الجيش العثماني يعيثون في القاهرة ويحرقون المساجد التي كان المماليك يتحصنون بها ويقتلون من يقابلون من الأهالي حتى عدد ابن إياس من قتلوا في تلك الواقعة بنحو العشرة آلاف!

ثم داهموا الجامع الأزهر ومسجد الحاكم بأمر الله وجامع أحمد بن طولون وعدة من المساجد والمزارات يفتشون فيها عن المماليك، وتكررت مشاهد كبس الحارات والبيوت وترويع الأهالي وقتلهم ظلمًا. وكان من يؤسَر يؤخذ لمعسكر سليم حيث يتم قطع رأسه وإلقاء جثته في النيل... ويسهب ابن إياس في سرد تلك المذابح المروعة ثم يشبهها بواقعة غزو الملك البابلي نبوخذ نصر لإيجبت في العصور القديمة، وباجتياح هولاكو بغداد سابقا. وأخيرًا، يعلن السلطان سليم الأول الأمان وإيقاف القتال، وإن لم يتوقف اعتداء جنوده على العوام وسرقتهم و«تشليح ثيابهم» و«سرقة عمائمهم» في الطريق.

ثم تبدأ مطاردة العثمانيين للمماليك وانتهاكاتهم بحق الجبتين. فقاموا بالقبض على قائد العسكر الجبتي والتنكيل به ثم قتله، ثم مداهمة الجند للمدافن والحارات والاصطبلات بحثا عمن اختبأ بها وقتله، بل وقتلهم من يشتبهون به، حتى قتل في تلك الواقعة بعض الأشراف ظلمًا. ولما تكاثرت رؤوس القتلى نصب العثمانيون أعمدة علقوها عليها... وبينما كان السلطان العثماني سليم يعين الموظفين من قبله لحصر ثروات البلاد، كان جنوده يستوقفون كل من يشتبهون به قائلين: «أنت جركسي»، فيقطعون رأسه أو يقولون له: «اشتر نفسك منا من القتل بشيء»، فيدفع لهم من المال

ما يفتدي به نفسه. كما داهموا بيوت السيدات النبيلات يستولون على ثرواتهن النقدية والعينية... (٣٧)

والأغرب من الخيال أن العثمانيون أنفسهم يعترفون بأن دخولهم إيجبت كان احتلال بقوة السيف ! ومع كل ذلك استمر فقهاء الأزهر يحتفلون بـ"الفتح العثماني لمصر" على غرار الفتوحات الإسلامية في بقاع الأرض، وخليفة عثماني على غرار الخلفاء الآخرين... حتى صار الفقهاء في الأزهر يبحثون في " شرط قرشية الخلافة " على اعتبار أن الأصل القرشي للخليفة طقسا دينيا بامتياز ولا يكتمل الدين إلا إذا كان الخليفة من أصل قرشي، لكن بعدما ضعفت الخلافة العباسية القرشية في بغداد أصبح الفقهاء في مأزق، فعادوا وتفاهموا حول هذا الشرط وجعلوا له استثناء، وقالوا أن " شرط قرشية الخلافة " فيه خلاف بين العلماء وكلام كثير ينتهي بأن شرط القرشية ليس على إطلاقه لمن يحوز على مرتبة الخلافة، بل يجوز أن يكون الخليفة عثمانيا ! فهو مشروط بتوافر أسباب القوة والحكم للحاكم القرشي كي يكون على رأس الدولة الإسلامية، وفي حين لم تتوافر أسباب القوة لقرشي (فلا مانع من تولي غيره من خارج العرب كلهم طالما حاز أسباب الحكم)، أي أن الأصل الديني عندهم قرشي، والاستثناء لا مانع من قبول غيره إذا عجز القرشي! وبعدما سقطت الدولة العباسية القرشية في العراق، وأصبحت القوة متوافرة حينها للحكام العثمانيين الذين نجحوا في غزو والسيطرة على هذه المنطقة من الشعوب، قال علماء الأزهر هنا يجوز للخليفة " أمير المؤمنين" أن يكون عثماني تركي!

هكذا يربطون دين الله بالجنسية ! جنسية الحاكم ! أليس ذلك على أنهم عبيد للقومية العربية وهم لا يشعرون ! أن أقسم بالله فينا أنهم عبيد للقومية العربية وفق مفهوم "عبودية الأمم " وهم مصابون بمتلازمة ستوكهولم العربية التي تجعلهم خاضعون للعرب دون وعي.. وليس أدل على ذلك من آلاف الفتاوى الفقهية التي أخرجوها بهذا النمط، واشترطوا كي تصح العبادة أن يكون الخليفة قرشي، ونسوا أو لم يدركوا أن الإسلام إنما جاء لعلاج القومية العربية القرشية المريضة ! التي تعاني من عاهة عقائدية مستديمة !

---

٣٧ ـ في كتابه الشهير «بدائع الزهور في وقائع الدهور»، دوّن المؤرخ المصري محمد بن إياس الحنفي وقائع دخول القوات العثمانية مصر بقيادة السلطان سليم الأول، واصطدامها أكثر من مرة بمقاومة المماليك والمصريين بقيادة السلطان المملوكي طومان باي، ثم فرض العثمانيين سيطرتهم على هذا البلد وضمه رسميًا لدولتهم الكبرى في العام ١٥١٧م.

بل إن الأغرب من ذلك أن تقرأ خبرا أكد فيه الإعلامي نشأت الديهي أن :" الإخواني سيد قطب كان يعتنق الفكر المتطرف عقب خروجه من السجن. وقال الديهي، في برنامجه "بالورقة و القلم" المذاع عبر فضائية "TEN"، مساء الخميس، أن سيد قطب خرج من السجن وهو يعتنق دينا جديدا. وأن سيد قطب اعتبر جميع المواطنين كفرة، ويترتب على ذلك أن لا يأكلوا ذبيحتهم ولا يتزوجوا منهم ويستبيحونهم، لافتا إلى أن القيادي الإخواني علي عشماوي أكد في مذكراته أن هذا الاتجاه كان خطيرا للغاية. وأشار "الديهي"، إلى أن عشماوي كتب في مذكراته أن سيد قطب لم يصلي صلاة الجمعة في حياته، قائلا: "علي عشماوي أكد في مذاكرته أن كان هناك مناقشة حامية بينه وبين سيد قطب، فطلب من الأخير أن يصلوا الجمعة حتى تهدأ الأمور، فرد قطب وقال له إنه (مش بيصلي الجمعة، لأن الجمعة سقطت طالما لم تقم الخلافة)، وعشماوي قال (أنا قبلت هذا الرأي على اعتبار أنه أعلم مني)"[(٣٨)]. !!

وهذا في الواقع يثبت بجلاء أننا نتبنى ثقافة قريش وليس الإسلام منذ أيام احتلالها لإيجبت على يد عمرو العاص، وما زلنا نستعذب ثقافتهم ونتبنى هذا الغبار الثقافي دينا لنا، ونعتبر نظام الحكم لديهم وهو "نظرية الخلافة " دينا لنا، حتى بعدما تحولت إلى نظام عصابات مسلحة، أصبح شرعية الخليفة بالغلبة ولمن تملك القوة والسيطرة بغض النظر عن حجم الدم.. !. فالقرآن يعلن أن التفاضل بين البشر عند الله يكون بالتقوى " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)/الحجرات، والخطاب للناس كافة " يَا أَيُّهَا النَّاسُ "، وبما أن التقوى ليست مقياسا بشريا بل إلهيا، " هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ " لذلك نهانا الله عن تزكية أنفسنا" أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلً " فإن البشر عند البشر متساوون مهما اختلفت لغاتهم وألوانهم وأجناسهم وعقائدهم، هذه القيمة القرآنية الأخلاقية والإنسانية، ومع ذلك جعل الفقهاء العرب أفضل الناس تدينا وتقوى إلى الله وبذلك أفتوا بأنهم أحق بالخلافة !

---

(٣٨)ـ رابط الخبر:

https://www.elwatannews.com/news/details/4150688?sm=true&fbclid=IwAR3lCK1TJEb6lS0b0dz6xc5BVrYmQCe1PdIAG_IiT2jvxzIQCvDkGnt75W0

أليس ذلك عبودية للعرب الذين نزلت الرسالة أصلا لعلاج شركهم وفسقهم ! والغريب أن الفقهاء يقولون بأنهم أحق بالخلافة والولاية الدينية لأن النبوة جاءت فيهم ! فهل جاءت لتزكيتهم أم لعلاجهم ! لم يستطع الفقهاء التمييز بين ما هو نتاج القومية العربية (الشعر والأدب واللغة) وهدي السماء الذي نزل من فوق لعلاج هذه القومية ! بل إن الفقهاء قدسوا العرب وأفاضوا واستفاضوا في ذلك بروايات عنصرية تجعل العرب وقريش أفضل البشر. وهذا ما يؤكد بيقين أن هذا الفكر ليس ناتجا عن إرادة حرة، وإنما إرادة مُكرهة وخاضعة خضوعا جمعيا وراثيا بمؤثرات متلازمة ستوكهولم العربية، وأنهم اتخذوا من تاريخ العرب دينا للشعوب دون أن يدروا ماذا يصنعون لأنهم مغيبون في الواقع غيبوبة زمنية طويلة المدى.

والغريب أن هذا الخبل العقلي ما زالت تقدمه وزارة التربية والتعليم كغذاء ثقافي للأطفال في المدارس في كتب التاريخ كي تتشكل عقلياتهم بروح القومية العربية والخلافة الإسلامية!، والأغرب أن تحتفل مكتبة القاهرة الكبرى[٣٩] بما أسمته "الفتح العثماني لإيجبت"، فهذه كارثة ثقافية وتاريخية بل وطنية بكل المقاييس. أما الأعجب أنه لا العرب ولا العثمانيون فرضوا الاحتفال بجرائمهم في بلادنا، وإنما مازوخية الخضوع والتلذذ به وعدوى ستوكهولم هي التي مازلت تحرك أفكارنا لأن أفكارنا ليست حرة، فالعرب لم يفرضوا علينا العيش في ظل هذا الغبار الثقافي، نحن من لجأنا إليه ولملمنا فضلاتهم ونفاياتهم الثقافية وجرائمهم في حق شعبنا واحتضناها وفتحنا أقساما في جامعاتنا لتدريسه!

وهذه أزمة نفسية جبتية حتى النخاع نابعة من العقلية الجبتية التي صعدت القمة في العهد الفرعوني وجاء دورها لتهبط هبوطا طويلا جدا لثلاثة آلاف عام فقدت خلاله ثقتها وشعورها الذاتي بالانتماء لهذه الأرض، فالإنسان لا يمكن أن يتبنى ثقافة غيره أو يستسلم لها ويتنكر لذاته وأصله إلا إذا كان يعاني أزمة وانهيارا نفسيا على المدى البعيد يجعله تابعا لغيره غير واثق في نفسه وإمكاناته ويفقد الجرأة في التعامل مع الحياة من حوله. وفي الواقع فإن مرحلة الهبوط الطويل هذه لا تنتهي فجأة، بل تدريجيا، فالشعب الجبتي حتى عام ١٨٠٠ كان خاضعا خضوعا كليا (ماديا وثقافيا) للغير، فتوالى المستعمرين بالقوة المادية العسكرية والقوة المعنوية الثقافية معها، ثم استقل

---

٣٩ ـ رابط المصدر: http://el7ekaya.com/opinion/2016/08/09/16570

الشعب الجبتي بحكم بلاده نصف استقلال من حيث القوة المادية بداية القرن الثامن عشر بظهور محمد علي، ثم في القرن العشرين استقل استقلالا ماديا كاملا.

وبدأت مرحلة الاستقلال الثقافي الوعيوي بثورة ٢٥ يناير، حيث أن الشعب الجبتي بالفعل جيشه جبتي وشرطته جبتية لكنه فعليا لا يملك توجيه هذه القوة المادية بقوته الثقافية المعنوية، فهو مستقل ماديا لكنه مازال خاضعا ثقافيا وذهنيا، طالما لم يستطع بعقله السيطرة على قوته المادية، والاستقلال الثقافي لا يكون فقط على المستوى السياسي بل استقلال في الوعي، في الفكر، في الإرادة، استقلال من كافة المؤثرات الثقافية الأخرى، خاصة المانع الأدبي بما فيها آثار الغبار الثقافي للاحتلال العربي الذي ما زلنا نستعذب العيش فيه، وسنظل نستعذب العيش فيه خلال القرن الحالي أيضا؛ لأن العقل الجمعي كما الفردي سيكولوجيا له أطوار ومراحل تدريجية متتابعة.

أما المشكلة الأكبر، فهي أن هذه الحقبة التاريخية هي التي ظهر فيها الفقهاء الأربعة الكبار، وجميعهم مصابون بعدوى متلازمة ستوكهولم العربية، وشرعوا أحداثها السياسية والعسكرية وأقروها بأعرافها وتقاليدها باعتبارها قواعد شرعية، وما زال هذا الفقه يدرس في الأزهر إلى اليوم، فيكون تاريخ هذه الحقبة هو تاريخ للإسلام، وفي الواقع هو متعلق بمناهج الفقه التي يدرسها الأزهر وليس متعلق بالدين في شيء، وهذا ما جعل الفقه في الواقع جزء من نسيج التاريخ العربي وليس الإسلام.

أما الجانب الآخر والذي لا يقل خطورة، فهو قسم اللغة العربية ذاتها؛ لأن الطلاب يدرسون اللغة العربية بخلفياتها الثقافية، وهذه الخلفية الثقافية متمثلة في جانبين هم مركز الخطورة؛ أما الجانب الأول؛ فالخلفية الثقافية للغة العربية تضم ثقافة نظرية بحتة وهي منقطعة الصلة بالتفكير العلمي لأن منشأها ومنبتها نسيج العقل العربي وهو عقل نظري وليس عملي تطبيقي، فهي تقوم في الأساس على الشعر والنثر العربي القديم، وهذه الثقافة لا تحمل أي قدر من التفكير العلمي والمنطقي المنظم، وليس بها أدنى قدر من المعارف التطبيقية والعلوم الطبيعية، هي فقط شعر ونثر ملأ الحياة العربية القديمة، وهي خالية من كافة ملامح التحضر وليست دافعة للابتكار، وليست لها خلفية أو تجربة حضارية مثل الحضارة الجبتية الفرعونية، فقط هي قائمة على تراكم نثري وشعري أدبي بحت، ولا يمكن أن ينتج هذا النوع المعرفة عقلية مفيدة ومنتجة في العصر الحالي، هذا فضلا عما تصنعه من نوستالجيا عشق الماضي، نتيجة الخلفية الثقافية التي تراكمت بملايين من

الصور الذهنية للصحراء والخيام والحياة البدوية البدائية، وحياة الدعة والكسل والتأمل النظري المجرد.

غير أنها في الجملة، هذه الثقافة النظرية الشعرية والنثرية، هي في الجملة نتاج العقلية العربية في الماضي، وكما أوضحنا أن العقلية العربية بطبيعة تكوينها النفسي ليست من شعوب الحضارات، وليست مؤهلة جينيا لبناء حضارة، لأن اللغة تحمل ملامح الفكر والثقافة، والفكر والثقافة يحملان الملامح النفسية ومعالم النسيج الذهني لهذا الشعب ويمثلان خبراته وتجاربه وإمكاناته العقلية، حتى أن لغتهم جاءت أدبية وليست علمية، فاللغة العربية موطن تميزها وعبقريتها هو الفكر الأدبي النظري سواء نثرا أو شعرا؛ وبالتالي فالخلفية الثقافية لهذه اللغة ليست علمية وإنما أدبية نظرية بحتة، وتساهم في تقدم الأمم بقدر ما تقدم العرب قديما فقط دون أن تتجاوزهم، هذه الخلفية الثقافية نابعة من العقل العربي وتحمل سماته النفسية والعقلية، وهنا مكمن الخطورة؛ لأن تبني ثقافة العرب أو محاولة استخدام أدواتهم الثقافية لن يقدم ولن يجدي مع طوفان الحضارة المعاصرة. ولهذا يجب على الدولة إدراك مسار الدفة التعليمية وتقليل المناهج الأدبية في حدها الأدنى وتكثيف المناهج العلمية بأقصى ما يمكن فهي التي تنسجم مع المزاج والنفسية لأن نسيج العقلية الجبتية علمي وليس أدبي، ولذلك تفكيره عملي تطبيقي وليس نظري شفوي، ونشاطاته في الحياة عملية تطبيقية حرفية وصناعية وعلمية مختلفة تماما عن أبجديات الحياة لدى الشعب السعودي، فكيف ينتج العقل الجبتي العسل إذا تغذى على القش؟

والمشكلة ليست في اللغة ذاتها، بل يمكن استخدام هذه اللغة في أي فرع من فروع المعرفة، وتطويعها من خلال عمليات التعريب التي يتولاها المجمع اللغوي بالقاهرة، وتطعيم هذه اللغة بمصطلحات جديدة كافية، لكن المشكلة فقط في خلفيتها الثقافية الأدبية النابعة من عقلية عربية غير مؤهلة جينيا لبناء حضارة وعلم وعلوم تطبيقية، فالعلم ليس من أبجديات العرب ولا من أدبياتهم وليس لديهم استعداد نفسي جيني وراثي له، ولذلك إذا تبنينا اللغة العربية بخلفيتها الثقافية، فنحن نضع أنفسنا في خندق العدوى العربية بإرادتنا وباختيارنا نقرر أن نكون شعبا صحراويا حضارته أدبية نظرية بحتة وكل طموحه النفوذ والتسلط والسيطرة أو الفخر والهجاء.. فلديهم المعلقات، ولدينا الأهرامات، وكلاهما باقٍ للزمن، وكلاهما أثرٌ لحضارة، الأولى أدبية والثانية علمية، وعلى من يفكر أن يبني حضارة البحث مقدما في مواصفات البذرة التي يغرسها ويرويها ليجني ثمارها.

إن أول خطى الحضارة والرقي والتقدم في حياة الإنسان تبدأ بمصالحة النفس والاعتراف بالفشل والوقوف على أسباب هذا الفشل والحقائق الواقعية، إنما الإصرار والمكابرة وتضخيم وهم الماضي لن يقدم سوى مزيدٍ من الفشل والتراجع. وللحقيقة أنا لا يرضي طموحي هذا القدر الضئيل من العلوم للفخر به، مقابل المجازر التي ارتكبها العرب بحق الشعوب المسلمة وغير المسلمة، وما وقع فيه الفقهاء من أفكارٍ خاطئة أوجدت ممارساتٍ وتطبيقات عملية غير إنسانية، لا تحمل أيَ قدرٍ من التسامح والرحمة أو الرأفة أو السلام الاجتماعي، فالتاريخ العربي ليس به إلا صفحة واحدة بيضاء طوله ثلاثة وعشرين عاما من الزمان، هي صفحة النبي عليه السلام. وبالتالي لا بد أن نتصالح مع أنفسنا ونكون واقعيين أمام التاريخ، لا نصرَ على الفخر والاحتفاء به مع أن عدد الملايين الذين تم قتلهم وذبحهم وأسرهم واسترقاقهم يفوق ملايين المرات عدد الكتب العلمية التي تم تأليفها أو جاءت بفائدة للبشرية..

إن الأزمة الفعلية أننا نستحيي من انتقاد تاريخ العرب خوفا من المساس بالتراث الديني وبأشخاص الصحابة، وهذا ما يدفعنا إلى اعتبار تصرفاتهم ومناهجهم السياسية نموذجا غير قابل للطعن عليه، ومع ذلك، ففي كل المعارك الفكرية وعلى مدار التاريخ يكون المتشبثون بالتراث الديني في موقف الهجوم، وهو مركز قوة باعتبار الأغلبية، فالعالم العبقري إديسون عندما اخترع المصباح الكهربي لأول مرة هاجمه الناس وطاردوه في الشوارع وقذفوه بالحجارة باعتباره ساحر وزنديق، لكن في النهاية تنتصر الأفكار لأن الأفكار لا تموت، وما أراد إديسون إلا أن ينير لهم الدنيا لكنهم لم يدركوا قيمة النور.

****

إلى اللقاء في الجزء الثالث..



الفهرس